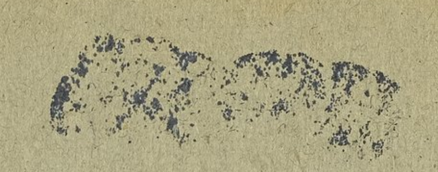
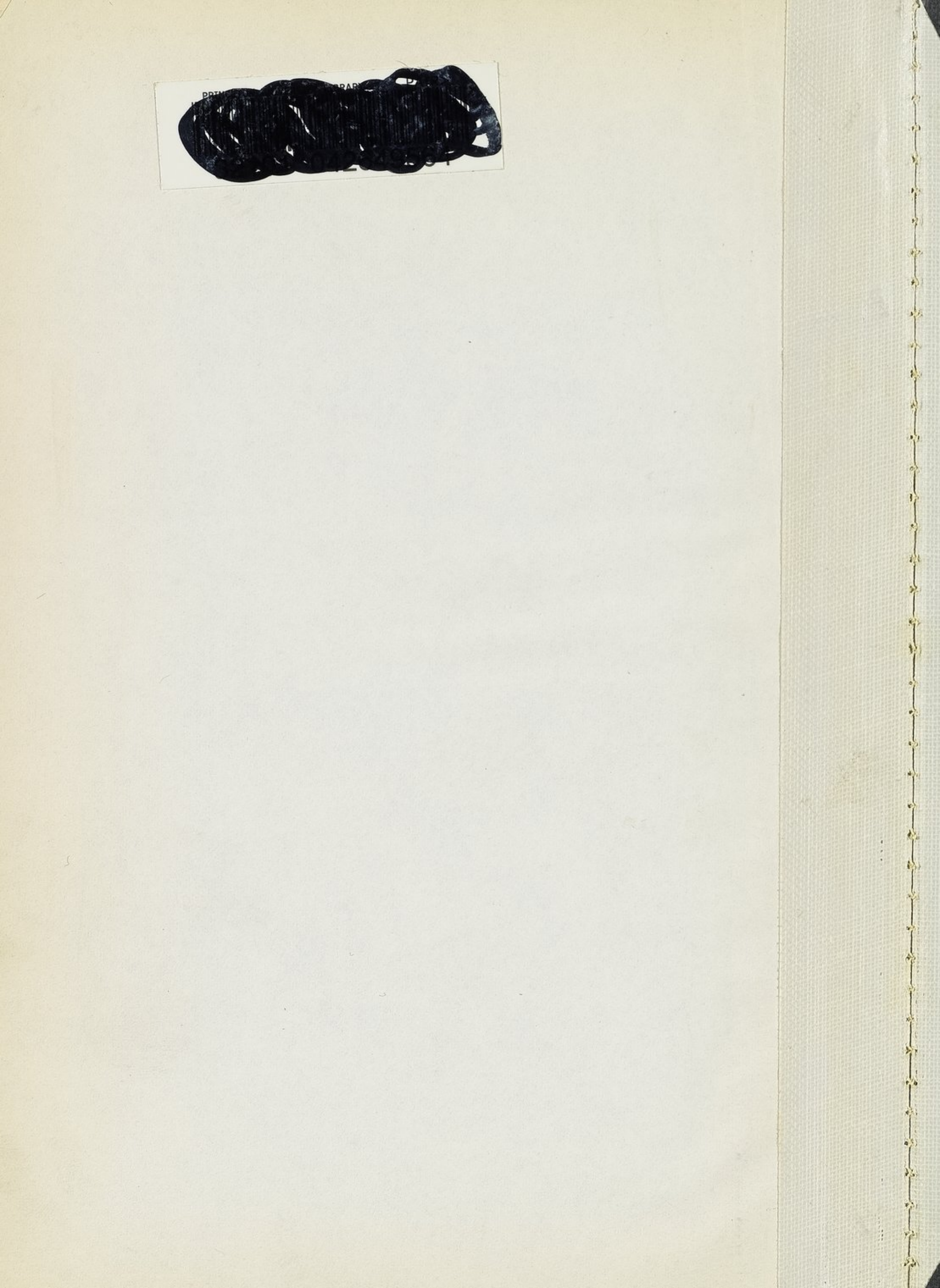
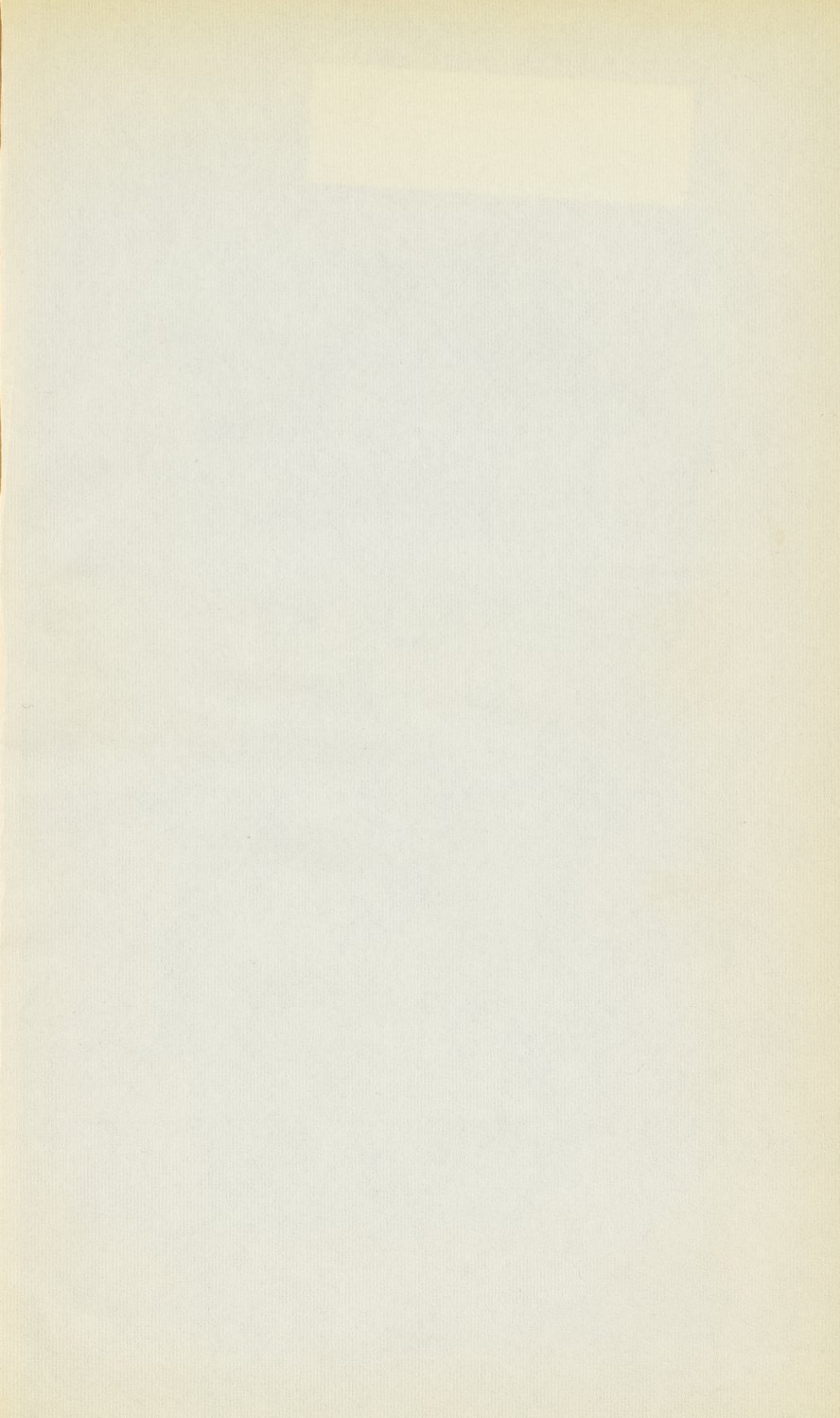
MUHAMMAD IBN 'ABD AL-WAHHAB

KITAB AL-TAWHID



DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE
JUN 15 20[illegible]			





كتابُ التوّحيد
الذى هو حق الله على العبيد

تأليف
الإمام العلامة صاحب النهضة الدينية المجدد شيخ الإسلام
محمد بن عبد الوهاب
المتوفى سنة ١٢٠٦ رضى الله عنه وأرضاه

علق عليه أحد أفاضل العلماء

راجعه وصححه
أحمد محمد شاكر

دار المعارِف للطباعة والنشر بمصر

أمر بطبعه حضرة صاحب الجلالة
الملك عبد العزيز آل سعود
وقفاً لله وابتغاء مثوبته

Muḥammad ibn ʿAbd al-Wahhāb

كتاب التوحيد
الذى هو حق الله على العبيد

Kitāb al-tawḥīd

تأليف

الإمام العلامة صاحب النهضة الدينية المجدد شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب

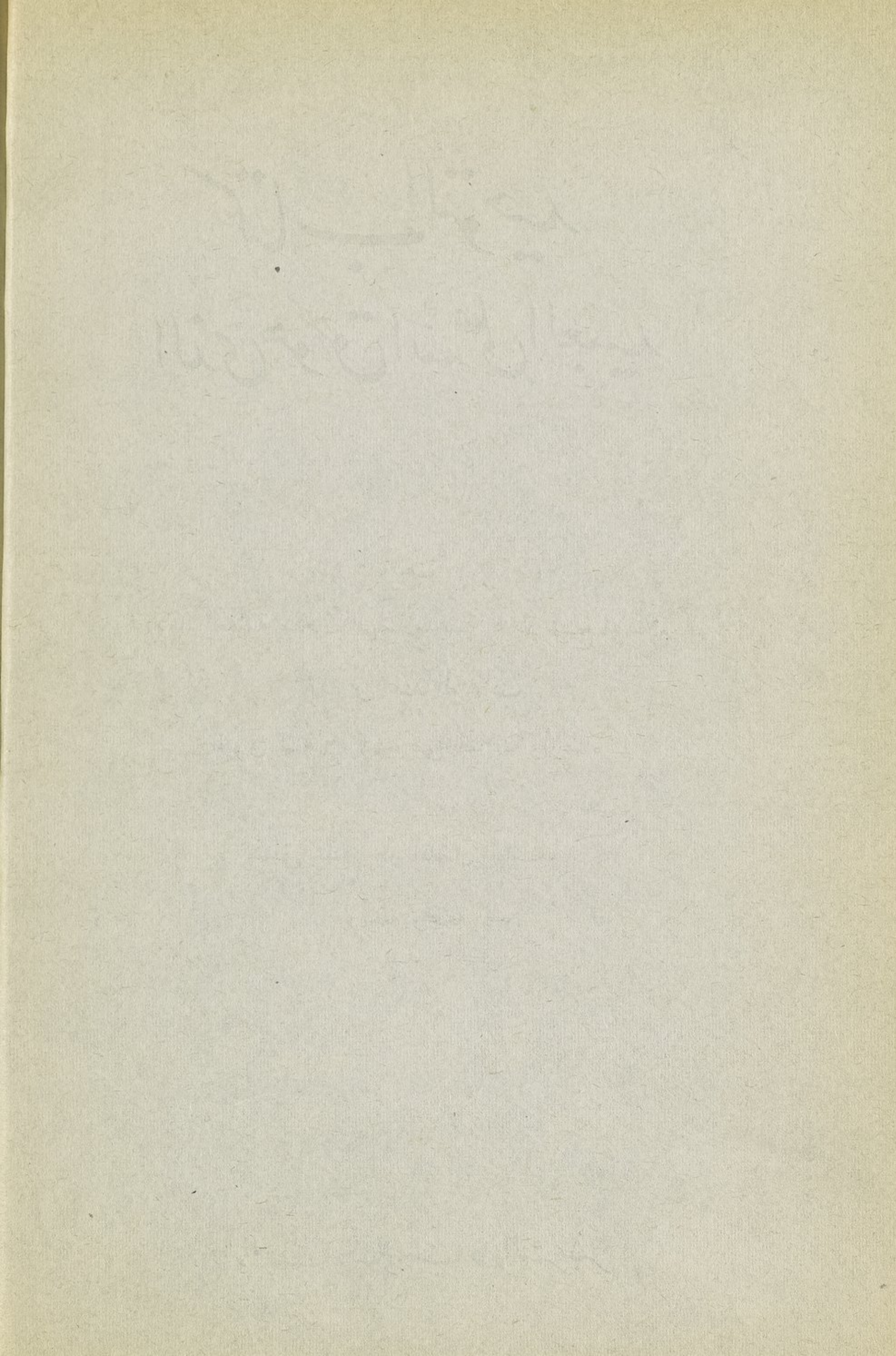
المتوفى سنة ١٢٠٦ رضى الله عنه وأرضاه .

علق عليه أحد أفاضل العلماء

راجعه وصححه

أحمد محمد شاكر

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر





بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب التوحيد[1]

وقول الله تعالى : (وما خلقتُ الجنَّ والإنْسَ إلاَّ ليعبُدُونِ) . وقولِه : (ولقد بعثْنا في كلِّ أُمَّةٍ رسولاً أنِ اعبُدوا اللهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) الآيةَ . وقوله : (وقضى ربُّكَ أن لا تعبُدوا إلاَّ إيَّاهُ وبالوالِدينِ إحساناً) الآية . وقوله : (واعبدُوا اللهَ ولا تُشرِكُوا بهِ شيئاً) الآية . وقوله : (قُلْ تعالَوْا أتلُ ما حرَّمَ ربُّكم عليكم أن لا تُشرِكُوا به شيئاً) الآيات .

قال ابنُ مسعودٍ : من أرادَ أن ينظُرَ إلى وصيَّةِ محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمُهُ فليقرأْ قوله تعالى : (قُلْ تعالَوْا أتلُ ما حرَّمَ ربُّكم عليكم أن لا تُشرِكُوا بهِ شيئاً) إلى قوله : (وأنَّ هذا صِراطِي مُستقيماً) الآية . وعن مُعاذِ بنِ جبلٍ رضى الله عنه

---

(١) التوحيد إفراد الخالق بالعبادة ذاتاً وصفة وأفعالا — قال العلامة ابن القيم في مدارج السالكين : التوحيد نوعان ، نوع في العلم والاعتقاد ، ونوع في الإرادة والقصد ، ويسمى الأول التوحيد العلمي ، والثاني التوحيد القصدي الإرادي ، لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة ، والثاني بالقصد والإرادة .

قال : « كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم على حمارٍ ، فقال لى : يَا مُعَاذُ ، أَتَدْرِى ما حَقُّ الله على العِبَادِ وما حقُّ العِبادِ على اللهِ ؟ قُلْتُ : اللهُ ورسولُه أَعْلَمُ ، قال : حَقُّ اللهِ على العِبَادِ أن يَعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكُوا بهِ شيئًا ، وحقُّ العِبَادِ على الله ان لا يُعَذِّبَ مَنَ لا يُشْرِكُ بهِ شيئاً ، قلت : يا رسولَ الله أَفلاَ أُبَشِّرُ النّاس ؟ قال : لا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا » أَخْرَجَاهُ فى الصّحِيحَيْنِ .

« فيه مسائل » : الأولى الحكمة فى خلق الجن والإنس . الثانية أن العبادة هى التوحيد ، لأن الخصومة فيه . الثالثة أن من لم يأت به لم يعبد الله ، ففيه معنى قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) . الرابعة الحكمة فى إرسال الرسل . الخامسة أن الرسالة عمت كل أمة . السادسة أن دين الأنبياء واحد . السابعة المسألة الكبيرة ، أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت ، ففيه معنى قوله : (فمن يكفر بالطاغوت) الآية . الثامنة أن الطاغوت عام فى كل ما عبد من دون الله . التاسعة عظم شأن ثلاث الآيات المحكمات فى سورة الأنعام عند السلف ، وفيها عشر مسائل ، أولها النهى عن الشرك . العاشرة الآيات المحكمات فى سورة الإسراء ، وفيها ثمانية عشرة مسألة ، بدأها الله بقوله : (ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً) وختمها بقوله : (ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً) . ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله : (ذلك مما أوحى إليك ربك من

الحكمة) . الحادية عشرة آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة ، بدأها الله تعالى بقوله (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) . الثانية عشرة التنبيه على وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته . الثالثة عشرة معرفة حق الله علينا . الرابعة عشرة معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه . الخامسة عشرة أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة . السادسة عشرة جواز كتمان العلم للمصلحة[1] . السابعة عشرة استحباب بشارة المسلم بما يسره . الثامنة عشرة الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله . التاسعة عشرة قول المسؤول عما لا يعلم : الله ورسوله أعلم . العشرون جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض[2] . الحادية والعشرون تواضعه صلى الله عليه وسلم لركوب الحمار مع الإرداف عليه . الثانية والعشرون جواز الإرداف على الدابة . الثالثة والعشرون فضيلة معاذ بن جبل . الرابعة والعشرون عظم شأن هذه المسألة .

﴿ باب فضلِ التَّوْحيدِ وما يُكَفِّرُ من الذُّنُوبِ ﴾

وقولِ الله تعالى : (الَّذينَ آمَنوا ولم يَلبِسُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) الآيَةَ . عن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ قال : قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) وجه ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر معاذاً أن يكتمها الناس ، ولما أدركه الموت أخبر بها عند موته خروجاً من الإثم ، أخذا بقوله صلى الله عليه وسلم : « من كتم علماً ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح لاغبار عليه.

(٢) « أل » في العلم للعهد الذهني ، وهو العلم الزائد على قدر الحاجة في إقامة الدين ، بدليل قوله تعالى : (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات) وقوله صلى الله عليه وسلم : « ليبلغ الشاهد الغائب » الحديث ، رواه البخاري .

وسلم : « مَن شهدَ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ له وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه وأنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسولُه وكلِمتُهُ أَلْقاها إلى مَرْيمَ ورُوحٌ منه والجَنَّةَ حقٌّ والنَّارَ حقٌّ أَدخله اللهُ الجنةَ على ما كان مِن العَملِ » أخرَجاهُ . ولهما فى حديث عِتْبانَ : « فإنَّ اللهَ حرَّمَ على النار مَن قال لا إله إلا اللهُ يَبْتَغى بذلكَ وَجْهَ اللهِ » . وعن أبى سَعيدٍ الُخدْرِىِّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال موسى يارَبِّ عَلِّمْنِى شيئاً أَذْكُرُكَ وأدعُوكَ به ، قال : قُلْ يا موسى لا إله إلا اللهُ ، قال : يارَبِّ كُلُّ عِبادِكَ يقولون هذا ، قال : يا موسى لو أَنَّ السَّمٰواتِ السَّبْعَ وعَامِرَهُنَّ غَيْرِى والأَرَضينَ السَّبْعَ فى كِفَّةٍ ولا إله إلا اللهُ فى كِفَّةٍ مالتْ بهنَّ لا إله إلا اللهُ » رواه ابنُ حبَّانَ والحاكمُ وصَحَّحَهُ . وللتِّرْمِذِىِّ وحَسَّنَهُ . عن أَنسٍ : سَمِعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال اللهُ تعالى : يا ابْنَ آدمَ لَوْ أَتَيْتَنِى بقُرَابِ[1] الأَرْضِ خطَايا ثم لَقِيتَنِى لا تُشْرِكُ بِى شيئاً لَأَتَيْتُكَ بقُرَابِهَا مغْفِرَةً » .

« فيه مسائل » : الأولى سعة فضل الله . الثانية كثرة ثواب التوحيد عند

---

(١) القراب ، بضم القاف وقيل بكسرها والضم أشهر : هو ملؤها أو ما يقارب ملأها.

الله. الثالثة تكفيره مع ذلك للذنوب . الرابعة تفسير الآية التى فى سورة الأنعام. الخامسة تأمل الخمس اللواتى فى حديث عبادة . السادسة أنك إذا جمعت بينه و بين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنى قول لا إله إلا الله ، وتبين لك خطأ المغرورين . السابعة التنبيه للشرط الذى فى حديث عتبان . الثامنة كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله . التاسعة التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه . العاشرة النص على أن الأرضين سبع كالسموات . الحادية عشرة أن لهن عماراً . الثانية عشرة إثبات الصفات خلافاً للمعطلة . الثالثة عشرة أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت أن قوله فى حديث عتبان « فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله » أن ترك الشرك ليس قولها باللسان . الرابعة عشرة تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبد الله ورسوله . الخامسة عشرة معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله . السادسة عشرة معرفة كونه روحاً منه . السابعة عشرة معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار . الثامنة عشرة معرفة قوله « على ما كان من العمل » . التاسعة عشرة معرفة أن الميزان له كفتان . العشرون معرفة ذكر الوجه .

﴿ باب مَنْ حَقَّقَ التوحيدَ دخلَ الجنةَ بغيرِ حسابٍ ﴾

وقولِ الله تعالى : (إِنَّ إِبرٰهِيم كانَ أُمَّةً قانِتاً للهِ حَنِيفاً ولَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكِينَ) . وقال : (والَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ) .

عن حُصَيْنِ بن عبد الرحمٰن قال : « كنتُ عند سَعيدِ بن جُبَيْرٍ فقال : أَيُّكُمْ رأى الكوْكَبَ الذى انْقَضَّ البارحة ؟فقلتُ : أنا ، ثم قلتُ : أما إنّي لم أكُنْ فى صلاةٍ ولكِنّى لُدِغْتُ ، قال : فما صنعْتَ؟ قلتُ : ارْتقَيْتُ ، قال : فما حَمَلكَ على ذلكَ ؟ قلتُ : حديثٌ حدَّثناهُ الشَّعْبِيُّ ، قال : وما حدَّثكُمْ ؟ قلتُ : حدَّثنا عن بُرَيْدَةَ بن الحُصيْبِ أنهُ قال : لا رُقْيَةَ إلّا منْ عَيْنٍ أو حُمَةٍ ، قال : قد أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إلى ما سَمِعَ ، ولكِنْ حدَّثنا ابنُ عبَّاسٍ عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنهُ قال : عُرِضَتْ علىَّ الأُمَمُ فرأيتُ النَّبِيَّ ومعهُ الرَّهْطُ والنبيَّ ومعهُ الرَّجُلُ والرَّجُلانِ ، والنبيَّ وليس معهُ أحدٌ ، إذ رُفِعَ لِى سَوادٌ عظيمٌ ، فَظَنَنْتُ أنهُمْ أمَّتى ، فقيلَ لى : هذا موسَى وقومُه ، فنظرْتُ فإذا سَوادٌ عِظيمٌ ، فقيلَ لى : هذه أُمَّتُكَ ومعَهم سبعون أَلْفاً يدخُلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ ولاعذابٍ ، ثمَّ نهضَ فدخلَ منزِلَه ، فخاضَ النَّاسُ فى أولئكَ ، فقال بعضُهم : فلعلهُمُ الذينَ صَحِبُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضُهم : فلعلهُمُ الذينَ وُلِدُوا فى الإسلامِ فلم يُشْرِكُوا بالله شيئاً ، وذَكَرُوا أَشْياءَ ، فخرَجَ عليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فأخبَرُوهُ ، فقال : هُمُ الذينَ لا يَسْتَرْقُونَ ولا يَكْتَوُونَ

ولا يَتطيَّرُونَ وعلى رَبِّهِمْ يَتوَكَّلُونَ . فقامَ عُكَّاشَةَ بن مِحْصَنٍ فقال : ادْعُ اللهَ أن يجعلني منهم ، قال : أنتَ منهم ، ثم قام رجلٌ آخرُ فقال: ادْعُ اللهَ أن يَجْعَلَني منهم، فقال: سَبَقَكَ بها عُكَّاشَةُ »[1] .

---

(١) الحديث رواه البخارى مطولا ومختصراً ومسلم والنسائي والترمذي . وهاك شرح ألفاظه : قوله « انقض » أي سقط . وقوله « لارقية » بضم الراء وسكون القاف ، وهي العوذة التي يرقي بها صاحب الآفة كالحمي والصرع وغير ذلك من الآفات ، وسيأتي بابها . وقوله « إلا من عين » هو إصابة العائن غيره بعينه ، وهو أن يتعجب الشخص من الشئ حين يراه فيتضرر ذلك الشيء منه . وقوله « أوحمة » بضم الحاء المهملة وفتح الميم المخففة ، وهى سم العقرب ونحوها . قال ابن الأثير : « وقد جاء في بعض الأحاديث جواز الرقية وفي بعضها النهي ، والأحاديث في القسمين كثيرة ، ووجه الجمع بينها أن الرقى يكره منها ما كان بغير اللسان العربي وبغير أسماء الله تعالى وصفاته وكلامه في كتبه المنزلة وأن يعتقد أن الرقى نافعة لا محالة فيتكل عليها ، وإياها أراد بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ما توكل من استرقى » ولا يكره منها ما كان في خلاف ذلك ، كالتعوذ بالقرآن وأسماء الله والرقى المروية » . وقال أيضاً : « معنى قوله صلى الله عليه وسلم : «لا رقية إلا من عين أوحمة» لا رقية أولى وأنفع ، وهذا كما قيل لافتى إلا على ، وقد أمر صلى الله عليه وسلم غير واحد من أصحابه بالرقية وسمع بجماعة يرقون فلم ينكر عليهم» . وقوله «الرهط» هو من الرجال ما دون العشرة وقيل إلى الأربعين . وقوله « إذ رفع لى سواد » أي أشخاص من بعد لا أدرى من هم . وهذا يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب . وقوله « بغير حساب ولا عذاب » قيل : هل يدخلون وإن كانوا أصحاب معاص ومظالم ؟ وأجيب بأن الذين كانوا بهذه الأوصاف الأربعة لا يكونون إلا عدولا مطهرين من الذنوب ، أو ببركة هذه الصفات يغفر الله لهم ويعفو عنهم . وقوله « نخاض الناس » أى تباحثوا في شأنهم ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبين للصحابة من هم السبعون . وقوله « لا يسترقون » أى لا يطلبون الرقية ممن يرقى . وقوله : « ولا يكتوون » يعني لا يعتقدون أن الشفاء في الكي كما كان عليه أهل الجاهلية . وقوله : « ولا يتطيرون » أي لا يتشاءمون بالطيور ونحوها كما كانت عادتهم قبل الإسلام ، فان العرب كانت تتطير بزجر الطير وغيره ، يخرج أحدهم لسفر فيسمع لفظاً يدل على مكروه فيتشاءم منه فيرجع عن سفره . والطيرة ما يكون

« فيه مسائل » : الأولى معرفة مراتب الناس فى التوحيد . الثانية ما معنى تحقيقه . الثالثة ثناؤه سبحانه على إبرهيم بكونه لم يك من المشركين . الرابعة ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك . الخامسة كون ترك الرقية والكى من تحقيق التوحيد . السادسة كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل . السابعة عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل . الثامنة حرصهم على الخير . التاسعة فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية[1] . العاشرة فضيلة أصحاب موسى . الحادية عشرة عرض الأمم عليه ، عليه الصلاة والسلام . الثانية عشرة أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها . الثالثة عشرة قلة من استجاب للأنبياء . الرابعة عشرة أن من لم يجبه أحد يأتى وحده . الخامسة عشرة ثمرة هذا العلم ، وهو عدم الاغترار بالكثرة وعدم الزهد فى القلة . السادسة عشرة الرخصة فى الرقية من العين والحمة . السابعة عشرة عمق علم السلف لقوله « قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ولكن كذا وكذا » فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثانى . الثامنة عشرة بعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه . التاسعة عشرة قوله « أنت منهم » علم من أعلام النبوة . العشرون فضيلة عكاشة . الحادية والعشرون استعمال المعاريض . الثانية والعشرون حسن خلقه صلى الله عليه وسلم .

فى الشر ، والفأل ما يكون فى الخير ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل ويكره التطير . وقوله « وعلى ربهم يتوكلون » أى يفوضون الأمر إلى الله تعالى فى ترتيب المسببات على الأسباب . والله أعلم .

(١) الكمية ترجع إلى العدد والكيفية إلى الهيئة .

﴿ باب الخوف من الشِّرْكِ ﴾

وقولِ الله عز وجل : (إِنَّ اللهَ لا يَغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلكَ لِمَنْ يَشَاءُ).

وقال الخليلُ عليه السلامُ : (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَام)[١].

وفي الحديث : « أَخْوَفُ ما أَخافُ عليكم الشِّرْكُ الأصغرُ، فَسُئِلَ عنهُ فقال : الرِّيَاءُ »[٢]. وعن ابن مَسْعُودٍ رضى الله عنه « أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَن ماتَ وهُو يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا[٣] دخلَ النَّارَ » . رواهُ البُخَارِيُّ . ولِمُسْلمٍ عن جابرٍ رضى الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال : « مَن لَقِيَ اللهَ لا يُشْرِكُ بهِ شيئاً دخلَ الجنةَ، وَمن لَقِيَهُ يُشْرِكُ بهِ شيئاً دخلَ النارَ » .

« فيه مسائل » : الأولى الخوف من الشرك . الثانية أن الرياء من الشرك .

---

(١) قال الراغب الأصفهاني : « الصنم جثة متخذة من فضة أو نحاس أو خشب كانوا يعبدونها متقربين به إلى الله تعالى وجمعه أصنام . قال بعض الحكماء : كل ما عبد من دون الله بل كل ما يشغل عن الله تعالى يقال له صنم . وعلى هذا الوجه قال إبرهيم صلوات الله عليه : (واجنبنى وبني أن نعبد الأصنام) فمعلوم أن إبرهيم مع تحققه بمعرفة الله تعالى واطلاعه على حكمته لم يكن ممن يخاف أن يعود إلى عبادة تلك الجثث التى كانوا يعبدونها ، فكأنه قال . اجنبنى عن الاشتغال بما يصرفنى عنك » اه فكل ما تقرب به إلى الله من نار أو كوكب أو قبر صالح أو غير صالح وغير ذلك فهو صنم . فنسأل الله العصمة من ذلك كله . والله أعلم . (٢) رواه أحمد . (٣) الند : النظير المشارك له في جوهره ، فكل ند مثل ، وليس كل مثل نداً .

الثالثة أنه من الشرك الأصغر . الرابعة أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين. الخامسة قرب الجنة والنار . السادسة الجمع بين قربهما فى حديث واحد . السابعة أنه من لقيه لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار ولو كان من أعبد الناس . الثامنة المسألة العظيمة ، سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام . التاسعة اعتباره بحال الأكثر لقوله (رب إنهن أضللنَ كثيراً من الناس) . العاشرة فيه تفسير «لا إله إلا الله» كما ذكره البخارى . الحادية عشرة فضيلة من سلم من الشرك .

﴿ باب الدُّعاء إلى شهادةِ أنْ لا إله إلا اللهُ ﴾

وقولِ اللهِ تعالى : (قُلْ هذهِ سَبيلي أَدْعُو إلى اللهِ عَلَى بَصيرةٍ) الآية .

وعن ابن عبَّاسٍ رضى الله عنهما : «أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لمَّا بعثَ مُعَاذًا إلى اليَمَنِ قال له : إنكَ تأتِى قوماً من أهْلِ الكِتَابِ، فَليَكُنْ أوَّلَ ما تَدْعُوهُمْ إليهِ شهَادَةُ أن لا إله إلا اللهُ» . وفى روايةٍ : «إلى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ ، فإنْ هُمْ أطاعُوكَ لذلكَ فأَعْلِمْهُمْ أنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيهم خمْسَ صَلَوات فى كُلِّ يَوْمٍ وَليلةٍ ، فإنْ هُمْ أَطاعُوكَ لذلكَ فأَعْلِمْهُمْ أنَّ الله افْتَرَضَ عليهم صدقةً تُؤْخَذُ من أَغْنيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرائِهِمْ ، فإنْ هُمْ أطاعُوكَ لذلكَ فإيَّاكَ وكَرائمَ أَمْوالِهِمْ ، واتَّقِ دَعْوَةَ المظْلومِ فإنهُ ليس بينها وَبينَ اللهِ حِجَابٌ» . أخرجاه .

ولهما عن سَهْل بن سَعْد رضى الله عنه : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر : لأُعطِيَنَّ الرَّاية غداً رجلاً يُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ ويُحِبُّهُ اللهُ ورسولُهُ ، يَفتحُ اللهُ على يديه ، فباتَ النَّاسُ يدُوكُونَ ليلتهم أيُّهم يُعطاها ، فلما أصبحوا غدَوْا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كُلُّهم يَرْجُو أنْ يُعْطاها ، فقال : أين عليُّ بن أبي طالبٍ ؟ فقيل : هو يشتكي عينيه ، فأرسلوا إليه فأُتِيَ به ، فبصق في عينيه ودعا له ، فبرأ كأنْ لمْ يكن به وجعٌ ، فأعطاه الراية ، فقال : انفُذْ على رِسْلِكَ(١) حتى تنزلَ بساحتهم ، ثمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسلامِ وأخبرْهُمْ بما يجبُ عليهم من حقِّ اللهِ تعالى فيه ، فواللهِ لأنْ يَهدِيَ اللهُ بكَ رجُلاً واحداً خيرٌ لكَ مِن حُمْرِ النَّعَمِ »(٢). يدُوكُونَ : أي يخوضون .

« فيه مسائل » : الأولى أن الدعوة إلى الله طريق من اتبعه صلى الله عليه وسلم . الثانية التنبيه على الإخلاص ، لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه . الثالثة أن البصيرة (٣) من الفرائض . الرابعة من دلائل حسن

---

(١) « انفذ » بضم الفاء من باب « قعد » أي امض . و « الرسل » بكسر الراء المهملة الهينة والتأني ، أي اذهب وامض متمهلاً . (٢) حمر النعم : الإبل الحمر . قال الراغب : النعم مختص بالإبل وجمعه أنعام ، وتسميته بذلك لكون الإبل عندهم أعظم نعمة ، لكن الأنعام تقال للإبل والبقر والغنم ، ولا يقال لها أنعام حتى يكون في جملتها الإبل .

(٣) البصير بالشيء : العالم بما يدعو إليه على بصيرة منه .

التوحيد أنه تنزيه لله تعالى عن المسبة . الخامسة أن من قبح الشرك كونه مسبة لله . السادسة ، وهى من أهمها ، إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك . السابعة كون التوحيد أول واجب . الثامنة أنه يبدأ به قبل كل شيء حتى الصلاة . التاسعة أن معنى أن يوحدوا الله معنى شهادة أن لا إله إلا الله . العاشرة أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها . الحادية عشرة التنبيه على التعليم بالتدريج . الثانية عشرة البداءة بالأهم فالأهم . الثالثة عشرة مصرف الزكاة . الرابعة عشرة كشف العالم الشبهة عن المتعلم . الخامسة عشرة النهى عن كرائم الأموال . السادسة عشرة اتقاء دعوة المظلوم . السابعة عشرة الإخبار بأنها لا تحجب . الثامنة عشرة من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء . التاسعة عشرة قوله « لأعطين الراية » إلخ علم من أعلام النبوة . العشرون تفله فى عينيه علم من أعلامها أيضاً . الحادية والعشرون فضيلة على رضى الله عنه . الثانية والعشرون فضل الصحابة فى دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح . الثالثة والعشرون الإيمان بالقدر ، لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى . الرابعة والعشرون الأدب فى قوله « على رسلك » . الخامسة والعشرون الدعوة إلى الإسلام قبل القتال . السادسة والعشرون أنه مشروع لمن دُعوا قبل ذلك وقوتلوا . السابعة والعشرون الدعوة بالحكمة لقوله « أخبرهم بما يجب » . الثامنة والعشرون المعرفة بحق الله فى الإسلام . التاسعة والعشرون ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد . الثلاثون الحلف على الفتيا .

باب تفسير التَّوْحِيدِ وشهادةِ أنْ لا إله إلاَّ اللهُ

وقولِ الله تعالى : (أُولٰئِكَ الذينَ يَدْعونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِم الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) الآية[1] . وقولِه : (وإِذْ قَالَ إبرهيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إنَّني بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي) الآية[2] وقولِه : (اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ ورُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ) الآية . وقولِه : (ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ) الآية .

وفي الصَّحِيحِ[3] عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَن قال لا إله إلا اللهُ وكَفَرَ بما يُعْبَدُ مِن دُونِ اللهِ حَرُمَ مالُهُ ودمُهُ وحِسابُه عَلَى الله عز وجلَّ » .

---

(١) قال الراغب : « الوسيلة التوصل إلى الشيء برغبة ، وهي أخص من الوسيلة لتضمنها معنى الرغبة ، قال تعالى : (وابتغوا إليه الوسيلة) وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحري مكارم الشريعة ، وهي كالقربة ، والواسل الراغب إلى الله تعالى » اهـ أقول : والتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم هو الاستسقاء به صلى الله عليه وسلم في حياته . وثبت التوسل بغيره صلى الله عليه وسلم بعد موته باجماع الصحابة إجماعا سكوتياً في حديث عمر رضي الله عنه لما قال : كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبيك ، الحديث . ولم ينكر عليه أحد من الصحابة . وأما التوسل بغير هذه المسألة فلا يجوز . وفي هذا رسائل مؤلفة للأئمة ، منها كتاب « التوسل والوسيلة » لابن تيمية . و « الدر النضيد » للشوكاني والله أعلم .

(٢) فطرني : خلقني ، من الفطرة أي الخلقة . (٣) أي صحيح مسلم .

وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب . فيه أكبر المسائل وأهمها ، وهى تفسير التوحيد وتفسير الشهادة و بينها بأمور واضحة : منها آية الإسراء ، بيّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين ، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر . ومنها آية براءة ، بيّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، و بيَّن أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهاً واحداً ، مع أن تفسيرها الذى لا إشكال فيه : طاعة العلماء والعُبَّاد فى غير المعصية لا دعاؤهم إياهم . ومنها قول الخليل عليه السلام للكفار : (إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى) فاستثنى من المعبودين ربه ، وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هى شهادة أن لا إله إلا الله فقال : (وجَعَلها كلمةً باقيةً فى عَقِبه لعلهم يرجعون) ، ومنها آية البقرة فى الكفار الذين قال الله فيهم : (وما هم بخارجين من النار) ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله ، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً ولم يدخلهم فى الإسلام ، فكيف بمن أحب الند أكثر من حب الله ، فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله ؟ .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : « من قال لا إله إلا الله و كفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله » وهذا من أعظم ما يبين معنى « لا إله إلا الله » فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يُعبد من دون الله ، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه . فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها ، و ياله من بيان ما أوضحه ، وحجة ما أقطعها للمنازع .

﴿ باب مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الحلْقَةِ والخيْطِ ونحوهِما لرفع البَلاءِ أو دفْعِهِ ﴾

وقول الله تعالى : (قُلْ أفرَأَيتُمْ ما تدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هل هُنَّ كاشِفَاتُ ضُرِّهِ الآية .

وعن عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ رضى الله عنه : « أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً فى يده حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ ، فقال : ما هذه ؟ قال : مِنَ الواهِنَةِ ، فقال : انْزَعْهَا فإنها لا تَزِيدُكَ إلاَّ وَهْناً ، فإنَّكَ لو مُتَّ وهى عليك ما أفْلَحْتَ أبَداً »[1] رواه أحمد بسندٍ لا بَاسَ بِهِ.

وله عن عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ مَرْفوعًا : « مَنْ تَعلَّق تَميمَةً فَلاَ أَتَمَّ اللهُ له ، ومَنْ تَعلَّقَ وَدَعَةً فَلاَ وَدَعَ اللهُ له »[2] . وفى رواية : « مَنْ تَعلَّقَ

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية : « الواهنة : عرق يأخذ في المنكب وفى اليد كلها فيرقى منها . وقيل : هو مرض يأخذ في العضد ، وربما علق عليها جنس من الخرز يقال لها خرز الواهنة ، وهي تأخذ الرجال دون النساء . وإنما نهاه عنها لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الألم ، فكانت عنده في معنى التمائم المنهي عنها » . والحلقة : كان المشركون يجعلونها في عضدهم من نحاس أصفر أو غيره ويزعمون أنها تحفظهم من أذى العين والجن ونحوهما . والخيط : كانوا يعقدونه ويتقلدون به ، فنهى عنه لما فيه من شائبة الشرك .

(٢) الودعة ، بفتحات : إحدى الودع . قال في النهاية : « وهو شيء أبيض يجلب من البحر يعلق في حلوق الصبيان وغيرهم » . وقوله « فلا ودع الله له » أي لا جعله الله في دعة وسكون ، لأن ذلك من الشرك . والله أعلم .

تَمِيمَةً فقد أشْرَكَ » . ولابنِ أبى حاتم عن حُذَيْفَةَ : « أنه رأى رجلاً فى يده خَيْطٌ مِنَ الحُمَّى ، فَقَطَعَهُ وتلا قولَه : (وما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إلاَّ وهم مشركونَ) » .

« فيه مسائل » : الأولى التغليظ فى لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك . الثانية أن الصحابى لو مات وهى عليه ما أفلح ، فيه شاهد لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر . الثالثة أنه لم يعذر بالجهالة . الرابعة أنها لا تنفع فى العاجلة بل تضر ، لقوله : « لا تزيدك إلا وهنا » . الخامسة الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك . السادسة التصريح بأن من تعلق شيئاً وُكِلَ إليه . السابعة التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك . الثامنة أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك . التاسعة تلاوة حُذيفَةَ الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التى فى الأكبر على الأصغر ، كما ذكر ابن عباس فى آية البقرة . العاشرة أن تعليق الودع من العين من ذلك . الحادية عشرة الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له ، أى ترك الله له .

﴿ باب ما جاء في الرُّقَى والتَّمَائِمِ (١) ﴾

في الصَّحيحِ (٢) عن أبي بَشِيرٍ الأَنْصَارِي رضى الله عنه : « أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بَعْضِ أَسْفَارِهِ ، فأَرْسَلَ رَسُولاً أَنْ لاَ يَبْقَيَنَّ في رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلاَدَةٌ من وَتَرٍ « أو قِلاَدَةٌ » إلاَّ قُطِعَتْ » (٣) . وعن ابن مَسْعُودٍ رضى الله عنه « قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : إنَّ الرُّقَى والتَّمَائِمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ » (٤) رواه أحمدُ وأبو داوُدَ . وعن عبد الله بن عُكَيْمٍ مرفوعا :

---

(١) الرقي بضم الراء وتخفيف القاف : جمع رقية ، مثل « مدى ومدية » وهي العوذة التى يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات . والتمائم : جمع تميمة ، وهي خرزات كان العرب يعلقونها على أولادهم يتقون بها العين في زعمهم ، فأبطلها الشرع . والنهي في الأحاديث عام ، فلا وجه لتخصيصه بغير تمائم القرآن ، ولوكان ذلك جائزاً لورد عن الشارع كما ورد الإذن بالرقى المخصوصة . وقد تقدم الجمع بين أحاديث المنع من الرقية وجوازها عن ابن الأثير . والله أعلم . (٢) هو في الصحيحين .

(٣) قوله « فأرسل رسولا » هو زيد بن حارثة كما بينه الحافظ . وقوله « من وتر » : هو بفتحتين : واحد أوتار القوس ، وكان أهل الجاهلية إذا اخلولق الوتر أبدلوه بغيره وقلدوا به الدواب ، اعتقـاداً منهم أنه يرد عن الدابة العين ويدفع عنهم المكاره ، فنهاهم النبى صلى الله عليه وسلم عنها وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئاً . وقوله « أو قلادة » هو شك من الراوي : هل قال شيخه « قلادة من وتر » أو قال « قلادة » فقط ولم يقل « من وتر » .

(٤) قال الحافظ : « التولة بكسر التاء وفتح الواو واللام مخففة : شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها ، وهو ضرب من السحر ، وإنما كان من الشرك لما يراد به من دفع المضار وجلب المنافع من غير الله تعالى » .

«مَن تعلَّقَ شيئاً وُكِلَ إليهِ» . رواه أحمد والترمذيُّ(١) . التمائمُ : شيءٌ يُعلَّقُ على الأولاد يتقُّونَ به العينَ ، لكن إذا كان المُعلَّقُ من القرآنِ فرخَّص فيه بعضُ السَّلفِ ، وبعضُهم لم يُرخِّصْ فيه ويجعلُهُ من المنهيِّ عنه ، منهم ابن مسعودٍ رضى الله عنه . والرُّقَى : هى التى تسمَّى العزائِم ، وخصَّ منها الدَّليلُ ماخلاَ من الشِّرْكِ . فقد رخَّصَ فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من العينِ والحُمَةَ . والتِّولَةُ هو شيءٌ يصنعُونَهُ يزْعُمُونَ أنه يُحبِّبُ المرأةَ إلى زوجها والرجلَ إلى امرأته . وروى أحمدُ عن رُوَيفعٍ قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا رُوَيْفِعُ لعلّ الحياةَ تطُولُ بكَ فأَخْبِرِ النَّاسَ أنَّ من عقَدَ لِحيَتهُ أو تقلَّدَ وَتَرًا أو استَنْجَى بِرَجِيعِ دابةٍ أو عظمٍ فإنّ محمداً برِيءٌ منْهُ» . وعن سعيد بن جبيرٍ قال : «مَن قَطَعَ تميمةً مِن إنْسَانٍ كان كَعَدْلِ رَقَبةٍ» . رواه وَكيعٌ(٢) . وله عن إبرهيم قال : كانوا يَكْرَهُونَ التَّمائمَ كلَّها من القرآن وغيرِ القرآنِ .

---

(١) ورواه أيضاً أبو داوود والحاكم .

(٢) وله عند أهل العلم حكم الرفع ، لأن مثل ذلك لا يقال بالرأي . والخبر مرسل ، لأن سعيداً تابعي . ووكيع هو ابن الجراح ، ثقة إمام صاحب تصانيف ، منها الجامع ، روى عنه الإمام أحمد وطبقته ، مات سنة ١٩٧ .

«فيه مسائل» : الأولى تفسير الرقى والتمائم . الثانية تفسير التولة . الثالثة أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء . الرابعة أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك . الخامسة أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أم لا . السادسة أن تعليق الأوتار على الدواب من العين من ذلك . السابعة الوعيد الشديد على من تعلق وتراً . الثامنة فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان . التاسعة أن كلام إبرهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف ، لأن مراده أصحاب عبدالله .

﴿باب مَن تبرَّكَ بشجرةٍ أو حجرٍ ونحوِهما﴾

وقولِ الله تعالى : (أَفرَأَيْتُمُ اللاَّتَ والعُزَّى) الآياتِ[1] .

عن أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قال : « خَرَجْنَا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حُنَيْنٍ ونحنُ حُدَثَاءُ عهدٍ بِكُفرٍ ، وللمشركينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عندَها وينُوطُونَ بها أَسْلِحَتَهُمْ يقال لها ذاتُ أَنْوَاطٍ ، فمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ ، فقلنا : يا رسولَ الله اجْعَلْ لنا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كما لهُمْ ذاتُ أَنْوَاطٍ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهُ أَكْبَرُ ، إِنَّهَا السُّنَنُ ، قُلْتُمْ والذى نَفْسِي بِيَدِهِ كما قالتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى :

---

(١) اللات والعزى ومناة : أسماء لأصنام كانت تعبد في الجاهلية . أما اللات فكانت لثقيف والعزى لقريش وبني كنانة ، ومناة في بني هلال ، قال ابن هشام : كانت لهذيل وخزاعة .

اجْعَلْ لنا إلٰهاً كما لَهُمْ آلِهَةٌ قال إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ من كان قَبْلَكُمْ) . رواه الترمِذيُّ وصحَّحَهُ(١) .

---

(١) قوله « حدثاء عهد » أي قريب عهدهم بالكفر والخروج منه والدخول في الإسلام فلم يتمكن الدين في قلوبهم . وفيه دليل على أن غيرهم ممن تقدم إسلامه من الصحابة لا يجهل هذا ، وأن المنتقل من الباطل الذى يعتاده قلبه لا يأمن من أن يكون فيه بقية من تلك العادة كما قال المصنف . وقوله « ينوطون » أي يعلقون أسلحتهم عليها تبركا بها وتعظيما لها . وقوله « ذات أنواط » جمع نوط ، وهو مصدر سمي به المنوط ، ظنوا أن هذا أمر محبوب عند الله فقصدوا التقرب به إليه سبحانه ، وإلا فهم أجل قدراً من أن يقصدوا مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم . وقوله « الله أكبر » وفي رواية «سبحان الله» المراد تعظيمه تعالى وتنزيهه عن الشرك بأي نوع كان مما لا يجوز أن يطلب أو يراد به إلا الله ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يستعمل التكبير والتسبيح في حال التعجب تعظيما لله وتنزيها له سبحانه إذا سمع من أحد ما لا يليق به تعالى مما فيه هضم للربوبية ونقص في الألوهية ، وهكذا ينبغى لكل من يوحد الله ولا يشرك به شيئاً أن يكبر ويسبح عند سماع ما لا ينبغى أن يقال في الدين . وقوله « إنها السنن » بضم السين ، أي الطرق ، والمراد بها تقليد من تقدمهم من أهل الشرك والضلال . وقوله « قلتم » إلخ شبه مقالتهم هذه بقول بني إسرائيل لكونها مثلها وإن اختلفت العبارتان . قال في الدين الخالص : وفيه أن الإنسان قد يستحسن شيئاً يظنه مقرباً إلى الله تعالى وهو مبعده من رحمته ومدنيه من سخطه ؛ وإذا كان يقع مثل هذا الحال والقال في سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم فما ظنك بهذا الزمان الأخير الفاسد الكثير الآفات ، ولا يعرف هذا على الحقيقة إلا من عرف ما وقع في هذه الأزمنة والعصور من كثير من المسمين بالعلماء والعباد وغيرهم مع أرباب القبور وغلوهم في تعظيمها والخضوع لها والعكوف بها والبناء عليها وإلباسها الثياب الفاخرة وصرف جل الإكرام لها بالحضور لديها بالمراسيم والأعراس ونحوها ، ويحسبون أنهم على شىء وليسوا فى الحقيقة على شيء إلا على الذنب الأكبر الذي لا يغفره الله تعالى أبداً ، والوزر الأعظم ، الذي هو الشرك الجلي والكفر الواضح . وقوله « لتركبن سنن من كان قبلكم » فيه دليل على أن هذه الأمة تقلد من قبلها من الأمم الضالة وتأتي بما أتته من الأفعال الشركية والكفرية التي تخرجهم من النور إلى الظلمات ، ومن السنة البيضاء إلى حلك البدع والمحدثات . والله أعلم .

«فيه مسائل» : الأولى تفسير آية النجم. الثانية معرفة صورة الأمر الذى طلبوا. الثالثة كونهم لم يفعلوا . الرابعة كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحب . الخامسة أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل . السادسة أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم. السابعة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعذرهم الأمر ، بل رد عليهم بقوله « الله أكبر إنها السنن لتتبعن سنن من كان قبلكم» فغلّظ الأمر بهذه الثلاث . الثامنة الأمر الكبير ، وهو المقصود ، أنه أخبر أن طلبهم كطلب بنى إسرائيل لما قالوا لموسى اجعل لنا إلهاً . التاسعة أن نفى هذا من معنى « لا إله إلا الله » مع دقته وخفائه على أولئك . العاشرة أنه حلف على الفتيا وهو لا يحلف إلا لمصلحة . الحادية عشرة أن الشرك فيه أكبر وأصغر ، لأنهم لم يرتدوا بهذا . الثانية عشرة قولهم « ونحن حدثاء عهد بكفر » فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك . الثالثة عشرة التكبير عند التعجب خلافاً لمن كرهه . الرابعة عشرة سد الزرائع . الخامسة عشرة النهى عن التشبه بأهل الجاهلية . السادسة عشرة الغضب عند التعليم. السابعة عشرة القاعدة الكلية ، لقوله « إنها السنن» . الثامنة عشرة أن هذا علم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر. التاسعة عشرة أن ماذم الله به اليهود والنصارى فى القرآن أنه لنا . العشرون أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر ، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر ، أمّا مِن ربك فواضح ، وأما مِن نبيك فمن إخباره بأنباء الغيب ، وأما مِن دينك فمن قولهم « اجعل لنا » إلى آخره . الحادية والعشرون أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين . الثانية والعشرون أن المنتقل من الباطل

الذى اعتاده قلبه لا يُؤمَنُ أن يكون فى قلبه بقية من تلك العادة، لقولهم «ونحن حدثاء عهد بكفر» .

﴿باب ما جاء فى الذّبْحِ لغيرِ اللهِ﴾

وقول الله تعالى : (قُلْ إنّ صلاتى ونُسُكِى ومَحْيَاىَ ومَمَاتِى للهِ رَبِّ العالمينَ لا شريكَ له)[١] الآية . وقوله : (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ) .

وعن عليٍّ رضى الله عنه قال : « حدثنِي رسول الله صلى الله عليه وسلم بأرْبَعِ كلماتٍ : لَعَنَ اللهُ مَن ذَبَحَ لغيرِ الله . لَعَنَ اللهُ من لَعَنَ والديْهِ . لَعَنَ اللهُ مَن آوَى مُحْدِثاً . لَعَنَ اللهُ مَن غَيَّرَ مَنَارَ

---

(١) قال الحافظ ابن كثير : يأمر تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون له ، أي إنه أخلص لله صلاته وذبيحته ، لأن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها ، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عماهم فيه والانقياد بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى . قال مجاهد : النسك الذبح في الحج والعمرة . قال الإمام ابن تيمية : أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين ، وهما الصلاة والنسك ، الدالتان على القرب أوالتواضع والافتقار وحسن الظن وقوة اليقين وطمأنينة القلب إلى الله وإلى عدته ، عكس حال أهل الكبر والأنفة وأهل الغنى عن الله تعالى الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم ، والذين لايتحرون له خوفاً من الفقر ، ولهذا جمع بينهما في قوله : « قل إن صلاتي ونسكي » .

الأرضِ » .[١] رواه مسلم . وعن طَارِق بن شِهَابٍ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « دَخَلَ الجنةَ رجلٌ في ذُبَابٍ ، ودَخَلَ النارَ رجلٌ في ذُبابٍ ، قالوا : وكيف ذلك يا رسولَ الله ؟ قال : مَرَّ رَجُلَانِ على قومٍ لهم صَنَمٌ لا يَجُوزُهُ أحَدٌ حتى يُقَرِّبَ له شيئاً ، فقالوا لأحدهما : قَرِّبْ ، قال : ليس عندى شيء أُقَرِّبُ ، قالوا له : قَرِّبْ ولو ذُبَابًا ، فَقَرَّبَ ذُبَابًا ، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ فدخل النارَ . وقالوا للآخَرِ : قَرِّبْ ، فقال : ما كُنْتُ لأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شيئاً دُونَ اللهِ عز وجل ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ ، فدخل الجنةَ » . رواه أحمدُ .

« فيه مسائل » الأولى تفسير (قل إن صلاتى ونسكى) . الثانية تفسير (فصل لربك وانحر) . الثالثة البداءة بلعنة من ذبح لغير الله . الرابعة لعن من

---

(١) اللعن : البعد عن مظان الرحمة ومواطنها ، واللعين والملعون : من حقت عليه اللعنة أو دعى عليه بها . قال صاحب النهاية « أصل اللعن الطرد والإبعاد من الله ، ومن الخلق السب والدعاء » . وفي الحديث جواز لعن أهل الظلم من غير تعيين ، وأما لعن الفاسق المعين ففيه قولان : أحدهما أنه جائز ، اختاره ابن الجوزي وغيره ، والثاني أنه لا يجوز ، اختاره أبو بكر عبد العزيز وشيخ الإسلام رحمهم الله تعالى ، وهو المتجه جمعاً بين الروايات . وقوله « محدثاً » روى بكسر الدال المهملة وبفتحها ، فعلى الأول معناه : نصر جانبه وآواه وأجاره من خصمه وحال بينه وبين من يقتص منه ، وعلى الثاني : هو الأمر المبتدع نفسه ، ومعنى إيوائه الرضا به والصبر عليه ، فانه إذا رضى بالبدعة وأقر فاعلها ولم ينكر عليه فقد آواه . ومنار الأرض ، بفتح الميم : علامات حدودها ومعالمها ، يفعل ذلك ليغتصب من جاره أرضه . والله أعلم .

لعن والديه ، ومنه أن تلعن والدى الرجل فيلعن والديك[١] . الخامسة لعن من آوى محدِثاً ، وهو الرجل يحدث شيئاً يجب فيه حق لله فيلتجئ إلى من يجيره من ذلك . السادسة لعن من غيَّر منار الأرض ، وهى المراسيم التى تفرق بين حقك وحق جارك ، فتغيرها بتقديم أو تأخير . السابعة الفرق بين لعن المعيَّن ولعن أهل المعاصى على سبيل العموم . الثامنة هذه القصة العظيمة ، وهى قصة الذباب . التاسعة كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذى لم يقصده بل فعله تخلصاً من شرهم . العاشرة معرفة قدر الشرك فى قلوب المؤمنين ، كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طلبهم ، مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر . الحادية عشرة أن الذى دخل النار مسلم ، لأنه لو كان كافراً لم يقل دخل النار فى ذباب . الثانية عشرة فيه شاهد للحديث الصحيح : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنارُ مثل ذلك » . الثالثة عشرة معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عنده عبدة الأوثان .

﴿ باب لاَ يُذْبَحُ للهِ بِمَكانٍ يُذْبَحُ فيه لِغيْرِ اللهِ ﴾

وقولِ الله تعالى (لا تَقُمْ فِيهِ أبداً) الآية .

وعن ثابتِ بن الضَّحَّاكِ رضى الله عنه قال : « نَذَرَ رجلٌ أن

---

(١) شتم الرجل والديه من الكبائر ، لما في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من الكبائر شتم والديه قالوا : يارسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال: نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » .

يَنْحَرَ إبلاً بِبُوَانَةَ[١] فسأَلَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : هَلْ كان فيها وَثَنٌ من أوْثَانِ الجاهليَّة يُعْبَدُ ؟ قالوا : لا ، قال : فَهَلْ كَانَ فيها عِيدٌ مِنْ أعْيادِهِمْ ؟ قالوا : لا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَوْفِ بِنَذْرِكَ ، فإنه لا وفاءَ لِنَذْرٍ في مَعْصِيَةِ الله ولا فِيما لا يَمْلِكُ ابنُ آدَمَ » رواه أبو داود ، وإسنادُه على شَرْطِهِمَا .

« فيه مسائل » : الأولى تفسير قوله : (لا تقم فيه أبداً) . الثانية أن المعصية قد تؤثر في الأرض وكذلك الطاعة . الثالثة رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال . الرابعة استفصال المفتى إذا احتاج إلى ذلك . الخامسة أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع . السادسة المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله . السابعة المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله . الثامنة أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة لأنه نذر معصية . التاسعة الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده . العاشرة لا نذر في معصية . الحادية عشرة لا نذر لابن آدم فيما لا يملك .

---

(١) هو بضم الباء وقيل بفتحها ، قال البغوى : موضع في أسفل مكة دون يلملم . وقال ابن الأثير : هضبة من وراء ينبع .

﴿ باب مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لغيرِ اللهِ ﴾

وقولِ الله تعالى (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ)(١) . وقوله (وما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أو نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ)(٢) . وفي الصحيح عن

---

(١) الآية تدل على وفاء النذر ومدح من فعل ذلك ، فالنذر من العبادة ، فصرفه لغير الله شرك ، فإذا نذر طاعة وجب عليه الوفاء بها ، والنذر قربة إلى الله تعالى ، ولهذا مدح الموفين ، فان نذر لمخلوق تقرباً إليه وتشفعاً منه له عند الله أو ليكشف ضره ونحو ذلك فقد أشرك في عبادته سبحانه غيره ضرورة ، كما أن من صلى لله وصلى لغيره فقد أشرك . ووجه الدلالة من الآية الشريفة على هذا المعنى أن الله مدح الموفين بالنذر ، والله لا يمدح إلا على فعل واجب أو مستحب أو ترك محرم ، وذلك هو العبادة ، فمن جاء به لغـير الله تقرباً به إليه فقد أشرك .

(٢) قال ابن كثير : يخبر بأنه عالم بجميع ما يعمله العاملون من النفقات والمنذورات ، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين به ابتغاء وجهه . إذا علمت ذلك تعرف أن هذه النذور الواقعة من عباد القبور تقرباً بها إليهم ليقضوا لهم حوائجهم أو ليشفعوا لهم شرك في العبادة بلا ريب . كما قال تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً) الآية ، قال الشيخ قاسم في شرح درر البحار : النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد ، كأن يكون للانسان غائب أو مريض أو له حاجة فيأتي إلى قبر بعض الصلحاء ويجعل على رأسه سترة ويقول ياسيدي فلان إن رد الله غائبي أو عوفي مريضي أو قضيت حاجتي فلك من الذهب كذا أو من الفضة كذا أو من الطعام كذا أو من الماء كذا أو من الشمع كذا أو الزيت كذا ، فهذا النذر باطل بالإجماع ، لوجوه : منها أنه نذر لمخلوق ، والنذر له لا يجوز ، لأنه عبادة ، والعبادة لا تكون لمخلوق . ومنها أن المنذور له ميت ، والميت لا يملك شيئاً . ومنها أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله ، واعتقاد ذلك كفر . إلى أن قال : إذا علمت هذا فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليهم محرم باجماع المسلمين . نقل ذلك عنه ابن نجيم في البحر الرائق ، ونقله المرشدي في تذكرته ، وغيرهما عنه ، وزادوا : وقد ابتلى الناس بهذا ، لا سيما في مولد البدوي وغيره من المشهورين في الاعتقاد . وقال في شرح المنهاج قريباً من هـذا . وكلام العلماء أهل المعرفة في هذا الباب كثير ، ولا حاجة بنا إلى نقله ، وفي ذلك كفاية ، وكتاب الله وسنة نبيه يغنيان عن ذلك كله . والله أعلم .

عائشةَ رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ نذَرَ أن يُطِيعَ اللهَ فليُطِعْهُ ، ومَنْ نذَرَ أن يَعْصِيَ اللهَ فلا يَعْصِهِ » .

فيه مسائل : الأولى وجوب الوفاء بالنذر . الثانية إذا ثبت كونه عبادة لله فصرفه إلى غيره شرك . الثالثة أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به .

﴿ بابٌ من الشِّرْكِ الاستعاذةُ بغيرِ الله ﴾ (١)

وقول الله تعالى : (وَإِنَّهُ كان رِجالٌ من الإِنْسِ يَعُوذون بِرِجالٍ مِنَ الجِنِّ فزادوهُمْ رَهَقاً) (٢) . وعن خَوْلَةَ بنتِ حكيم قالت : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ نزَلَ منزِلاً ، فقال : أعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ ما خلَقَ لم يَضُرَّهُ شيء

---

(١) قال ابن كثير : الاستعاذة هى الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر ، والعياذ يكون لدفع الشر ، واللياذ لطلب الخير . وهذا تمثيل ، وإلا فما يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله والاعتصام به والانطراح بين يدي الرب والافتقار إليه والتذلل لديه أمر لا تحيط به العبارة .

(٢) وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى بواد وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هـذا الوادي من سفهاء قومه ، يريد كبير الجن . قال مجاهد : كانوا إذا هبطوا وادياً يقولون نعوذ بعظيم هذا الوادي ، فزادوا الكفار طغياناً . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوا رهقاً أي خوفاً وإرهاباً وذعراً حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم .

حتّى يَرْحلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذلك » رواه مسلم[(١)] .

فيه مسائل : الأولى تفسير آية الجن . الثانية كونه من الشرك . الثالثة الاستدلال على ذلك بالحديث ، لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة ، قالوا : لإن الاستعاذة بالمخلوق شرك . الرابعة فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره . الخامسة أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كفِّ شرٍ أو جلب نفع لايدل على أنه ليس من الشرك .

﴿ باب مِنَ الشِّرْكِ أن يَسْتَغيثَ بِغَيْرِ اللهِ أَو يَدْعُوَ غيره[(٢)] ﴾

وقولِ اللهِ : (ولا تَدْعُ مِن دونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكَ

---

(١) في هذا الحديث دليل على أن الله شرع لأهل الإسلام أن يستعيذوا بكلمات الله بدلا عما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن . ومعنى « التامات » كما قال القرطبي : الكاملات التي لا يلحقها نقص ولا عيب كما يلحق كلام البشر . وقيل معناها الكافية الشافية : قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا تجوز الاستعاذة بمخلوق ، ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويذ التي لا يعرف معناها ، خشية أن يكون فيها استعاذة بمخلوق ، وذلك شرك . قال القرطبي: هذا خبر صحيح وقول صادق علمنا صدقه دليلا وتجربة ، فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت به فلم يضرني شيء إلى أن تركته فلدغتني عقرب بالمهدية ليلا ، فتفكرت في نفسي ، فاذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات .

(٢) الاستغاثة : هي طلب الغوث ، وهو إزالة الشدة . والاستعانة : طلب العون . قال بعض العلماء : الفرق بينها وبين الدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب ، والدعاء أعم منه ومن غيره ، فبينهما عموم وخصوص مطلق ، يجتمعان في مادة ، وينفرد الدعاء عنها في مادة ، فكل استغاثة دعاء وليس كل دعاء استغاثة . والدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاء مسألة ، ويراد في القرآن هذا تارة وهذا تارة ، ويراد به مجموعهما

ولا يَضُرُّكَ ، فإنْ فعلْتَ فإنَّكَ إذاً مِنَ الظالمين) . (وَإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فلا كاشِفَ له إلاَّ هُوَ) الآيةَ . وقوله : (فَابْتَغُوا عندَ اللهِ الرِّزْقَ واعْبُدُوه) الآية . وقوله : (ومَنْ أَضَلُّ

أيضاً ، فدعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر ، ولهـذا أنكر الله على من يدعو أحداً من دونه ممن لا يملك ضراً ولا نفعاً ، كقوله تعالى : (قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لـكم ضراً ولا نفعاً) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه وأرضاه في الرسالة السنية : فاذا كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ممن انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة بهذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام لأسباب : منها الغلو في بعض المشايخ ، بل الغلو فى على بن أبيطالب كرم الله وجهه ، بل الغلو في المسيح عليه السلام ، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يقول : يا سيدي فلان انصرني وأغثني وارزقنى وعافنى ، أو أنا في حسبك وحفظك وحمايتك ورعايتك ، ونحو هذه الأقوال ، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه . فإن تاب وإلا قتل ، فان الله سبحانه إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبدوه وحده لا شريك له ولا يدعوا معه إلهاً ، والذين يدعون مع الله إلهـاً آخر مثل المسيح والملائكة والأصنام لم يكونوا يعبدونهم ويعبدون قبورهم أو يعبدون صورهم يقولون إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . فبعث الله سبحانه رسله تنهى أن يدعى أحد من دونه ، لادعاء عبادة ولا دعاء استغاثة واستعانة ، قال : ومن جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعاً ، نقله عنه صاحب الفروع وصاحب الإنصاف وصاحب الإقناع وغيرهم. قال في الدين الخالص وذكره ابن تيمية رحمه الله تعالى في مسألة الوسائط ونقلوه عنه في الرد على ابن جرجيس اه أقول : اعـلم أن الاستغاثة في الأسباب الظاهرية العادية في الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو أو سبع أو نحوه تجوز ، كقولهم يالزيد للمسلمين ، بحسب الأفعال الظاهرة ، وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير أو في الأمور المعنوية في الشدائد ، كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه فمن خصائص الله ، لا يطلب فيها غيره . والله أعلم .

مِمَّنْ يَدْعُو من دُونِ اللهِ من لا يَسْتَجِيبُ له إلى يوم القيامة)[١] الآيتينِ . وقوله : (أمَّنْ يُجِيبُ المضْطَرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ)[٢] .

---

(١) قال ابن عطية في قوله تعالى (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك) : « هذا الأمر والمخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان كذلك فأحرى أن يتحذر من ذلك غيره ، والخطاب خرج مخرج الخصوص وهو عام للأمة » . قال ابن جرير : في هذه الآية : « يقول تعالى : ولا تدع يا محمد من دون معبودك ولا خالقك شيئاً لا ينفعك فى الدنيا ولا في الآخرة ولا يضرك في دين ولا دنيا — يعنى بذلك الآلهة — يقول : أتعبدها راجياً نفعها أو خائفاً ضرها ، فانها لا تضر ولا تنفع ، فان فعلت ذلك ودعوتها من دون الله فانك إذاً من الظالمين ، أي المشركين بالله . والله أعلم » . دلت هذه الآية على أنه سبحانه هو المنفرد بالملك والقهر ، والعطاء والمنع ، والضر والنفع ، دون كل ما سواه ، فيلزم من ذلك أن يكون هو المدعو وحده ، فان العبادة لا تصلح إلا لمالك النفع والضر، ولا يملك ذلك ولا شيئاً مما هنالك غيره كائناً من كان من أوليائه أو أعدائه ، فهو المستحق للعبادة والدعوة وحده ، دون من لا يضر ولا ينفع . وقوله تعالى : (فابتغوا عند الله الرزق) أمر الله عباده بابتغاء الرزق عنده وحده دون من سواه ممن لم يملك لهم رزقاً من السموات والأرض ، فتقديم الظرف أفاد الاختصاص . (واعبدوه) : من عطف العام على الخاص ، فان طلب الرزق من الله من العبادة التي أمر بها . قال الحافظ ابن كثير : « معناه ابتغوا عند الله الرزق لا عند غيره ، لأنه المالك له وغيره لا يملك شيئاً من ذلك وأخلصوا له العبادة وحده لا شريك له واشكروا له على ما أنعم عليكم ، إليه ترجعون فيجازي كل عامل بعمله » . وقوله تعالى : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله) الآية : فيه نفى سبحانه أن يكون أحد أضل ممن يدعو غيره ، وأخبر أنه لا يستجيب له ما طلب منه إلى يوم القيامة . والآية تعم كل من يدعو من دون الله . والله أعلم .

(٢) أخبر المولى تعالى أنه الكاشف للضر لا غيره ، وأنه المنفرد باجابة المضطرين وأنه المستغاث لذلك ، وأنه القادر على دفع الضر والقادر على إيصال الخير ، فهو المنفرد بذلك . فاذا تعين — جل ذكره — خرج غيره ، من ملك ونبي وولي وغير ذلك .

ويعُوقَ ونَسْرًا) . « قال : هذه أسماءُ رجالٍ صالحينَ من قوم نُوح ، فلَّما هَلَـكُوا أوحَى الشَّيطانُ إلى قومهم أنِ انْصِبُوا إلى مجالسهم التى كَانُوا يَجْلِسُونَ فيها أَنْصَابًا وسَمُّوها بأَسمائِهِمْ ، ففعلوا ولم تُعْبَدْ ، حتى إذا هلك أولئك ونُسِى العلمُ عُبِدَتْ »(١) .

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه ، قال فى فتح البيان : قال محمد بن كعب : هذه أسماء قوم صالحين كانوا ببنى آدم ونوح ، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة ، فقال لهم إبليس : لو صورتم صورهم كان أنشط لـكم وأشوق إلى العبادة ، ففعلو ، ثم نشأ قوم من بعدهم ، فقال لهم ، إبليس : إن الذين من قبلـكم كانو يعبدونهم فاعبدوهم ، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت ، وسميت هذه الصور بهذه الأسماء لأنهم صوروها على صور أولئك القوم . قال الماوردى : فأما « ود » فهو أول صنم معبود ، سمى ودا لودهم له ، وكان بعد قوم نوح لـكلب بدومة الجندل في قول ابن عباس وعطاء ومقاتل ، وفيه يقول شاعرهم :

حياك ود فإنا لا يحل لنا لهو النساء وإن الدين قد غربا

وأما « سواع » فكان لهذيل بساحل البحر . وأما « يعوق » فـكان لغطيف من مراد بالجرف من سبأ في قول قتادة ، وقال المهدوى : لمراد ثم لغطفان . وأما ، « يغوث » فكان لهمدان في قول قتادة وعكرمة وعطاء ، وقال الثعلبي : كان لـكهلان بن سبأ ثم توارثوه حتى صار في همدان ، فيه يقول مالك بن نمط الهمداني .

يريش الله في الدنيا ويبدي ولا يبدي يعوق ولا يريش

وأما « نسر » فـكان بذى الـكلاع من حمير في قوله قتادة ومقاتل . قال الواقدي : كان « ود » على صورة رجل و « سواع » على صورة امرأة ، « ويغوث » على صورة أسد ، و « يعوق » على صورة فرس ، و « نسر » على صورة النسر الطائر . ا هـ باختصار والله أعلم .

وقال ابن القيِّمِ : قال غيرُ واحدٍ من السَّلَفِ : لمّا ماتُوا عَكَفُوا على قبُورِهم ، ثم صوّرُوا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمدُ فعبدوهم .

وعن عمر أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تُطْرُونِي كما أَطْرَتِ النَّصارى ابنَ مَرْيَمَ ، إنما أنا عَبْدٌ ، فقولوا : عَبْدُ الله ورسوله » أخرجاه(١) .

وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إيّاكُمْ والغلوَّ ، فإنما أَهْلَكَ مَن كان قبلَكم الغُلُوُّ »(٢) . ولمسلم عن ابن مسعودٍ أن

---

(١) قوله « لا تطرونى » هو بضم أوله وسكون ثانية من « الإطراء » وهو المبالغة فى المدح والغلو . فالمعنى : لا تجاوزوا الحد في مدحى بغير الواقع فيجركم ذلك إلى الكفر كما جر النصارى إليه لما تجاوزوا الحد فى مدح عيسى بغير الواقع واتخذوه إلهاً وحرفوا قوله فى الإنجيل « عيسى نبي وأنا ولدته » — يعنى بتشديد اللام المفتوحة زعموا أن الأول بتقديم الباء الموحدة التحتية وخففوا لام الثانى : وقد ادعى البعض نحو ذلك فى نبينا صلى الله عليه وسلم حيث قالوا ألا نسجد لك فنهاهم . فما يدعيه بعض فقراء الطرق الذين طمس الله بصائرهم فى كونه صلى الله عليه وسلم يعلم ما كان وما يكون من علم الغيب ، وأنه يتصرف فى الدنيا بعد موته ، ويزور من شاء ، ويجوب مشارق الأرض ومغاربها ، ويحضر مجالسهم مجالس المكاء والتصدية ، غلط فاحش ، وجهل مركب ، منشؤه الغلو وعدم المعرفة . وقوله « إنما أنا عبد » أى ملك لله يتصرف فىّ بما يشاء وكيف شاء ، فلا خروج لى عن دائرة العبودية بوجه ، كسائر العباد ، فلا تقولوا فى حقى شيئاً ينافى العبودية والرسالة . والله أعلم .

(٢) رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده والنسائى وابن ماجة والحاكم من حديث ابن عباس .

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم قال : « هَلَكَ المتنَطِّعُونَ » . قالها ثلاثاً (١) .

« فيه مسائل » : الأولى أن من فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غربة الإسلام ، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب . الثانية معرفة أول شرك حدث فى الأرض أنه بشبهة الصالحين . الثالثة أول شىء غُيِّر به دين الأنبياء وماسبب ذلك ، مع معرفة أن الله أرسلهم. الرابعة قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها . الخامسة أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل ، فالأول محبة الصالحين ، والثانى فعل أناس من أهل العلم شيئاً أرادوا به خيراً فظن من بعدهم أنهم أَرادوا به غيره . السادسة تفسير الآية التى فى سورة نوح . السابعة جبلّة الآدمى فى كون الحق ينقص فى قلبه والباطل يزيد . الثامنة فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدع سبب الكفر . التاسعة معرفة الشيطان بما تؤول اليه البدعة ولوحسن قصد الفاعل . العاشرة معرفة القاعدة الكلية ، وهى النهى عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه . الحادية عشرة مضرة العكوف على القبر لأجل

---

(١) قال فى الشرح : « قال الخطابى : المتنطع المتعمق فى الشىء المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لايعنيهم الخائضين فيما لاتبلغه عقولهم . ومن التنطع الامتناع من المباح مطلقاً ، كالذى يمتنع من أكل الخبز واللحم ولبس الكتان والقطن ولا يلبس إلا الصوف ويمتنع من نكاح النساء ، ويظن أنه من الزهد المستحب . قال شيخ الإسلام تقى الدين — أى ابن تيمية — فهذا جاهل ضال » . وقال النووى فى شرح مسلم : « أى المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود فى أقوالهم وأفعالهم » .

عمل صالح . الثانية عشرة معرفة النهى عن التماثيل والحكمة فى إزالتها . الثالثة عشرة معرفة شأن هذه القصة وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها . الرابعة عشرة، وهى أعجب وأعجب، قراءتهم إياها فى كتب التفسير والحديث ومعرفتهم بمعنى الكلام وكون الله حال بينهم و بين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات ، فاعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال[١] . الخامسة عشرة التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة . السادسة عشرة ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك . السابعة عشرة البيان العظيم فى قوله : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابنَ مريم » ، فصلوات الله وسلامه على من بلغ البلاغ المبين . الثامنة عشرة نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين . التاسعة عشرة التصريح بأنها لم تعبد حتى نسى العلم ، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده . العشرون أن سبب فقد العلم موت العلماء[٢] .

---

(١) يعني اعتقدوا أن النهى قاصر على ما كان كفراً مبيحاً للدم والمال .

(٢) ولا شك أن بموت العلماء العالمين بأحكام الشريعة الغراء يفقد العلم ويذهب ، ويبقى حثالة أدعياء ينسبون إلى العلم كذباً وميناً وهو منهم برىء .

﴿ باب ما جاء من التّغْليظ فيمن عَبَدَ اللهَ عند قبر رجلٍ صالحٍ فكيف إذا عَبَدَهُ ﴾

فى الصَّحيح عن عائشةَ : « أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم كَنِيسَةً رأتْها بأرضِ الحَبَشَة وما فيها مِن الصُّورِ ، فقال : أولئكِ إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبدُ الصالح بَنَوْا على قبرِه مسجداً وصَوَّرُوا فيه تلك الصُّوَرَ ، أولئِك شِرَارُ الخلقِ عند الله »[١] . فهؤلاء جَمَعُوا بينَ فتنتين : فتنةِ القبور وفتنةِ التماثيلِ .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري فى غير موضع من صحيحه ومسلم والنسائي . وقوله « أم سلمة » هى أم المؤمنين رضى الله عنها ، واسمها هند على الأصح ، بنت أبى أمية المخزومية ، هاجر بها زوجها أبو سلمة إلى الحبشة ، فلما رجعا إلى المدينــة مات زوجها فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله « كنيسة » هى بفتح الـكاف معبد النصارى . وقوله « أولئك » بكسر الـكاف فى الموضعين ، والإشارة إلى البانين على قبور صالحيهم المساجد ، والخطاب لأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم . وقوله « شرار الخلق » بكسر الشين جمع « شر » كالخيار جمع « خير » . وإنما كانوا شرار الخلق لأنهم ضلو الطريق المستقيم فأضلوا وسنوا لمن بعدهم الغلو فى قبور صالحيهم حتى أفضى بهم إلى عبادتها ، وهذا عام فى كل من فعل فعلهم من هذه الأمة، يتبع سنن من كان قبلها من المشركين ، فنسأل الله السلامة والنجاة من ذلك .

ولهما عنها قالت : « لما نَزَل برسول الله صلى الله عليه وسلم طَفِقَ يَطرَحُ خَمِيصَةً له على وجهِهِ، فإذا اغتَمّ بها كَشَفَهَا، فقال وهو كَذلك: لَعْنَةُ الله على اليهود والنصارى ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبيائهم مساجدَ ، يُحَذِّرُ ما صَنَعُوا ، ولولا ذلك أُبْرِزَ قبره ، غيرَ أَنَّهُ خُشِيَ أن يُتَّخَذَ مسجداً » أخرجاه[1] .

ولمسلم عَن جُنْدُب بن عبد الله قال : سمعتُ النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يمُوت بخمس وهو يقول : « إِنِّي أَبْرَأ إلى الله أن يكون لى منكم خليلٌ ، فإنَّ الله قَدِ اتَّخَذَنِى خليلًا كما اتَّخَذَ إبرهيمَ خليلًا ، ولو كُنتُ مُتَّخِذاً مِن أمَّتِى خليلًا لاَتّخَذْتُ أبا بكرٍ خليلا ،

---

(١) وأخرجه أيضاً النسائى فى سننه ، قوله « لما نزل » على صيغة المعلوم فى رواية أبى ذر ، وفاعله محذوف ، أي لما نزل الموت ، وفى رواية غيره بضم النون وكسر الزاء على صيغة المجهول . وقوله « طفق » جواب لما ، أى جعل . والخميصة : كساء له أعلام . وقوله « إذا اغتم بها كشفها » أى إذا احتبس نفسه عن الخروج كشفها عن وجهه . وقوله « فقال وهو كذلك » أى على تلك الحال وهى ، حال الطرح والكشف . وقوله « يحذر ما صنعوا » الخ ، هو من كلام الراوى لا من كلام الرسول صلي الله عليه وسلم ، وإنما كان يحذرهم من ذلك الصنيع لئلا يفعل بقبره مثله، ولعل الحكمة في ذلك أنه يصير بالتدريج شبيهاً بعبادة الأصنام ، كما هو حاصل الآن فى هذا الزمان من مغالاتهم فى قبور صلحائهم والتمسح بها والطواف حولها وتقبيل جوانبها والسجود لها ، لا سيما بمصر بلاد الفراعنة . فنسأل الله العصمة من ذلك .

أَلا وإنّ مَن كان قَبلكم كانوا يتّخِذُون قبور أنبيائهم مساجِدَ ، أَلاَ فلا تتّخِذُوا القبورَ مساجدَ ، فإنِى أنهاكُمْ عن ذلك »[١] . فقد نَهَى عنه فى آخرِ حياتهِ ، ثُمّ إنه لعَنَ وهو فى السِّياقِ مَن فعله . والصلاةُ عندها من ذلك وإنْ لم يُبْنَ مسجد ، وهو معنى قولها : « خُشِى أن يُتّخَذَ مسجداً » ، فإنّ الصحابة لم يكونوا لِيَبْنُوا حول قبرِهِ مسجداً ، وكلُّ موضعٍ قُصِدَت الصلاةُ فيه فقد اتُّخِذَ مسجداً ، بل كلُّ موضع يُصَلَّى فيه يُسمَّى مسجداً ، كما قال صلى الله عليه

---

(١) قال النووى فى شرح مسلم : معنى أبرأ أى أمتنع من هذا وأنكره . والخليل هو المنقطع إليه ، وقيل المختص بشىء دون غيره ، قيل هو مشتق من الخلة بفتح الخاء وهى الحاجة ، وقيل من الخلة بضم الخاء وهى تخلل المودة فى القلب ، فنفى صلى الله عليه وسلم أن تكون حاجته وانقطاعه إلى غير الله تعالى ، وقيل الخليل من لايتسع القلب لغيره . قال العلماء : إنما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجداً خوفاً من المبالغة فى تعظيمه والافتتان به فربما أدى ذلك إلى الكفر ، كما جرى لكثير من الأمم الخالية . ولما احتاجت الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين والتابعون إلى زيادة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كثر المسلمون وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه ، ومنها حجرة عائشة رضى الله عنها مدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، بنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله ، لئلا يظهر فى المسجد فيصلى إليه العوام ويؤدى إلى المحذور ، ثم بنوا جدارين من ركنى القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا ، حتى لايتمكن أحد من استقبال القبر ، ولذا قيل فى الحديث : « ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً » .

وسلم : « جُعِلَتْ لِىَ الأرضُ مسجداً وطَهُورًا » ولِأَحْمَدَ بسند جَيِّدٍ عن ابن مسعودٍ رضى الله عنه مرفوعًا : « إِنَّ من شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ الساعةُ وهم أحياءٌ ، والذين يَتَّخِذُونَ القبورَ مساجدَ » . ورواهُ أبو حاتم فى صحيحه .

«فيه مسائل» : الأولى ما ذكر الرسول فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح ولو صحت نية الفاعل . الثانية النهى عن التماثيل وغلظ الأمر فى ذلك . الثالثة العبرة فى مبالغته صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، كيف بين لهم هذا أولاً ، ثم قبل موته بخمس قال ما قال ، ثم لما كان فى السياق لم يكتف بما تقدم . الرابعة نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر . الخامسة أنه من سنن اليهود والنصارى فى قبور أنبيائهم . السادسة لعنه إياهم على ذلك. السابعة أن مراده تحذيره إيانا عن قبره . الثامنة العلة فى عدم إبراز قبره : التاسعة فى معنى اتخاذها مسجداً . العاشرة أنه قرن بين من اتخذها و بين من تقوم عليه الساعة ، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته . الحادية عشرة ذكره فى خطبته قبل موته بخمس الرد على الطائفتين اللتين هما أشر[1] أهل البدع ، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة ، وهم الرافضة والجهمية ،

---

(١) الصحيح فى استعمال أفعل التفضيل من الشر والخير « شر وخير » بدون همزة ، فكان الأحسن هنا حذفها موافقة للحديث ، هكذا قال بعضهم ، أقول ، جاء الوجهان فى الحديث ، إلا أن الحذف أكثر ، والله أعلم .

وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور ، وهم أول من بنى عليها المساجد . الثانية عشرة ما بلى به صلى الله عليه وسلم من شدة النزع . الثالثة عشرة ما أكرم به من الخلة . الرابعة عشرة التصريح بأنها أعلى من المحبة . الخامسة عشرة التصريح بأن الصدِّيق أفضل الصحابة . السادسة عشرة الإشارة إلى خلافته .

﴿ باب ما جاء أَنَّ الغُلُوَّ فى قبور الصَّالحين يُصَيِّرُها أوثاناً تُعْبَدُ من دُون الله ﴾

روى مالكٌ فى المُوَطَّإِ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللَّهُمَّ لا تجعل قبرِى وَثَناً يُعْبَدُ ، اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ اتَّخَذُوا قبورَ أنبيائِهم مساجدَ »(١) .

---

(١) قد استجاب الله جل وعلا دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم كما قال ابن القيم :

فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت أرجاؤه بدعائه فى عزة وحماية وصيان

والحديث يدل على أن قبر النبي صلى الله عليه وسلم لو عبد لكان وثناً ، لكن حماه الله تعالى بما حال بينه وبين الناس ، فلا يوصل إليه ، وقد تقدم قريباً بيان ذلك نقلا عن النووى فارجع إليه ، وقد عظمت الفتنة بالقبور بتعظيمها وعبادتها حتى اتخذت ديناً ربى عليها الصغير وشاب عليها الكبير ، يرى تغييرها بدعة وفعلها سنة ، ويحقق قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : كيف أنكم إذ ألبستم فتنة يهرم فيها الكبير وينشأ عليها

ولابن جَرِيرٍ بسنده عن سُفْيانَ عن منصورٍ عن مُجاهِدٍ (أَفَرَأَيتم اللاَّتَ والعُزَّى) قال : كان يَلُتُّ لهم السَّوِيقَ فمات ، فَعَكَفُوا على قبره . وكذا قال أبو الجوزاءِ عن ابن عباسٍ : كان يَلتُّ السَّوِيقَ للحاجِّ(١) .

وعن ابن عباسٍ رضى الله عنهما قال : « لَعَنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم زَائِرَاتِ القبُورِ والمتَّخِذِينَ عليها المساجدَ

الصغير ، تجرى على الناس يتخذونها سنة ، إذا غيرت قيل غيرت السنة . وقوله « اشتد غضب الله » الخ يدل على تحريم البناء على القبور وتحريم الصلاة عندها ، وأن ذلك من الكبائر ، وقد روى عن الامام مالك إمام دار الهجرة أنه كره أن يقول : زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلل ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد » الحديث. كره رضى الله عنه إضافة هذا اللفظ إلى القبر لئلا يقع التشبه بفعل أولئك ، سداً للذريعة . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ومالك قد أدرك التابعين ، وهم أعلم الناس بهذه المسألة ، فدل ذلك على أنه لم يكن معروفاً عندهم ألفاظ زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) قوله : « اللات والعزى » تقدم الكلام عليهما فيما سبق . والسويق : دقيق الحنطة أو الشعير . ولته : بله بالسمن أو الماء . وقوله « كان يلت السويق للحاج » أى للحجاج . أو المعنى أن اللات كان رجلا صالحاً يطعم الحجاج السويق ، فلما مات غلوا فيه لصلاحه، فعكفوا على قبره حتى عبدوه، وصارقبره وثناً من أوثان المشركين، نسأل الله سلامة هذه الأمة ونجاتها مما تفعل بصالحيها من الغلو والعكوف على قبورهم وطلب ما يختص بالله تعالى من جلب نفع ودفع ضر ، لاسيما مايقع فى مصر والعلماء ساكتون، إنا لله وإنا اليه راجعون

والسُّرُجَ » رواهُ أهل السُّنَنِ(١) .

« فيه مسائل » : الأولى تفسير الأوثان . الثانية تفسير العبادة . الثالثة أنه صلى الله عليه وسلم لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه . الرابعة قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد . الخامسة ذكر شدة الغضب من الله . السادسة ، وهي من أهمها ، صفة معرفة عبادة اللات التي هي أكبر الأوثان . السابعة معرفة أنه قبر رجل صالح . الثامنة أنه اسم صاحب القبر ، وذكر معنى التسمية . التاسعة لعنه زَوَّارات القبور . العاشرة لعنه من أسرجها .

---

(١) اللعن : الطرد عن رحمة الله تعالى . وقوله : « زائرات القبور » جمع زائرة ، وفي رواية : « زوارات القبور » . وهو يدل على تحريم زيارة النساء القبور ، وبه قال كثير من العلماء . وفي الباب أحاديث كثيرة تدل على تحريم زيارة القبور للنساء ، منها ماروى أبوداود والحاكم عن ابن عمر : « أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى فاطمة ابنته فقال : ما أخرجك من بيتك ؟ فقالت : أتيت أهل هذا الميت فرحمت على ميتهم ، فقال لها : فلعلك بلغت معهم الكدى ؟ قالت : معاذالله وقد سمعتك تذكر فيها ماتذكر ، قال : لو بلغت معهم الكدى — فذكر تشديداً في ذلك — فسألت ربيعة : ما الكدى ، فقال : القبور فيما أحسب » . وفي رواية : « لو بلغت معهم الكدى ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك » قال الحاكم : صحيح الإسناد على الشيخين ولم يخرجاه . وروى ابن ماجة عن علي رضي الله عنه قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا نسوة جلوس ، قال : ما يجلسكن ؟ قلن : ننتظر الجنازة ، قال : هل تغسلن ؟ قلن : لا ، قال : هل تحملن ؟ قلن : لا ، قال : تدلين فيمن يدلي ؟ قلن : لا ، قال : فارجعن مأزورات غير مأجورات » . ورواه أبو يعلى من حديث أنس . وقدذهب جماعة من أهل العلم إلى أن النساء لم يدخلن في الإذن في زيارة القبور ، لأن قوله عليه الصلاة والسلام : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها فان فيها عبرة » صيغة تذكير لا يتناول النساء إلا تغليباً . ولو كن داخلات في هذا الخطاب لاستحب لهن زيارة

﴿باب ما جاء فى حِمايةِ المصطفى صلى الله عليه وسلم جنابَ التَّوحيدِ وسَدِّهِ كلَّ طريقٍ يوصل إلى الشرك﴾(١)

وقولِ الله تعالى : (لقد جاءكُم رسولٌ من أنفُسِكُمْ عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ) الآية(٢) .

القبور ، وما علمنا أحد من الأئمة استحب لهن زيارة القبور ، ولا كان النساء على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين يخرجن إلى زيارة القبور . وأيضا فان النبي صلى الله عليه وسلم علل الإذن للرجال كما فى بعض الروايات فى مسند أحمد بأن ذلك يذكر الموت ويرقق القلب وتدمع العين . ومعلوم أن المرأة إذا فتح لها هذا الباب أخرجها إلى الجزع والندب والنياحة لما فيها من الضعف وقلة الصبر . قال الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب : « قد كان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور نهياً عاما للرجال والنساء ، ثم أذن للرجال فى زيارتها ، واستمر النهى فى حق النساء » . أقول : ويكون الإذن فى زيارة القبور مخصوصاً بالرجال ، خص بهذا الحديث ، فيكون من العام المخصوص . وقوله : « والمتخذين عليها المساجد » ظاهره أنهم كانوا يجعلونها مساجد يصلون فيها ، وقيل : هو أعم من الصلاة عليها وفيها . وقد أخرج مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها أو عليها » ، و « السرج » جمع سراج ، أى يوقدون عليها السرج كما يفعله أهل زماننا ، قال أبو محمد المقدسى : لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله ، لأن فيه تضييعاً للمال فى غير فائدة ، وإفراطا فى تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام . قال العلامة شمس الدين بن القيم : « اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر » .

(١) الجناب : هو الجانب ، والمراد حمايته صلى الله عليه وسلم عما يقرب منه أو يخالفه من الشرك وأسبابه .

(٢) قال القاضى عياض فى كتابه الشفا فى تعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم : « أعلم الله تعالى المؤمنين أو العرب أو أهل مكة أو جميع الناس على اختلاف المفسرين من المواجه بهذا الخطاب : أنه بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يعرفونه ويتحققون مكانه ويعلمون صدقه وأمانته ، فلا يتهمونه بالكذب وترك النصيحة لهم لكونه منهم ، وأنه لم

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا ، ولا تجعلوا قبرى عيداً ، وصَلُّوا عَلَيَّ فإِنَّ صَلاَتَكُمْ تَبْلُغُنِي حيث كُنْتُمْ » . رواه أبو داود بإسناد حسنٍ ورواته ثِقَاتٌ[(١)] . وعن على بن الحسينِ رضى الله عنه : أَنَّهُ رَأَى رجلاً يجىء إلى فُرْجَةٍ كانت عند قبر النَّبي صلى الله عليه وسلم

تسكن فى العرب قبيلة إلا ولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولادة أو قرابة . ثم وصفه بعد بأوصاف حميدة وأثنى عليه بمحامد كثيرة ، من حرصه على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم وشدة مايعنتهم ويضر بهم فى دنياهم وأخراهم وعزته عليه ورأفته ورحمته بمؤمنيهم اهـ المراد منه. وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره: يقول الله تعالى ممتنا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم أى من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبرهيم عليه السلام : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) . وقال تعالى : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) . وقال تعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) . أى منكم وبلغتكم ، كما قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : إن الله بعث فينا رسولا منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته الحديث. وقوله تعالى : (عزيز عليه ما عنتم) أى يعز عليه الشىء الذى يعنت أمته ويشق عليها ، وبهذا جاء فى الحديث المروي من طرق عنه أنه قال : « بعثت بالحنيفية السمحة » . وفى الصحيح : « إن هذا الدين يسر » وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه . (حريص عليكم) أى على هدايتكم ووصول النفع الدنيوى والآخروى إليكم . اهـ ببعض تصرف .

(١) قوله « لاتجعلو بيوتكم قبوراً » قال شيخ الاسلام ابن تيمية : أى لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة ، فتكون بمنزلة القبور ، فأمر بتحرى العبادة فى البيوت ونهى عن تحريها عند القبور ، عكس مايفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة . وفى الصحيحين عن ابن عمر مرفوعاً : «اجعلوا صلاتكم فى بيوتكم ولاتتخذوها قبوراً » . وفى صحيح مسلم عن ابن عمر أيضاً مرفوعاً : « لاتجعلوا بيوتكم مقابر ، فان الشيطان يفر من البيت الذى يسمع سورة البقرة تقرأ فيه » وقوله : « ولاتجعلوا قبرى عيدا » قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : العيد ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان

فَيَدْخُلُ فيها فَيَدْعُو فَنهَاه وقال : ألا أُحَدِّثُكُمْ حديثاً سمعته من أبى عن جدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تَتَّخِذُوا قَبْرِى عِيدًا ولا بُيُوتَكُمْ قبوراً ، فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ لَيَبْلُغُنِي أينما كنتم » . رواه فى المُخْتَارَةِ(١) .

« فيه مسائل » : الأولى تفسير آية براءة . الثانية إبعاده أمته عن هذا الحمى غاية البعد . الثالثة ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته . الرابعة نهيه عن زيادة قبره على وجه مخصوص ، مع أن زيادته من أفضل الأعمال . الخامسة نهيه عن الإكثار من الزيادة . السادسة حثه على النافلة فى البيت . السابعة أنه متقرر عندهم أنه لايصلى فى المقبرة . الثامنة تعليل ذلك بأن صلاة الرجل

ومكان ، مأخوذ من المعاودة والاعتياد ، فإذا كان اسماً للمكان فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة وغيرها ، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة ، كما جعل أيام العيد فيها عيداً ، وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية ، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوّض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى ، كما عوض عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر . وقوله : « وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام على يحصل مع قولكم وبعدكم ، فلا حاجة لكم إلى اتخاذه عيداً تنتابونه وترددون إليه لأجل ذلك ، والله أعلم .

(١) قوله « إلى فرجة » ، بضم الفاء وسكون الراء ، هي الكوة في الجدار والخوخة ونحوها . وقوله « فيدخل فيها فيدعو فنهاه » يدل على منع قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها . قال شيخ الإسلام رحمه الله : ما علمت أحداً رخص فيه ، لأن ذلك نوع من اتخاذه عيداً ، وأيضاً قصد القبر للسلام غير مشروع ، لذلك كره مالك لأهل المدينة كلما دخل الإنسان المسجد أن يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، وكان الصحابة

وسلامه عليه يبلغه و إن بَعُدَ ، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب . التاسعة كونه صلى الله عليه وسلم فى البرزخ تعرض أعمال أمته فى الصلاة والسلام عليه .

والتابعون رضى الله عنهم يأتون إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فيصلون ، فاذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا ، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام ، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل . وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم ، بل نهاهم في قوله « لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا على فان صلاتكم تبلغنى » . فبين أن الصلاة تصل إليه من بعد ، وكذلك السلام . ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد ، وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب ، إذ كانت عائشة رضي الله عنها فيها ، وبعد ذلك بنى الحائط الآخر ، وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون عليه ، لا للسلام ، ولا للصلاة ، ولا للدعاء لأنفسهم ، ولا لغيرهم ، ولا لسؤال عن حديث أو علم ، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلاماً أو سلاماً فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم وبين لهم الأحاديث ، أو أنه قد رد عليهم السلام بصوت يسمع من خارج ، كما طمع الشيطان في غيرهم فأضلهم عن قبره وقبر غيره ، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدثهم في الظاهر ، وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجاً من القبر ، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم ، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها ، كما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج . والمقصود أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره كما يفعله من بعدهم من الخلوف ، وإنما كان يأتي من خارج فيسلم عليه إذا قدم من سفر ، كما كان ابن عمر يفعله ، قال عبيد الله بن عمر عن نافع : كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليك يارسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبتاه ، ثم ينصرف . قال عبيد الله : ما نعلم أحداً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك إلا ابن عمر اﻫ من فتح المجيد ببعض تصرف . وقوله : « في المختارة » : هو اسم كتاب في الحديث جمع فيه مؤلفه ، الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله المقدسي الحافظ ضياء الدين أحد الأعلام ، الأحاديث الجياد الزائدة على الصحيحين . قال الإمام الذهبي في ترجمته : أفنى عمره في هذا الشأن مع الدين المتين والورع والفضيلة التامة والإتقان . فالله يرحمه ويرضى عنه ، والله أعلم .

﴿ باب ما جاء أنَّ بعض هذه الأُمَّة يَعْبُدُ الأَوْثَانَ[1] ﴾

وقوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِين أوتُوا نصيباً من الكِتَابِ يُؤْمِنُون بالِجبت والطَّاغُوتِ)[2] . وقوله تعالى : (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بشَرٍّ من ذلك مَثُوبةً عندَ الله ، مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عليه ، وجَعل

---

(١) الأوثان : جمع وثن ، يطلق على كل ما قصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله ، صورة كان أو غير صورة . قال صاحب النهاية : وقد يطلق الوثن على غير الصورة ، ومنه حديث عدى بن حاتم « قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنق صليب من ذهب ، فقال لى : ألق هذا الوثن » . فلذلك أطلقه بعضهم على القبور والمشاهد وغيرها ، واستدل بقول الخليل عليه السلام : (إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا) مع قوله : (قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين) وقوله (أتعبدون ما تنحتون) . والله أعلم .

(٢) أما الجبت فيطلق على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك ، قال الجوهرى في الصحاح : والطاغوت الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه وهو صاحب أمرهم . وقال الإمام مالك : هوكل ما يعبد من دون الله عز وجل. وبقية الآية هو قوله تعالى : (ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنو سبيلا) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : أي يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم وقلة دينهم وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم . وقد روى ابن أبي حاتم بسنده إلى عكرمة قال : جاء يحيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة ، فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد ؟ فقالوا : ما أنتم ومحمد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام وننحر الكوماء ونسقي الماء على اللبن ونفك العاني ونسقي الحجيج ، ومحمد صنبور ، قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج من غفار ، فنحن خير أم هو ؟ فقالوا : أنتم خير وأهدى سبيلا ، فأنزل الله تعالى : (ألم تر إلى الذين أوتو نصيباً) الآية .

وروى الطَّبَرَانِيُّ بإسناده : « أنه كان فى زَمن النبى صلى الله عليه وسلم منافقٌ يُؤْذِى المؤمنين ، فقال بعضُهم : قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ برسول الله صلى الله عليه وسلم مِنْ هٰذا المنافقِ ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : إنه لا يُسْتَغَاثُ بِى ، وإنما يُسْتَغَاثُ بالله » .

« فيه مسائل » : الأولى أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص . الثانية تفسير قوله (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك) . الثالثة أن هذا هو الشرك الأكبر . الرابعة أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين . الخامسة تفسير الآية التى بعدها . السادسة كون ذلك لا ينفع فى الدنيا مع كونه كفراً . السابعة تفسير الآية الثالثة . الثامنة أن طلب الرزق لا ينبغى إلا من الله ، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه . التاسعة تفسير الآية الرابعة . العاشرة أنه لا أضلَّ ممن دعا غير الله . الحادية عشرة أنه غافل عن دعاء الداعى لا يدرى عنه . الثانية عشرة أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعوّ للداعى وعداوته له . الثالثة عشرة تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعوّ . الرابعة عشرة كفر المدعوّ بتلك العبادة . الخامسة عشرة هى سبب كونه أضل الناس . السادسة عشرة تفسير الآية الخامسة . السابعة عشرة الأمر العجيب ، وهو إقرار عبدة الأوثان بأنه لا يجيب المضطر إلا الله ، ولأجل هذا يدعونه فى الشدائد مخلصين له الدين . الثامنة عشرة حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد والتأدب مع الله .

﴿ باب قول الله تعالى ﴾

(أَيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شيئاً وهُمْ يُخْلَقُونَ ولا يَسْتَطِيعُونَ لهم نَصْراً) الآية[١] . وقوله :

(والَّذِينَ تدْعُونَ من دُونِهِ ما يمِلِكُونَ من قِطْمِيرٍ)[٢] الآية .

وفى الصحيح عن أَنَسٍ قال : « شُجَّ النبى صلى الله عليه وسلم يومَ أُحُدٍ وكُسِرَتْ رَباعِيَتُهُ ، فقال : كيف يُفْلِحُ قومٌ شَجُّوا نبيهم؟ فنزلت : ليس لكَ من الأَمْرِ شيءٌ »[٣] . وفيه عن ابن عُمر رضى الله

---

(١) قال المفسرون : هذه الآية فيها توبيخ وتعنيف للمشركين في عبادتهم مع الله تعالى ما لا يخلق شيئاً وهو مخلوق ، والمخلوق لا يكون شريكا للخالق في العبادة التي خلقهم لها ، وبين أنهم لا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ، فكيف يشركون به من من لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه . وهـذا برهان ظاهر ودليل باهر على بطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله . وهذا وصف كل مخلوق حتى الملائكة والأنبياء والصالحين وأشرف الخلق محمد صلى الله عليه وسلم كان يستنصر ربه على المشركين ويقول : « اللهم أنت عضدى وأنت نصيري بك أحول وبك أصول وبك أقاتل » .

(٢) هو الأثر الذى في ظهر النواة ، يضرب مثلا للشيء الطفيف .

(٣) الحديث رواه البخاري تعليقاً ، ووصله مسلم والنسائي والترمذي والإمام أحمد بن حنبل . قال ابن إسحق في المغازي : حدثنا حميد الطويل عن أنس قال : كسرت رباعية النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وشج وجهه وجعل الدم يسيل على وجهه وجعل يمسح الدم وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم فأنزل الله

عنهما : «أَنه سَمِعَ رسولَ اللّٰهِ صلى الله عليه وسلم يقول إذا رفع رأسَه من الركوع فى الركعةِ الأخيرةِ من الفجرِ : اللّٰهُمَّ العَنْ فلاناً وفلاناً، بعدما يقولُ سَمِعَ اللّٰهُ لمن حمده ربّنا ولك الحمدُ . فأَنْزَلَ اللّٰهُ : (ليس لَكَ من الأمرِ شيء) » الآية . وفى رواية: « يَدْعُو على صَفْوَانَ بن أُمَيَّة

الآية اه وذكر ابن هشام في السيرة من حديث أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص هو الذي كسر رباعية النبي صلى الله عليه وسلم وجرح شفته السفلى ، وأن عبد الله بن شهاب الزهرى هو الذي شجه في وجهه ، وأن عبد الله بن قميئة جرحه في وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، ووقع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرة من الحفر التي عملها أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لايعلمون ، فأخذ على بن أبي طالب كرم الله وجهه بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً ، ومسح مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخدرى الدم عن وجه رسول الله صلى عليه وسلم ثم ازدرده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مس دمه دمى لم تصبه النار . قال القرطبي : الرباعية بفتح الراء وتخفيف الباء هي كل سن بعد ثنية . قال النووي : وللأسنان أربع رباعيات . ولم تقلع الرباعية من أصلها بل كسرت فذهب منها فلقة . قاله الحافظ . والشج قال ابن الأثير : في الرأس خاصة في الأصل ، وهو أن يضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقه ، ثم استعمل في غيره من الأعضاء . قال النووي : وفي هذا وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء عليهم السلام ، لينالوا جزيل الأجر والثواب ، ولتعرف أممهم ما أصابهم من أهل الشرك فيتأسوا بهم . قال القاضي : وليعلم أنهم من البشر تصيبهم محن الدنيا ويطرأ على أجسادهم ما يطرأ على أجسام البشر ، ليتيقنوا أنهم مخلوقون مربوبون ، ولا نفتن بما أظهر على أيديهم من المعجزات ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصارى وغيرهم . اه يعنى من الغلو القبيح والعبادة لهم . وليكن المؤمنين الآن أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر على الأذى الحاصل من الموحدين والمارقين ، وليجاهدوهم وليثبتوا ، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . والله أعلم .

وسُهَيْلِ بن عَمْرٍو والحارث بن هِشَامٍ ، فنزلت : (ليس لك مِن الأمرِ شيء) » . وفيه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حينَ أُنْزِلَ عليه (وأنذرْ عَشِيرتَكَ الأَقْرَبِينَ) قال : يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ ، أو كلمةً نحوَها ، اشْتَرُوا أنفُسَكُمْ ، لا أُغْنِي عنكم من الله شيئاً ، يا عباسُ بنَ عبد المطَّلِبِ لا أُغْنِي عنكَ مِن الله شيئاً ، يا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أُغني عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمَةُ بنت محمدٍ سلِيني من مالى ماشئتِ لا أغنِي عنكِ من الله شيئاً »(١) .

---

(١) أمر النبي صلى الله عليه وسلم عشيرته الأقربين أن يشتروا أنفسهم بتوحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له وطاعته فيما أمر والانتهاء عما نهى عنه ، فإن ذلك هو الذى ينجي من عذاب الله ، لا الاعتماد على الأنساب والأحساب ، فان ذلك غير نافع عند رب الأرباب ، وليس بدافع العقاب والعذاب . وبين أنه صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أن ينفعهم بشيء . وهذا أكبر دليل على أنه لا ينجى من عذاب الله إلا الإيمان الخالص الذي هو التوحيد ، والعمل الصالح الذي هو عدم الشرك ، وأنه لا يجوز أن يسأل العبد إلا ما يقدر عليه من أمور الدنيا ، وأما الرحمة والمغفرة والفوز بالجنة والنجاة من النار ونحو ذلك من كل ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يجوز أن يطلب إلا منه سبحانه ، وأن ما عند الله لا ينال إلا بتجريد التوحيد المفيد وإخلاص العمل السديد له ، بما شرعه ورضيه لعباده أن يتقربوا به إليه ، فإذا كان لا ينفع عمه وابنته وعمته وقرابته إلا بذلك، فمن ذا الذي ينفعه مع عدم هذا الإيمان والعمل ، بل غيره أولى بالحرمان عن هذا وأحرى به . وفي هذا أكبر اعتبار وموعظة لمن عقل ذلك وتدبر .

« فيه مسائل » الأولى تفسير الآيتين . الثانية قصه أحد . الثالثة قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يؤمِّنون فى الصلاة . الرابعة أن المدعو عليهم كفار . الخامسة أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الـكفار ، منها شجهم نبيهم وحرصهم على قتله ، ومنها التمثيل بالقتلى مع أنهم بنو عمهم . السادسة أنزل الله عليه فى ذلك (ليس لك من الأمر شىء) . السابعة قوله (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) فتاب عليهم فآمنوا . الثامنة القنوت فى النوازل . التاسعة تسمية المدعو عليهم فى الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم . العاشرة لعن المعيَّن فى القنوت . الحادية عشرة قصته صلى الله عليه وسلم لما أنزل عليه(وأنذر عشيرتك الأقر بين) . الثانية عشرة جده صلى الله عليه وسلم بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون ، وكذلك لو يفعله مسلم الآن . الثالثة عشرة قوله للأ بعد والأقرب: لا أغنى عنك من الله شيئاً ، حتى قال : يا فاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئاً ، فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغنى شيئاً عن سيدة نساء العالمين ، وآمن الإنسان أنه لا يقول إلا الحق . ثم نظر فيما وقع فى قلوب خواص الناس اليوم ، تبين له التوحيد وغر بة الدين .

﴿ باب قول الله تعالى ﴾

(حتَّى إذا فُزِّعَ(١) عن قُلُوبِهِمْ قالوا : ماذا قال ربُّكُمْ .
قالوا : الحقَّ وهو العَلِيُّ الكَبِيرُ) .

وفى الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذَا قضَى اللهُ الأمرَ فى السماءِ ضَرَبَتِ الملائكةُ بأَجْنِحَتِهَا خَضَعَاناً لقوْلِهِ ، كأَنَّ سِلْسِلَةً علي صَفْوَانٍ ، يَنْفُذُهُمْ ذلك ، حتَّى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحقَّ وهو العلِيُّ

---

(١) معنى « فزع » زال الفزع عنهـا ، قاله ابن عباس وابن عمر وعبد الرحمن السلمي والشعبي والحسن وغيرهم . قال ابن جبير : الذي فزع عن قلوبهم الملائكة ، وإنما فزع عنهم غشية تصيبهم عند سماع كلام الله تعالى بالوحي . وقيل الضمير راجع إلى المشركين عند الاحتضار ويوم القيامة ، إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا رجعت إليهم عقولهم يوم القيامة وكشف عنها الغطاء ، قالوا : ماذا قال ربكم؟ قالوا : الحق وهو العلي الكبير . واختار الأول ابن جرير وغيره . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره بعد ما نقل الاحتمالين : « وقد اختار ابن جرير القول الأول ، أن الضمير عائد على الملائكة ، وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار » وذكر طرفاً منها وأورد الحديث الآتي الذي أورده المصنف هنا وعزاه إلى البخاري ، وقال : « انفرد باخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه ، ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجة من حديث سفيان بن عيينة به . والله أعلم » .

الكبيرُ ، فيسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السّمْعِ ، ومُسْتَرِقُ السَّمْعِ هكذا بعضُهُ فوقَ بعضٍ ، وصفَهُ سُفيَانُ بكَفِّهِ فحرّفها وبَدَّدَ بين أصابعه ، فَيَسْمَعُ الكلمةَ فيُلْقيها إلى مَن تحتهُ ، ثم يُلْقِيها الآخرُ إلى مَن تحته ، حتى يُلْقِيَهَا على لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكاهِنِ ، فرُبَّمَا أدركه الشِّهابُ قبل أن يُلْقِيَهَا ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيَكْذِبُ معها مائةَ كِذْبَةٍ ، فيقال : أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا كذا وكَذا ، فيصدق بتلك الكلمة الَّتي سُمِعَتْ من السماء »[1] .

---

(١) قوله في الحديث « إذا قضى » أي إذا تكلم الله في الأمر الذي يوحيه إلى أمين الوحي جبريل عليه السلام بما أراده ، كما صرح بذلك الحديث الذي بعد هذا . وكما في رواية حديث ابن مسعود الذي رواه أبو داود وسعيد بن منصور وابن جرير : « إذا تكلم بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كجر السلسلة على الصفوان » وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : « لما أوحى الجبار إلى محمد صلى الله عليه وسلم دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي ، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي ، فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله ، فقالوا : الحق ، وعلموا أن الله لا يقول إلا حقاً » . وقوله « خضعاناً » هو بفتحتين من الخضوع ، وفي رواية بضم الخاء وسكون الضاد ، ويجوز أيضاً كسر الخاء مع سكون الضاد ، وهو مصدر وصف به ، كأنه بمعنى خاضعين ، وفي رواية « خضعا » بضم الخاء وتشديد الضاد ، وهو جمع « خاضع » كراكع وركع . « والصفوان » الحجر الأملس . وقوله « ينفذهم » بفتح الياء وسكون النون وضم الفاء وبالذال المعجمة ، أي يمضي فيهم ، والإشارة بذلك إلى القول ، والضمير في « ينفذهم » للملائكة ، أي يخلص ذلك القول ويمضي فيهم حتى يفزعوا منه ، وعن ابن مردويه من حديث ابن عباس : « فلا ينزل على أهل السماء إلا صعقوا » أو المراد بمسترق السمع الشياطين ،

وعن النوَّاسِ بن سمعانَ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذا أرادَ الله تعالى أن يُوحىَ بالأمرِ تَكلَّم بالوحى أخذت السموات منه رَجْفَةٌ ، أو قال : رِعْدَة شَدِيدة ، خوفاً من الله عز وجل ، فإِذا سمع ذلك أهلُ السمٰوات صَعِقُوا وخرُّوا لله سُجَّداً ، فيكونُ أَوَّلَ من يرفع رأْسه جبريلُ ، فيكلمه اللهُ من وحيه بما أراد ، ثم يَمُرُّ جبريل على الملائكة ، كلَّما مرّ بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريلُ ؟ فيقول جبريل : قال الحقَّ وهو العلىُّ الكبير ، فيقولون كلهم مِثل ما قال جبريلُ ، فَيَنْتَهى جبريل بالوحى إلى حيثُ أُمَرَهُ اللهُ عز وجل »[1] .

أي هم يسمعون الكلمة التي قضاها الله يركب بعضهم بعضاً ، وصف سفيان بن عيينة ركوب بعضهم فوق بعض بالتحريف والتبديد ، أي التفريق بين الأصابع . والمعنى : يستمع الفوقاني الكلمة فيلقيها إلى آخر تحته وهلم جرا ، إلى أن يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن . و « الشهاب » شعلة نار يرمى بها مسترق السمع . وفي هذا الحديث دليل على إثبات علو الله تعالى على خلقه على ما يليق بعظيم جلاله، وأنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء الكلام ، وكلامه مسموع يسمعه الملائكة . وهذا قول أهل السنة قاطبة خلفاً عن سلف، وكابراً عن كابر ، وأباً عن جد ، خلافاً للجهمية ونفاة المعتزلة ، فإياك أن تلتفت إلى ما زخرفه أهل التعطيل وروجه أهل الأباطيل . والله أعلم .

(١) رواه ابن أبي حاتم . ومعنى « أخذت السموات رجفة » أي ارتجفت . وهو دليل على أنها تسمع كلامه تعالى . وقوله « أوقال رعدة » شك من الراوي ، وهي بكسر الراء . وذكر خوف الله ظاهر في أن السموات تخاف الله بما يجعل الله فيها من الإحساس ومعرفة من خلقها .

« فيه مسائل » : الأولى تفسير الآية . الثانية ما فيها من الحجة على إبطال الشرك ، خصوصاً ما تعلق على الصالحين ، وهى الآية التى قيل إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب . الثالثة تفسير قوله (قالوا الحق وهو العلى الكبير) . الرابعة سبب سؤالهم عن ذلك . الخامسة أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله : قال كذا وكذا . السادسة ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل . السابعة أنه يقول لأهل السموات كلهم ، لأنهم يسألونه . الثامنة أن الغَشْىَ يعم أهل السموات كلهم . التاسعة ارتجاف السموات بكلام الله . العاشرة أن جبريل هو الذى ينتهى بالوحى إلى حيث أمره الله . الحادية عشرة ذكر استراق الشياطين . الثانية عشرة صفة ركوب بعضهم بعضاً . الثالثة عشرة إرسال الشهاب . الرابعة عشرة أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها وتارة يلقيها فى أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه . الخامسة عشرة كون الكاهن يصدق بعض الأحيان . السادسة عشرة كونه يكذب معها مائة كذبة . السابعة عشرة أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التى سمعت من السماء . الثامنة عشرة قبول النفوس للباطل كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة . التاسعة عشرة كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها . العشرون إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة . الحادية والعشرون أن تلك الرجفة والغشى خوفاً من الله عز وجل . الثانية والعشرون أنهم يخرون لله سجداً .

﴿ باب الشفاعة[1] ﴾

وقول الله عزَّ وجل : وأَنذرْ بِهِ الذين يَخَافُون أَنْ يُحْشَرُوا إلى ربِّهِمْ ليس لهم من دُونِهِ وَلِيٌّ ولا شَفِيعٌ[2]) . وقوله :

---

(١) الشفاعة : هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم . يقال : شفع يشفع شفاعة فهو شافع وشفيع، والمشفع ـ بكسر الفاء المشددة ـ الذي يقبل الشفاعة ، والمشفع ـ بفتح الفاء المشددة ـ الذى تقبل شفاعته . قال العلامة ابن القيم : « إن الشفاعة ستة أنواع : الأول الشفاعة الكبرى التى يتأخر عنها أولو العزم من الرسل عليهم السلام حتى تنتهي إليه صلى الله عليه وسلم فيقول : أنا لها ، وذلك حين تهرع الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في الموقف . وهذه شفاعة يختص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يشاركه فيها أحد . الثانى شفاعته لأهل الجنة في دخولها، وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه . الثالث شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار ، فيشفع لهم أن لا يدخلوها . الرابع شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم ، والأحاديث بها متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة وبدعوا من أنكرها وأحاطوا به من كل جانب ونادوا عليه بالضلال . الخامس شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجاتهم ، وهذا مما لم ينازع فيه أحد . السادس شفاعته في بعض الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه ، وهذه خاصة بأبي طالب وحده» . قال في الدين الخالص : قلت : لما كان المشركون في قديم الزمان وحديثه إنما وقعوا في الشرك وابتلوا به لتعلقهم بأذيال الشفاعة كان ذلك هضماً لحق الربوبية ونقصاً لعظمة الألوهية وسوء ظن برب العالمين . والله أعلم .

(٢) معنى الإنذار : الإعلام بأسباب المخافة والتحذير منها . قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى : ليس كل خلقه عاتب إنما عاتب الذين يعقلون وهم المؤمنون باليوم الآخر أصحاب القلوب المتعظة والآذان الواعية .

(قُلْ لِلّٰهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا)[١] وقوله : (مَن ذا الذى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بإِذْنهِ) وقوله : (وكَمْ مِنْ مَلَكٍ فى السَّموات لا تُغْنِى شَفاعَتهُمْ شيئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللّٰهُ لمن يشاء ويرضَى) . وقوله : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذرَّةٍ فى السموات ولا فى الأَرض) الآيتين[٢] .

---

(١) قال الحافظ ابن كثير : « هذا كقوله (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) وقوله: (يومئذ لاتنفع الشفاعة) إلخ ، فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأنداد عند الله ، وهوسبحانه لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها ، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله ، وأنزل بالنهي عنها جميع كتبه » .

(٢) قال العلامة ابن القيم في الكلام على هذه الآية وما قبلها مما ذكر هنا : « قد قطع الله الأسباب التى تعلق بها المشركون جميعاً . فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع ، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع : الملك ، والشركة ، والإعانةوالظهور ، والشفاعة . فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك ، فإن لم يكن شريكا له كان له معيناً وظهيراً ، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده . فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً منتقلا من الأعلى إلى الأدنى ، فنفى الملك والشركة فيه ، والمظاهرة والشفاعة التى يطلبها المشرك ، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها للمشرك ، وهى الشفاعة بإذنه سبحانه . فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً وتجريداً للتوحيد وقطعاً لأصول الشرك وموارده لمن عقلها . والقرآن العظيم مملوء من أمثالها ونظائرها ، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع منهم تحته وتضمنه له ، ويظنونها في نوع وقوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً ، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن . ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم أو فوقهم في الضلالة والبدعة ،

قال أبو العباس : نَفَى اللهُ عمَّا سواهُ كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون لغيره مُلكٌ أو قِسْطٌ منهُ ، أو يكون عوْناً لله ، ولم يَبْقَ إلاَّ الشَّفَاعَةُ ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لا تَنْفعُ إلا لمن أَذن له الرَّبُّ ، كما قال : (ولا يَشْفَعُونَ إلاّ لمنِ ارْتَضَى) . فهذه الشفاعةُ الَّتى يَظُنُّها المشركون هى مُنْتَفِيَةٌ يوم القيامة ، كما نفاها القرآن ، وأخْبَرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنهُ يَأتى فيسجد لربهِ ويَحْمَدُهُ ، لا يَبْدَأُ بالشفاعة أوّلاً ، ثم يقال له : ارْفَعْ رأْسك وقل يُسْمَع وسَلْ تُعْطَ واشْفَعْ تُشَفَّعْ . وقال أبو هريرة له صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَسْعَدُ النَّاس بِشفاعتكَ ؟ قال : مَنْ قال لا إله إلا اللهُ خالصًا مِن قلبهِ » . فتلكَ الشفاعة لأهل الإخلاصِ بِإذن الله ، ولا تكونُ لمن أشْرَكَ بالله .

وحقيقتُه أنَّ اللهَ سبحانه هو الَّذى يَتَفَضَّلُ على أهلِ الإخلاصِ فيغفرُ لهم بواسِطَةِ دُعاء من أَذِنَ له أنْ يَشْفَعَ ، ليُكْرِمَهُ وينالَ المقامَ المحمودَ . فالشفاعةُ التى نفاها القرآن ما كان فيها شِركٌ ، ولهذا

وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك » . قال في الشرح : وهذا الذي ذكره هذا الإمام هو حقيقة دين الإسلام ، كما قال سبحانه : (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبرهيم حنيفاً واتخذ الله إبرهيم خليلا) .

أَثْبَتَ الشفاعةَ بإِذنه فى مواضع ، وقد بين النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنها لا تكونُ إِلاَّ لأهل التوحيد والإِخلاصِ . انتهى كلامه .

« فيه مسائل » : الأولى تفسير الآيات . الثانية صفة الشفاعة المنفية . الثالثة صفة الشفاعة المثبتة . الرابعة ذكر الشفاعة الكبرى ، وهى المقام المحمود . الخامسة صفة ما يفعله صلى الله عليه وسلم : أنه لا يبدأ بالشفاعة بل يسجد ، فإذا أذن له شفع . السادسة مَنْ أسعد الناس بها . السابعة أنها لا تكون لمن أشرك بالله . الثامنة بيان حقيقتها .

﴿ باب قول الله تعالى

(إِنَّكَ لاَ تَهْدِى من أَحْبَبْتَ)[1] الآية .

وفى الصحيح عن ابن المسيَّب عن أبيه قال : « لمَّا حَضَرَتْ أَبا طالبٍ الوفاة جاءهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عبد الله

---

(١) تأتى الهداية بمعنى الدلالة بلطف على طريق النجاة والسعادة . وتأتى بمعنى التوفيق والتأييد ، وهو خلق الهدى في قلب الضال. فمن الأول قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) أي دلنا عليه وأرشدنا إليه (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) . ومن الثاني قوله تعالى : (إنك لا تهدى من أحببت) أي لا تخلق التوفيق والتأييد في قلب من أضله الله . والهداية الأولى عامة ، والثانية خاصة بالله تعالى . وسبب نزول هذه الآية موت أبي طالب على ملة عبد المطلب كما في الحديث الآتي بعد . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : يقول تعالى إنك

بن أَبى أمية وأبو جهلٍ . فقال له : يا عمِّ قل لا إله إلا اللهُ كلمةً أُحاجُّ لك بها عند الله ، فقالا له : أترْغَبُ عن ملة عبد المطّلب ؟ فأعاد عليه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فأعادا ، فكان آخرُ ما قال : هو على ملّة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلاَّ اللهُ ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لأَستَغفِرَنَّ لك مالم أُنْهَ عنكَ ، فأنزل الله عزَّ وجل : (ما كان للنّبيِّ والذين آمَنُوا أَنْ يَستَغفِرُوا للمشركين) ، وأنزَل الله فى أبى طالب : (إنَّك لا تَهْدِى من أحببتَ ، ولكنّ الله يَهْدِى من يَشاء) » .

يا محمد لا تهدى من أحببت ، أي ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ والله يهدى من يشاء وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، كما قال تعالى : (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) . وكانت وفاة أبى طالب بمكة قبل الهجرة بقليل ، وتوفيت خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها بعده بثمانية أيام . ومن حكمة الله تعالى في عدم هداية أبي طالب إلى الإسلام ليبين لعباده أن ذلك إليه وهو القادر عليه دون من سواه ، فلو كان عند النبي صلى الله عليه وسلم ، الذى هو أفضل خلقه ، من هداية القلوب وتفريج الكروب ومغفرة الذنوب والنجاة من العذاب والخلاص من النار ونحو ذلك شيء ، لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به عمه أبو طالب ، الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه ، فسبحان من بهرت حكمته العقول ، وأرشد العباد إلى ما يدلهم على معرفته وتوحيده وإخلاص العمل لله وتجريده ، فليتنبه من يدعي النسب وهو عن الشرع من المعرضين . والله أعلم .

« فيه مسائل » : الأولى تفسير (إنك لاتهدى من أحببت) الآية . الثانية تفسير قوله : (ما كان للنبى) الآية . الثالثة ، وهو المسألة الكبيرة ، تفسير قوله « قل لا إله إلا الله » بخلاف ما عليه من يدعى العلم [(١)] . الرابعة أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبى صلى الله عليه وسلم إذا قال للرجل «قل لا إله إلا الله» فقبَّح اللهُ مَنْ أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام . الخامسة جِـدُّه صلى الله عليه وسلم ومبالغته فى إسلام عمه . السادسة الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه . السابعة كونه صلى الله عليه وسلم استغفر له فلم يغفر له ، بل نهى عن ذلك . الثامنة مضرة أصحاب السوء على الإنسان . التاسعة مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر . العاشرة استدلال الجاهلية بذلك . الحادية عشرة الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم ، لأنه لو قالها لنفعته . الثانية عشرة التأمل فى كبر

---

(١) لأن معنى « قل لا إله إلا الله » أى أخلص التوحيد لله وحده لا شريك له ، لأن أبا طالب كان يعلم بما دلت عليه من نفى الشرك بالله وإخلاص العبادة له وحده ، فإن من قالها بعلم ويقين فقد برىء من الشرك والمشركين ودخل فى الإسلام ولأنهم كانوا يعلمون ما دلت عليه ، وفى ذلك الوقت لم يكن بمكة إلا الإسلام أو الكفر ، فلا يقولها إلا من ترك الشرك وبرىء منه . ولقد جهل كثير من أدعياء العلم معنى « لا إله إلا الله » فيحكمون على كل من تلفظ بها بالإسلام ولو كان مجاهراً بالكفر والإلحاد والزندقة ، كاستحلال ترك الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك ، مما علم حرمته من الدين ضرورة ، ولاسيما في هذا العصر الذي قل فيه الموحدون حقيقة ، وكثر فيه أهل البدع والإلحاد ، ويمرقون من الدين أفواجاً أفواجاً ، كما كانوا يدخلون فيه أفواجاً أفواجاً ، فنسأل الله تأييد الطائفة الباقية المتمسكة بدينها الخالي من البدع والخرافات ، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير .

هذه الشبهة فى قلوب الضالين ، لأن فى القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها ، مع مبالغته صلى الله عليه وسلم وتكريره ، فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصروا عليها .

﴿ باب ما جاء أنَّ سَبَبَ كُفْرِ بنى آدم وتركِهم دينَهم هو الغلوُّ فى الصالحينَ ﴾

وقول الله عزّ وجل (يا أَهْلَ الكتابِ لا تَغْلُوا فى دِينِكم) . [١]

وفى الصحيح عن ابن عباسٍ رضى الله عنهما فى قول الله تعالى (وقالوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكمْ ولا تَذَرُنَّ وَدًّا ولا سُوَاعًا ولا يَغُوثَ

---

(١) الغلوّ : هو التجاوز في الحد ، ومنه غلا السعر يغلو غلاء ، نهى الله أهل الكتاب عن الغلو والاطراء ، وهذا كثير من النصارى ، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التى أعطاه الله إياها ، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله ، يعبدونه كما يعبدونه ، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه ، فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه ، سواء أكان حقاً أم باطلا أم ضلالا أم رشاداً أم صحيحاً أم كذباً ، ولهذا قال تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) الآية ، والمراد بالآية النهي لهم عن الإفراط تارة والتفريط أخرى ، فمن الإفراط غلو النصارى في عيسى عليه السلام حتى جعلوه رباً ، ومن التفريط غلو اليهود فيه عليه السلام حتى جعلوه لغير رشدة ، وما أحسن قول الشاعر :

ولا تغل فى شيء من الأمر واقتصد　　　كلا طرفي قصد الأمور ذميم

مِنهم القِرَدَةَ والخنازيرَ وعَبَدَ الطّاغُوتَ)[١] وقوله : (قال الّذِينَ غَلَبُوا على أمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنّ عليهم مَسْجِدًا)[٢] .

---

(١) قال الحافظ ابن كثير : أي هل أخبركم بشر من ذلك مثوبة عند الله ، أى هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا وهم وأنتم الذين تتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله : من لعنه أى أبعده من رحمته ، وغضب عليه أى غضباً لا يرضى بعده أبداً ، وجعل منهم القردة والخنازير . وعن ابن مسعود قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير : أهى مما مسخ الله ؟ فقال : إن الله لم يهلك قوماً ، أو قال : لم يمسخ قوماً فيجعل لهم نسلا ولا عقباً ، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك » رواه مسلم . وهذه الآية جواب لقولهم لم نر أهل دين أقل حظاً فى الدنيا والآخرة منكم ولادينا شراً من دينكم . والقردة أصحاب السبت ، والخنازير كفار مائدة عيسى . وقد روى عن ابن عباس أن الذين مسخوا كلاهما من أصحاب السبت ، فشبانهم مسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير . وقوله «وعبد الطاغوت» أي وجعل منهم من عبد الطاغوت ، أى أطاع الشيطان فيما سول له . وقد ورد فيه قراءات كثيرة يرجع معناها إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله تعالى وإفراده با لعبادةدون ما سواه ، كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر ؟ ولهذا قال في آخر الآية : (أولئك شر مكاناً) أي مما تظنون بنا (وأضل عن سواء السبيل) . وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة ، كقوله عز وجل : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا) والله أعلم .

(٢) قوله (الذين غلبوا على أمرهم) الذي قال ذلك أصحاب الكلمة والنفوذ في زمن أصحاب الكهف ، أي قالوا نتخذ على أصحاب الكهف مسجداً ليعرفوا فتقصدهم الناس ويتبركوا بهم ، كما يفعله غالب جهال المسلمين الآن وبعض خواصهم ، وهذا على جهة الذم لهم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، يحذر ما فعلوا » وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق أمر أن يخفى عن الناس وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده فيها شيء من الملاحم وغيرها . والله أعلم .

عن أبي سعيد رضى الله عنه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كان قَبْلَكُمْ حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذّةِ ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدَخَلْتُمُوهُ ، قالوا : يا رسول الله اليهودَ والنصارى ؟ قال : فمن »[١] أخرجاهُ . ولمسلم عن ثَوْبانَ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله زَوَىٰ لِىَ الأَرضَ فرأيتُ مَشَارِقها ومغارِبها ، وإنّ أمّتى سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا ما زُوِىَ لِى منها ، وأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ الأَحمرَ والأَبْيضَ ، وإنِّى سَألتُ ربى

---

(١) قوله « لتتبعن سنن » بفتح السين المهملة ، أى طريق من كان قبلكم . وقوله « حذو القذة بالقذة » بنصب « حذو » على المصدر ، و « القذة » بضم القاف ، واحدة القذاذ ، وهو ريش السهم ، أى لتتبعن طريقهم فى كل ما فعلوه وتشبهوهم في ذلك كما تشبه قذة السهم القذة الأخرى . فوقع كما أخبر صلى الله عليه وسلم ، وهو علم من أعلام النبوة . وقوله : « حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » وفى حديث آخر : « حتى لو كان فيهم من يأتى أمه علانية لكان من أمتى من يفعل ذلك » . أراد صلى الله عليه وسلم أن أمته لا تدع شيئاً مما كان يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كله لا تترك منه شيئاً ، ولهذا قال ابن عيينة : من فسدمن علمائنا ففيه شبه اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى . وقوله « قال فمن » استفهام تقرير ، أى فمن هم غير أولئك . ولا يخفى على العاقل أنه لو تتبع أفعال الناس الذين يدعون مسلمين الآن لرأى غالبهم ليسوا على شىء من صفات المسلمين ، لا فى المأكل والمشرب والملبس ، ولا في العبادات ، بل عبادتهم مشوبة بأشياء من أعمال المجوس والمشركين ، وعوائدهم تشبه عوائد اليهود والنصارى ، ولا واعظ ولا زاجر يمنعهم من ذلك ويحذرهم عاقبته . نسأل الله صلاح الأمة وصلاح قادتها من أمراء وعلماء وأئمة ، وإلا فعلى الإسلام والمسلمين السلام .

لأُمَّتى أن لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعامَّةٍ وأن لا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا من سِوى أَنفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ ، وإنّ رَبِّي قال : يا محمدُ ، إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُرَدُّ ، وإنى أعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَن لا اهْلِكَهُم بِسَنَةٍ بِعامَّةٍ ، وأن لا أُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا مِن سِوَى أنفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ ولوِ اجتمعَ عليهم مَنْ بأَقطارِها حتى يكونَ بعضُهم يُهْلِكُ بعضًا ويَسْبِي بعضُهم بعضاً » . ورواهُ البُرْقانِيُّ(١) فى صحيحه ، وزاد :

---

(١) قوله « زوى لى الأرض » أي جمع ، يقال « زويت الشيء » جمعته وقبضته ، يريد تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب ، بأن طويت له الأرض وجعلت مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظره ، فأبصر ما تملكه أمته من أقصى مشارق الأرض ومغاربها . وقوله « وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لى » قال القرطبي : هذا الخبر وجد مخبره كما قال صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك من دلائل نبوته ، وذلك أن ملك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طنجة الذي هو منتهى عمارة المغرب ، إلى أقصى المشرق مما وراء خراسان والنهر وكثير من بلاد السند والهند والصغد ، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال ، ولذلك لم يذكر عليه السلام أنه أريه ولا أخبر أن ملك أمته يبلغه . قوله « وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض » قال القرطبي : يعنى به كنز كسرى وهو ملك الفرس ، وكنز قيصر وهو ملك الروم ، وقصورهما وبلادهما . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله » وعبر بالأحمر عن كنز قيصر ، لأن الغالب عندهم كان الذهب ، وبالأبيض عن كنز كسرى ، لأن الغالب عنده كان الجوهر والفضة ، ووجد ذلك في خلافة عمر ، فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته وما كان في بيوت أمواله وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها ، وكذلك فعل الله بقيصر . وقوله : « وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة » هكذا ثبت في أصل المصنف رحمه الله « بعامة » بالباء كما قاله صاحب فتح المجيد ، وهي رواية صحيحة

« وإنَّما أخافُ على أمّتي الأئمّةَ المُضِلِّين ، وإذا وقعَ عليهم السيفُ لم يُرْفَعْ إلى يوم القيامة ، ولا تقومُ الساعةُ حتى يَلْحَقَ حيٌّ مِن أُمَّتي

فى صحيح مسلم ، وفي بعضها بحذفها . قال القرطبي : وكأنها زيادة ، لأن « عامة » صفة السنة ، والسنة : الجدب الذى يكون به الهلاك العام ، ويسمى الجدب والقحط سنة ، ويجمع على سنين ، كما قال تعالى : (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) أي الجدب المتوالي. وقوله : « من سوى أنفسهم » أي من غيرهم من الكفار من هلاك بعضهم بعضاً وسبى بعضهم بعضاً ، وقد حصل ذلك ، ومن أراد تفاصيل ماوقع فعليه بكتب التاريخ ، ففيها التفصيل والبيان . نسأل الله السلامة والتوفيق . وقوله « فيستبيح بيضتهم » قال الجوهري : بيضة كل شيء حوزته ، وبيضة القوم ساحتهم . وعلى هذا فيكون معنى الحديث أن الله لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه في البلاد والأرض ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض وهى جوانبها . وقوله « حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً » الظاهر أن «حتى» عاطفة أو تكون لانتهاء الغاية ، أي أن أمر الأئمة ينتهي إلى أن يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً . وقد سلط الله بعضهم على بعض كما هو حاصل وواقع الآن لكثرة اختلافهم وتفرقهم وحبهم المناصب والرياسة وجمعهم المال وعدم الرجوع إلى الأمر البين من الدين ، نسأل الله السلامة. وقوله « وإن ربى قال : يامحمد إذا قضيت قضاء فإنه لايرد » يعى إذا حكمت حكماً مبرماً نافذاً فانه لايرد بشيء ولايقدر أحد على رده ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « ولا راد لما قضيت » والله أعلم .

والبرقاني هو الامام الحافظ الكبير أبو بكر أحمد بن محمد بن غالب الخوارزمى ، ولد سنة ست وثلاثين وثلثمائة ، وتوفى سنة خمس وعشرين وأربعمائة . قال الخطيب : كان ثبتاً ورعاً لم نر في شيوخنا أثبت منه ، عارفاً بالفقة كثير التصانيف ، صنف مسنداً ضمنه ما اشتمل عليه الصحيحان ، وجمع حديث الثوري وحديث شعبة وطائفة . وهذا الحديث رواه أبو داود بتمامه بسنده إلى أبي قلابة .

بالمشركين ، وحتى تَعْبُدَ فِئامٌ من أُمَّتى الأوْثانَ ، وإنهُ سيكونُ فى أُمَّتِي كَذَّابونَ ثلاثونَ ، كلُّهم يَزْعُمُ أنهُ نبيٌّ ، وأنا خاتَمُ النَّبيِّينَ لا نبيَّ بعدى ، ولا تزال طائفةٌ من أُمَّتى على الحقِّ مَنْصُورَةً لا يَضُرُّهم مَنْ خَذَلَهُمْ حتى يأتىَ أمرُ الله تبارك وتعالى »[1] .

---

(١) قوله « وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين » أراد — والله أعلم — الأمراء والعلماء والعباد ، فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم ، كما قال تعالى : (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) ، وكان بعض هؤلاء يقول لأصحابه : من كان له حاجة فليأت إلى قبري فانى أقضيها له ، ولا خير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب ، ونحو هذا ، وهذا هو الضلال البعيد ، يدعو أصحابه إلى أن يعبدوه من دون الله ويسألوه ما لا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم وتفريج كرباتهم ، وقد قال تعالى : (يدعو من دون الله مالا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد ، يدعو لمن ضره أكبر من نفعه) الآية . قال فى فتح المجيد : ومن هذا الضرب من يدعى أنه يصل مع الله إلى حال تسقط عنه التكاليف ، ويدعى أن الأولياء يدعون ويستغاث بهم فى حياتهم ومماتهم ، وأنهم ينفعون ويضرون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة ، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ ويعلم أسرار الناس وما فى ضمائرهم ، ويجوز بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين وإيقادها بالسرج ، ونحو ذلك من الغلو والإفراط والعبادة لغير الله اهـ ، وقوله « وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة » وقد وقع ذلك ، فإن السيف لما وقع بقتل عثمان رضي الله عنه وأرضاه لم يرفع ، وكذلك يقوم إلى يوم القيامة ، لكن قد يكثر تارة ويقل أخرى ، ويكون في جهة ويرتفع عن أخرى . وقوله « ولا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمتي بالمشركين » الحىّ واحد الأحياء وهي القبائل ، وفى رواية أبي داود « حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين » والمعنى أنهم يكونون معهم ويرتدون برغبتهم عن أهل الاسلام ويلحقون بأهل الشرك ، وقوله : « حتى تعبد فئام » إلخ ، الفئام : هم الجماعات الكثيرة ، قاله صاحب النهاية ، وسيفسره المصنف بعد . وفي رواية أبي داود

« فيه مسائل » : الأولى تفسير آية النساء . الثانية تفسير آية المائدة(١) . الثالثة تفسير آية الكهف(٢) . الرابعة ، وهى أهمها ، ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت ، هل هو اعتقاد قلب ، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها . الخامسة قولهم إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين . السادسة ، وهى المقصود بالترجمة ، أن هذا لا بد أن يوجد فى هذه الأمة ، كما تقرر فى حديث أبى سعيد . السابعة التصريح بوقوعها ، أعنى عبادة الأوثان ، فى هذه الأمة فى جموع كثيرة . الثامنة العجب العجاب، خروج من يدعى النبوة مثل المختار(٣) ، مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه

« حتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان » . وتقدم لك فيما سبق أن الوثن يطلق على كل ما يتخذ قربة من دون الله . غلب الشرك على أكثر النفوس ، لظهور الجهل وخفاء العلم ، حتى صار المعروف منكراً والمنكر معروفاً والسنة بدعة والبدعة سنة ، وطمست الأعلام ، واشتدت غربة الإسلام ، وقل العلماء وغلب السفهاء ، وتفاقم الأمر واشتد البأس ، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ولكن لا تزال طائفة من الأمة المحمدية قائمة بالحق لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله . والله أعلم .

(١) آية النساء هي قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) وآية المائدة هى قوله تعالى (قل : هل أنبئكم) إلخ .

(٢) هي قوله تعالى (قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً) .

(٣) هو ابن أبى عبيد الثقفي ، خرج وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير ، وأظهر محبة أهل البيت ، ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين فتتبعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك وأعان عليه ، فأحبه الناس ، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل عليه السلام يأتيه . وقد ادعى النبوة غيره أيضاً من الرجال والنساء ، فممن ادعى ذلك في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام ، مسيلمة الكذاب ، فإنه ادعى النبوة باليمامة ، والأسود العنسى باليمن ، وفي زمن خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه طليحة بن خويلد في بنى أسد بن خزيمة

بأنه من هذه الأمة وأن الرسول حق وأن القرآن حق ، وفيـه أن محمداً خاتم النبيين ، ومع هذا يُصَدِّق فى هذا كله مع التضادّ الواضح ، وقد خرج المختار فى آخر عصر الصحابة وتبعه فئام كثيرة . التاسعة البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى ، بل لا تزال عليه طائفة . العاشرة ، الآية العظمى ، أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم . الحادية عشرة أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة . الثانية عشرة ما فيهن من الآيات العظيمة ، منهـا إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب ، وأخبر بمعنى ذلك ، فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال و إخباره بأنه أعطى الكنزين ، و إخباره بإجابة دعوته لأمته فى الاثنتين ، و إخباره بأنه منع الثالثة ، و إخباره بوقوع السيف وأنه لا يرفع إذا وقع ، و إخباره بظهور المتنبئين فى هذه الأمة ، و إخباره ببقاء الطائفة المنصورة . وكل هذا وقع كما أخبر ، مع أن كل واحد منها من أبعد ما يكون فى العقول . الثالثة عشرة حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين . الرابعة عشرة التنبيه على معنى عبادة الأوثان .

وسجاح في بني تميم ، وقتل الأسود قبل أن يتوفى النبي صلي الله عليه وسلم ، ومسيلمة فى خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، قتله وحشى قاتل حمزة يوم أُحد ، وشاركه فى قتله يوم اليمامة رجل من الأنصار ، وتاب طليحة ومات على الإسلام في زمن عمر رضي الله عنه ، ونقل أن سجاح تابت أيضاً . وممن ادعى النبوة أيضاً الحرث الـكذاب ، خرج فى خلافة عبد الملك بن مروان فقتل ، وخرج فى خلافة بنى العباس جماعة أيضاً ، وقد أهلك الله تعالى من وقع له منهم ذلك . والله أعلم .

﴿ باب ما جاء في السِّحْرِ ﴾(١)

وقول الله تعالى : (ولقد عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ ما لَهُ في الآخرةِ مِن خَلَاقٍ)(٢) . وقوله : (يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ والطَّاغُوتِ) .

---

(١) السحر في اللغة عبارة عما خفي ولطف سببه ، كما قاله ابن كثير . ولهذا جاء في الحديث « إن من البيان لسحراً » وسمى السحر سحراً لأنه يقع خفياً آخر الليل . قال أبو محمد المقدسي في الكافي : السحر عزائم ورقى وعقد تؤثر في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه . قال الله تعالى : (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) . وقال سبحانه : (ومن شر النفاثات في العقد) يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن ، ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر بالاستعاذة منه . وقد روى البخاري بسنده عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « إن النبي صلى الله عليه وسلم سحر حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله ، وأنه قال لها ذات يوم : أتاني ملكان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي ، فقال : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب ، قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم في مشط ومشاطة في جف طلعة ذكر في بئر ذروان » .

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : أي ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لمن فعل فعلهم ذلك أنه ماله في الآخرة من خلاق . قال ابن عباس ومجاهد والسدي : من نصيب . وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : ما له في الآخرة من جهة عند الله . وقال عبد الرزاق : وقال الحسن : ليس له دين . وقال سعيد عن قتادة : (ما له في الآخرة من خلاق) قال : ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة اهـ . وقد نقل عن ابن هبيرة من كتابه الإشراف على مذاهب الأشراف أقوال العلماء في حقيقة السحر وحكم الساحر وتعلم السحر فقال : أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة فانه لا حقيقة له عنده ، واختلفوا فيمن يتعلم السحر

قال عُمَرُ : الجِبْتُ السِّحْرُ ، والطّاغُوتُ الشيطانُ[1] . وقال جابرٌ : الطّواغِيتُ كُهانٌ كان يَنزِلُ عليهم الشيطانُ في كُلِّ حَيٍّ واحدٌ .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الموبِقاتِ ، قالوا : يا رسول الله وما هُنَّ ؟

ويستعمله، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد : يكفر بذلك ، ومن أصحاب أبي حنيفة من قال : إن تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر ، ومن تعلمه معتقداً جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر . وقال الشافعي رحمه الله : إذا تعلم السحر قلنا له : صف لنا سحرك ، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر ، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر . قال ابن هبيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ، فقال مالك وأحمد : نعم ، وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا ، فأما إن قتل بسحره إنساناً فإنه يقتل عند مالك والشافعي وأحمد ، وقال أبو حنيفة : لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك أو يقر بذلك في حق شخص معين ، وإذا قتل فانه يقتل حداً عندهم ، إلا الشافعي فإنه قال : يقتل قصاصاً . وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهم : لا تقبل ، وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى : تقبل . وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبي حنيفة أنه يقتل كما يقتل الساحر المسلم . وقال مالك وأحمد والشافعي : لا يقتل ، يعني لقصة لبيد بن الأعصم . واختلفوا في المسلمة الساحرة ، فمند أبي حنيفة أنها لاتقتل ولكن تحبس ، وقال الثلاثة : حكمها حكم الرجل ، والله أعلم .

﴿ فائدة ﴾ أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم المعوذتان ، وفي الحديث « لم يتعوذ المتعوذ بمثلهما » ، وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان .

(١) قد تقدم الكلام على الجبت والطاغوت في صفحة ٦٤ فارجع إليه .

قال : الشركُ بِاللهِ ، والسِّحْرُ ، وقتلُ النَّفْسِ الّتى حَرَّمَ اللهُ إلّا بِالحقّ ، وأكلُ الرِّبا ، وأكلُ مالِ اليتيم ، والتَّوَلِّي يومَ الزَّحْفِ ، وقَذْفُ المُحْصَناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ »(١) .

---

(١) هذا الحديث ذكره المصنف هكذا بدون عزو إلى كتاب ، وهو في الصحيحين . ورواه أيضاً أبو داود والنسائي . وهاك شرح ألفاظه : قوله « اجتنبوا » ، أى أبعدوا ، من الاجتناب وهو أبلغ من قوله دعوا واتركوا ، لأن النهى عن القربان أبلغ من النهى عن المباشرة ، لقوله تعالى : (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) . وقوله « الموبقات » بموحدة وقاف ، أى المهلكات ، جمع موبقة ، وسميت كذلك لأنها تهلك فاعلها فى الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات ، وفي الآخرة من العذاب . وقوله « الشرك بالله » أى أحدها الشرك بالله ، والشرك جعل أحد شريكا لآخر ، والمراد هنا اتخاذ إله غير الله . وقوله « والسحر » أي الثاني السحر ، وهو في اللغة صرف الشىء عن وجهه ، وقد تقدم الكلام عليه مستوفى قريباً . وقوله « وقتل النفس » أى الثالث من فعل الموبقات قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق بأن تفعل ما يوجب قتلها كالشرك والنفس بالنفس والزاني بعد الإحصان ، والمحرمة نفس المسلم المعصوم والمعاهد ، كما ورد فى الحديث : « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة » . واختلف العلماء فيمن قتل مؤمناً متعمداً هل له توبة أم لا ؟ فذهب ابن عباس وأبو هريرة وغيرهما إلى أنه لا توبة له ، استدلالا بقوله تعالى : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها) نزلت هذه الآية وهي آخر ما نزل وما نسخها شىء . وفي رواية : لقد نزلت فى آخر ما نزل ، ما نسخها شىء حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وما نزل وحى . ويشهد له ما رواه النسائي وأحمد عن معاوية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً » . وذهب جمهور الأئمة خلفاً عن سلف إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله تعالى ، فإن تاب وأناب

وعن جُنْدَبٍ مرفوعًا : (حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بالسَّيْفِ)[1] رواهُ الترمذى . وقال : الصَّحيحُ أنه موقوف . وفى صحيح البخارِى عن بَجَالَةَ بن عَبَدَةَ قال : كَتَبَ عمر بن الخطاب أنِ اقْتُلُوا كلَّ ساحرٍ

وعمل صالحاً بدل الله سيئاته حسنات ، كما قال تعالى : (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً، إلا من تاب وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) . وقوله « وأكل الربا » أى الرابع أكل الربا ، وهو فضل مال بلا عوض ، وهو يشمل جميع أنواعه ، قال تعالى : (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) الآيات . قال العلامة ابن دقيق العيد : وهو مجرب لسوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك . وقوله « وأكل مال اليتيم » أي الخامس أكل مال اليتيم ، وهو من مات أبوه قبل أن يبلغ ، وفي البهائم : من ماتت أمه ، والمراد التعدي فيه وعبر بالأكل لأنه أعم وجوه الانتفاع ، كما قال تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً) الآية . وقوله « والتولى يوم الزحف » أي السادس الفرار والإدبار عن الكفار وقت التحام القتال ، ويكون كبيرة إذا فر إلى غير فئة أو غير متحرف لقتال ، كما قيد به في الآية . وقوله « وقذف المحصنات الغافلات » أى السابع قذف المحصنات ، القذف في الأصل : الرمى البعيد ، استعير للشتم والعيب والبهتان، والمحصنات جمع محصنة ، بفتح الصاد اسم مفعول ، أى التي أحصنها الله تعالى وحفظها من الزنا . وبكسر الصاد اسم فاعل ، أي التى حفظت فرجها من الزنا ، والمراد بهن الحرائر العفيفات ، والمراد رميهن بزنا أو لواط . وقوله «المؤمنات» احترز به عن الكافرات ، فان قذفهن ليس من الكبائر ، وإن كانت ذمية فقذفها من الصغائر لا يوجب الحد ، وفي قذف الأمة المسلمة التعزير دون الحد ، والله أعلم .

(١) قوله « ضربة » روى بالهاء وبالتاء . وكلاهما صحيح .

وساحرةٍ ، قال : فَقتلنا ثلاثَ سَوَاحِرَ[١] . وصحَّ عن حفْصَةَ رضي الله عنها أنها أَمَرَتْ بقتل جارية لها سَحَرَتْها ، فَقُتِلَتْ[٢] . وكذلك صح عن جُنْدَبٍ . قال أحمد : عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم[٣] .

فيه مسائل : الأولى تفسير آية البقرة . الثانية تفسير آية النساء . الثالثة تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما . الرابعة أن الطاغوت قد يكون من الجن وقد يكون من الإنس . الخامسة معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهى . السادسة أن الساحر يكفر . السابعة أنه يقتل ولا يستتاب . الثامنة وجود هذا فى المسلمين على عهد عمر فكيف بعده .

---

(١) هذا الأثر رواه البخاري في صحيحه كما قال المصنف رحمه الله تعالى ، لكن لم يذكر قتل السواحر. وظاهر الحديث أنه يقتل من غير استتابة ، وهو كذلك على المشهور عن أحمد ، وبه قال مالك ، لأن علم السحر لا يزول بالتوبة . وعن أحمد : يستتاب فان تاب قبلت توبته ، وبه قال الشافعى ، لأن ذنبه لا يزيد عن الشرك ، والمشرك يستتاب وتقبل توبته ، ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم . والله أعلم .

(٢) هذا الأثر رواه مالك في الموطأ في « باب ما جاء في الغيلة والسحر » وقال بعد ذكره : « الساحر الذي يعمل السحر ولم يعمل ذلك له غيره : هو مثل الذي قال الله تبارك وتعالى في كتابه : (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق) فأرى أن يقتل ذلك إذا عمل ذلك هو نفسه » . وحفصة رضي الله عنها هى أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خنيس بن حذافة ، ماتت سنة خمس وأربعين . والله أعلم .

(٣) وهم : عمر ، وحفصة ، وجندب .

﴿ باب بيان شيء من أنواعِ السحر ﴾[1]

قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفرٍ ، حدثنا عَوْف ، عن حَيَّانَ بن العَلاءِ ، حدثنا قَطَنُ بنُ قَبِيصَةَ ، عن أبيهِ أنه سمع النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ العِيافَةَ والطَّرْقَ والطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ »[2] .

---

(١) للسحر أنواع كثيرة ، أعظمها الأحوال الشيطانيــة التي غرت كثيراً من العوام والجهال ، فاغتربها كثير من الناس ، وظنوا أنها تدل على ولاية من جرت على يده ويعدونها كرامة . وللامام ابن تيمية كتاب سماه « الفرقان بين أوليـاء الرحمن وأولياء الشيطان » حقق فيه صفات كل منهما ، واستدل لذلك بآيات قرآنية وأحاديث نبوية .

(٢) العيافة ، بكسر العين : زجر الطير والتفاؤل والاعتبار في ذلك بأسمائها ، كما يتفاءل بالعقاب على العقاب ، وبالغراب على الغربة ، وبالهدهد على الهدى . والفرق بينها وبين الطيرة أن الطيرة هي التشاؤم بها ، وقد تستعمل في التشاؤم بغير الطير من حيوان وغيره . كذا في المرقاة على المشكاة . وقال ابن الأثير في النهاية : « العيافة زجر الطير ، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها ، وهو من عادة العرب كثيراً ، وهو كثير في أشعارهم ، يقال عاف يعيف عيفاً إذا زجر وحدس وظن ، وبنو أسد يذكرون بالعيافة ويوصفون بها ، قيل عنهم إن قوماً من الجن تذاكروا عيافتهم ، فأتوهم فقالوا : ضلت لنا ناقة فلو أرسلتم معنا من يعيف ؟ فقالوا لغليم منهم : انطلق معهم ، فاستردفه أحدهم ، ثم ساروا ، فلقيهم عقاب كاسرة إحدى جناحيها ، فاقشعر الغلام وبكى ، فقالوا : مالك ؟ فقال : كسرت جناحاً ، ورفعت جناحاً ، وحلفت بالله صراحاً ، ما أنت بإنسي ولا تبغي لقاحاً » .

وعوف هذا ، هو ابن أبي جميلة البصري المعروف بعوف الأعرابي ، توفي سنة ست أو سبع وأربعين وله ست وثمانون سنة . والطرق ، بفتح الطاء وسكون الراء ، هو

قال عوفٌ : العِيافَةُ : زَجْرُ الطَّيْرِ ، والطَّرْقُ : الخطُّ يُخَطُّ بالأرض ، والجبتُ : قال الحسنُ : رَنَّةُ الشيطان . إسناده جيد . ولأبى داود والنسائى وابن حِبَّانَ فى صحيحه المُسْنَدَ منه(١) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً من النجوم فقد اقْتَبَسَ شُعْبَةً من

ما فسره به عوف . وقال ابن الأثير : « الطرق الضرب بالحصى الذى يفعله النساء ، وقيل هو الخط في الرمل » . واقتصر العلامة الزمخشرى في الفائق على الأول ، ونقل ابن الأثير تفسير الخط عن ابن عباس قال : « قال ابن عباس : الخط هو الذى يخطه الحازي ، وهو علم قد تركه الناس ، يأتى صاحب الحاجة إلى الحازى فيعطيه حلواناً، فيقول له : اقعد حتى أخط لك ، وبين يدي الحازي غلام له معه ميل ، ثم يأتي إلى أرض رخوة فيخط فيها خطوطاً كثيرة بالعجلة ، لئلا يلحقها العدد ، ثم يرجع فيمحو منها على مهل خطين خطين ، وغلامه يقول للتفاؤل : ابن عيان أسرعا البيان ! فإن بقي خطان فهما علامة النجح ، وإن خط واحد فهو علامة الخيبة » . أقول : وهو ما يسمى فى زماننا بخط الرمل ، وهو معروف شائع فى هذا العصر ، يتعيش به كثير من الدجالين وأصحاب الحيل المتكهنين ، يوهمون الرعاع الجهلة أنهم يطلعون على المغيبات ، وهو فى الحقيقة خداع ومكر وحيل ما أنزل الله بها من سلطان ، نسأل الله السلامة من ذلك . والطيرة سيأتى الكلام عليها في بابها إن شاء الله تعالى ، والجبت تقدم الكلام عليه . وقوله « قال الحسن رنة الشيطان » جاء في تفسير بقى بن مخلد : أن إبليس رن أربع رنات : رنة حين لعن ، ورنة حين أهبط ، ورنة حين ولد رسول الله صلي الله عليه وسلم ، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب . وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن جبير قال : لما لعن الله تعالى إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة ورن رنة ، فكل رنة منها فى الدنيا إلى يوم القيامة . والرنة الصوت . والله أعلم .

(١) يعنى أنهم رووا من هذا الخبر القسم المرفوع منه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقط.

السِّحْرِ ، زادَ ما زادَ » رواه أبو داود ، وإسناده صحيح[(١)] . وللنسائي من حديث أبي هريرة : (مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثم نَفَثَ فيها فقد سَحَرَ ، ومن سَحَرَ فقد أشرك ، ومن تَعَلَّقَ شيئاً وُكِلَ إليه)[(٢)]

---

(١) قال الحافظ المنذري : وأخرجه ابن ماجة ، ورواه أيضاً الإمام أحمد في مسنده . وقوله « من اقتبس » أي أخذ وحصل وتعلم . وقوله « علماً من النجوم » أي من علومها أو مسألة من علمها . وقوله « شعبة » أي طائفة وقطعة من علم النجوم ، ومنه الحديث « الحياء شعبة من الإيمان » أي جزء منه . وقوله « فقد اقتبس شعبة من السحر » أي المحرم تعلمه ، وقوله « زاد ما زاد » أي كلما زاد من تعلم علم النجوم زاد في الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس من شعبه . قال الخطابي : « علم النجوم المنهي عنه هو ما يدل عليه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع ، كمجيء الأمطار وتغير الأسعار ، وأما ما يعلم به أوقات الصلاة وجهة القبلة فغير داخل فيما نهي عنه » .

وفي شرح السنة : « المنهي عنه من علوم النجوم ما يدعيه أهلها من معرفة الحوادث التي لم تقع وربما تقع في مستقبل الزمان ، مثل إخبارهم بوقت هبوب الرياح ومجيء ماء المطر ووقوع الثلج وظهور الحر والبرد وتغيير الأسعار ونحوها ، ويزعمون أنهم يستدركون معرفتها بسير الكواكب واجتماعها وافتراقها ، وهذا علم استأثر الله به لا يعلمه أحد غيره ، كما قال تعالى : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) فأما ما يدرك بطريق المشاهدة ، من علم النجوم الذي يعرف به الزوال وجهة القبلة ، فإنه غير داخل فيما نهي عنه ، قال الله تعالى : (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهدوا بها في ظلمات البر والبحر) وقال تعالى : (وبالنجم هم يهتدون) فأخبر الله تعالى أن النجوم طرق لمعرفة الأوقات والمسالك ، ولولاها لم يهتد الناس إلى استقبال الكعبة . وقد روي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال : « تعلموا من النجوم ما تعرفون به القبلة والطريق ثم أمسكوا » . والله أعلم .

(٢) الحديث رواه النسائي عن أبي هريرة مرفوعاً ، ورواه أيضاً ابن مردويه . وقوله « عقد عقدة ثم نفث فيها » . العقدة جمعها عقد ، وهي ما تعقده الساحرة ، ويقال لها عزيمة

وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

أيضاً كما قاله الراغب . وبيان ذلك أن السحرة إذا أرادوا السحر عقدوا الخيوط ونفثوا على كل عقدة حتى ينعقد ما يريدون من السحر. والنفث هو النفخ مع الريق ، وهو دون التفل، قال العلامة ابن القيم في كتابه بدائع الفوائد في تفسير المعوذتين: « فصل : الشر الثالث ، شر النفاثات في العقد ، وهذا الشر هو شر السحر ، فإن النفاثات في العقد هن السواحر اللاتى يعقدن الخيوط وينفثن على كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر ، والنفث هو النفخ مع ريق وهو دون التفل ، وهو مرتبة بينهما ، والنفث فعل الساحر ، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ في تلك العقد نفخاً معه ريق ، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى ، مقترن بالريق الممازج لذلك وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور ، فيقع فيه السحر بإذن الله الكونى القدرى لا الأمر الشرعى » .

وحمل النفاثات في الآية على من يسعى بالغيبة والنميمة بعيد . وقد ثبت في الصحيح عن أبى سعيد الخدرى : « أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد اشتكيت ؟ فقال: نعم ، فقال : بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس أو عين حاسد ، الله يشفيك ، بسم الله أرقيك » ، وقوله « ومن سحر فقد أشرك » يدل على أن الساحر مشرك ، وقد حكى الحافظ عن بعض العلماء أن السحر لا يتأتى إلا مع الشرك . وقوله « ومن تعلق شيئاً وكل إليه » أى من تعلق قلبه شيئاً حيث يعتمد عليه ويرجوه وكله الله إلى ذلك الشىء ، فمن تعلق قلبه بربه وخالقه ومولاه وسيده كفاه ووقاه ، وحفظه من كل شىء يضره ويؤذيه ، وتولاه تعالى بنفسه ، وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير . قال الله تعالى: (أليس الله بكاف عبده) . ومن تعلق قلبه بشىء من المخلوقين وكله الله تبارك وتعالى إلى من تعلق به ، ولا يشك أحد من العباد فى أن من وكل إلى غير الله هلك وخسر وضل ضلالا بعيداً. فليتنبه أهل عصرنا الذين يدعون الإسلام وينتسبون إليه إلى ذلك، فلا يلجؤوا إلى المقابر والأضرحة ، ولا يهرولوا إليها ، إذا أصيبوا بشيء من بلايا الدنيا، وليلوذوا بجناب الله تعالى ، وليلجؤوا إليه تعالى دون ما سواه .

« ألا هل أُنَبِّئُكُمْ ما العَضْهُ ؟ هى النَّميمةُ ، القالَةُ بين الناس » .

رواه مسلم[١] .

ولهما عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) قوله « ألا أنبئكم ما العضه » « ألا » أداة تنبيه ، « وأنبئكم » أخبركم ، « والعضه » قال النووى في شرح مسلم : هذه اللفظة رووها على وجهين : أحدهما العضة ، بكسر العين وفتح الضاد المعجمة ، على وزن العدة والزنة ، والثانى العضه ، بفتح العين وإسكان الضاد ، على وزن الوجه ، وهذا الثانى هو الأشهر في روايات بلادنا ، يعني دمشق ، والأشهر في كتب الحديث وكتب غريبه ، والأول أشهر في كتب اللغة . وتقدير الحديث والله أعلم ألا أنبئكم بالعضه الفاحش الغليظ التحريم » . قال العلامة الزمخشرى : « أصلها العضهة فعلة من العضه ، وهو البهت ، فحذفت لامه كما حذفت من السنة والشفة » . وأطلق على النميمة عضه لأنها لا تنفك عن الكذب والبهتان غالباً ، ولذا قال ابن عبد البر عن يحى بن أبي كثير : يفسد النمام والكذاب في ساعة ما لا يفسد الساحر في سنة . وقد عدها بعض العلماء من السحر ، ووجهه أنه يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكر والحيلة ، فأشبه السحر . وحكم النميمة التحريم إجماعاً ، قال ابن حزم : «اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة في غير النصيحة الواجبة » . وهي من الكبائر . وللامام الشوكانى رسالة سماها « رفع الريبة فيما يجوز وما لا يجوز من الغيبة » وقد طبعت ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ، حقق فيها المسألة ، فارجع إليها فإنها تنفعك إن شاء الله تعالى . وقوله « القالة بين الناس » هى كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس ، كما قاله صاحب النهاية . ولا يخفى على العاقل اللبيب فساد النميمة وشدة ضررها ، فإنها تجعل الصاحب المخلص عدواً لدوداً ، والقريب بعيداً ، والمحب مبغضاً ، لاسيما إذا كانت بين العائلات والأقارب والجيران ، فإن الضرر يزداد والفساد يعظم ، فليتق الله النمام في نفسه وفي أخيه وقومه وعشيرته ، وليخف الله في يوم لا ينفع فيه مال ولا قوة إلا من أتى الله مخلصاً له ولدينه ونبيه وإخوانه المسلمين المؤمنين بقلب سليم .

قال : « إنّ من البَيانِ لَسِحْرًا »(١) .

فيه مسائل : الأولى أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت . الثانية تفسير العيافة والطرق . الثالثة أن علم النجوم من نوع السحر . الرابعة العقد مع النفث من ذلك . الخامسة أن النميمة من ذلك . السادسة أن من ذلك بعض الفصاحة .

---

(١) الحديث أخرجه أيضاً أبو داود والترمذى . وقد أورد البخارى سبب قول النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في كتاب الطب ولفظه : « أنه قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس لبيانهما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من البيان لسحراً ، أو إن بعض البيان سحر » . قال صاحب مجمع الأمثال : « قال النبي صلى الله عليه وسلم حين وفد عليه عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ، فسأل عليه الصلاة والسلام عمرو بن الأهتم عن الزبرقان ؟ فقال عمرو : مطاع في أدنيه ، شديدِ العارضة ، مانع لما وراء ظهره ، فقال الزبرقان : يارسول الله إنه ليعلم مني أكثر من هذا ، ولكنه حسدني ، فقال عمرو : أما والله إنه لزمر المروءة ، ضيق العطن ، أحمق الوالد ، لئيم الخال، والله يارسول الله ما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الأخرى ، ولكني رجل رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وسخطت فقلت أقبح ما وجدت ! فقال عليه الصلاة والسلام : إن من البيان لسحراً . يعني أن بعض البيان يعمل عمل السحر » .

ومعنى السحر : إظهار الباطل فيصورة الحق . والبيان : اجتماع الفصاحة والبلاغة وذكاء القلب مع اللسن ، وإنما شبه بالسحر لحدة عمله في سامعه وسرعة قبول القلب له . قال المنذري : « وقد اختلف العلماء في قوله صلى الله عليه وسلم : إن من البيان لسحراً ، فقيل أورده مورد الذم لتشبيهه بعمل السحر ، لغلبه القلوب وتزيينه القبيح وتقبيحه الحسن، وإليه أشار الإمام مالك رضى الله عنه ، فإنه ذكر هذا الحديث في الموطأ في باب ما يكره من الكلام ، قيل إن معناه أن صاحبه يكسب به من الإثم ما يكسبه الساحر بعلمه ، وقيل أورده

﴿ باب ما جاء فى الكُهَّانِ ونحوهم ﴾[1]

روى مسلم فى صحيحه عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم

مورد المدح ، أي إنه تمال به القلوب ويرضى به الساخط ويذل به الصعب ، ويشهد له : « إن من الشعر لحكمة » . وقال أبو عبيدة البكري الأندلسي في شرح كتاب الأمثال للحافظ أبي عبيد القاسم بن سلام : الناس يتلقون هذا الحديث على أنه في مدح البيان ، وأدرجوا في كتبهم هذا التأويل ، وتلقاه العلماء على غير ذلك ، وبوب مالك في الموطأ عليه : باب ما يكره من الكلام ، فحمله على الذم ، وهذا هو الصحيح في تأويله ، لأن الله تعالى قد سمى السحر فساداً في قوله تعالى : (ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين) » . أقول . وهذا ظاهر صنيع أبي داود ، لأنه قال بعد ما أورده : « كأن المعنى أن يبلغ من بيانه أن يمدح الإنسان فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله ، ثم يذمه فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله الآخر ، فكأنه سحر السامعين بذلك » . ولا شك أن البيان يقسم إلى نوعين : نوع يجعل الحق في قالب الباطل والباطل في قالب الحق ، فيستميل صاحبه قلوب الجهال حتى يقبلوا الباطل وينكروا الحق ، وهذا مذموم لاشك فيه . ونوع يوضح الحق ويقرره ، ويبطل الباطل ويبينه ، وهذا لا ريب في مدحه ، وبه جاءت الأنبياء والرسل صلى الله عليهم .

(١) قال في اللسان : « الكاهن الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعي معرفة الأسرار ، وقد كان في العرب كهنة ، كشق وسطيح وغيرهما ، فمنهم من كان يزعم أن له تابعاً من الجن ورئيـاً يلقي إليه الأخبار ، ومنهم من كان يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها ، من كلام من يسأله أو فعله أو حاله وهذا يخصونه باسم العراف ، كالذي يدعى معرفة الشيء المسروق ومكان الضالة ونحوهما .. قال الأزهري : وكانت الكهانة في العرب قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث نبينا وحرست السماء بالشهب ومنعت الجن والشياطين من استراق السمع وإلقائه إلى الكهنة

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَن أَتَى عَرَّافاً فسأله عن شيء فَصَدَّقَهُ لم تُقْبَلْ له صلاةُ أربعين يوماً[١] » .

بطل علم الكهانة ، وأزهق الله أباطيل الكهان بالفرقان الذي فرق الله عز وجل به بين الحق والباطل ، وأطلع الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بالوحى على ما شاء من علم الغيوب التي عجزت الكهنة عن الإحاطة به ، فلا كهانة اليوم بحمد الله ومنه وإغنائه بالتنزيل عنها » . وقد يقع في هذه الأزمان وقبلها ما يخبر به الجن مواليهم من الإنس عن الأشياء الغائبة بما يقع في الأرض من الأخبار ، فيظنه الجاهلون وضعفة العقول كشفاً وكرامة . قال في فتح المجيد : « وقد اغتر بذلك كثير من الناس يظنون المخبر لهم بذلك عن الجن ولياً لله وهو من أولياء الشيطان ، كما قال تعالى : (ويوم نحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس ، وقال أولياؤهم من الإنس: ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا، قال : النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ، إن ربكم حكيم عليم) » .

(١) العراف : هو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعي معرفتها بها ، وهو من جملة أنواع الكهان ، وسيأتي بعد في كلام المصنف . قال الخطابي وغيره : العراف هو الذي يتعاطى معرفة مكان المسروق ومكان الضالة ونحوهما . وظاهر الحديث أن الوعيد يترتب على مجيئه وسؤاله ، سواء صدقه أو شك في خبره . وقوله « لم تقبل له صلاة » قال النووي في شرح مسلم : معناه أنه لا ثواب له فيها . كذا قال جمهور أصحابنا . ولا بد من هذا التأويل في الحديث ، فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من إتيان العراف إعادة صلوات أربعين ليلة ا هـ المقصود منه . ولا يخفى عليك أن هذا في حق السائل ، فماذا يكون حكم المسؤول من الوعيد والزجر ؟ ويوجد من هؤلاء طائفة دجالون منتشرون في الأسواق يلبسون على ضعفاء العقول وجهلة المسلمين ، يوهمونهم أن لهم أطلاعاً على المغيبات ، ويسلبون الناس أموالهم ظلماً ، ولازاجر ولا رادع من ذلك ، وكان الواجب على العلماء والأمراء أن يأخذوا على أيدي هؤلاء الدجالين ، ويمنعوهم من البلاد والأسواق ، حفظاً لعقيدة الأمة وعقولها من هذه الضلالات .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَن أتَى كاهناً فصدَّقَهُ بما يقولُ فقد كَفرَ بما أُنزِلَ عَلَى محمدٍ صلى الله عليه وسلم ».

رواه أبو داود . وللأربعةِ والحاكم ، وقال : صحيح على شرطهما ، عن [أبي هريرة] « مَن أتى عرَّافاً أو كاهناً فصدَّقَهُ بما يقول فقد كَفرَ بما أُنزلَ على محمد صلى الله عليه وسلم »[١] .

ولأبي يَعْلَى بسندٍ جيدٍ عن ابن مسعودٍ مِثْلُهُ موقوفاً .

وعن عِمْرانَ بن حُصَيْنٍ مرفوعًا : « ليس مِنَّا من تَطَيَّرَ أو تُطِيِّرَ له ،

قال القرطبي : يجب على من قدر على ذلك من محتسب وغيره أن يقيم من يتعاطى شيئاً من ذلك من الأسواق ، وينكر عليهم أشد النكير وعلى من يجيء إليهم ، ولا يغتر بصدقهم في بعض الأمور ، ولا بكثرة من يجيء إليهم ممن ينتسب إلى العلم ، فإنهم غير راسخين في العلم ، بل من الجهال بما في إتيانهم من المحذور .

(١) هكذا بيض المصنف لاسم الراوي ، ولعله نقله من كتاب الزواجر لابن حجر ، لأنه عزا الحديث إلى الأربعة والحاكم ولم يذكر راوي الحديث ، فذكره المصنف هكذا وبيض له ، لأجل أن يراجع عن راوي الحديث ويكتبه ، فاخترمته المنية وبقي بياضاً ، وقد راجعت في كتاب المستدرك للحاكم فرأيته رواه عن أبي هريرة ، ورواه الإمام أحمد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً . وحديث أبي داود مختصر هنا ، وأصله في سننه هكذا : « عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أتى كاهناً فصدقه بما يقول أو أتى امرأة في دبرها فقد برىء مما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » . والحديث متكلم فيه ، وعلى فرض صحته فهو محمول على استحلال ذلك ، ليجمع بينه وبين حديث أول الباب.

أو تَكَهَّنَ أو تُكُهِّنَ لهُ ، أو سَحَرَ أو سُحِرَ له ، ومن أَتى كاهناً فصدَّقَهُ بما يقول فقد كَفَرَ بما أُنْزِلَ على محمدٍ صلى الله عليه وسلم » . رواه البَزَّارُ بإِسنادٍ جيِّدٍ(١) . ورواه الطَّبَرانىُّ فى الأوْسَط بإِسْنادٍ حسنٍ من حديث ابن عَبَّاسٍ دون قوله « ومن أَتى » إلى آخره .

قال البَغوىُّ : العَرَّافُ : الذى يَدَّعِى معرفةَ الأمور بمقدماتٍ يستدلُّ بها على المسروقِ ومكان الضالَّةِ ونحو ذلك . وقيل هو الكاهنُ . والكاهنُ هو الذى يخبر عن المغيباتِ فى المستقبل ، وقيل الذى يُخْبِرُ عما فى الضمير . وقال أبو العبّاس بنُ تَيْمِيَةَ : العَرَّافُ اسْمٌ للكاهن والمنجِّم والرَّمَّالِ ونحوهم ، ممن يتكلَّمُ فى معرفة الأمور بهذه الطرُقِ . وقال ابن عباسٍ فى قومٍ يَكْتُبُونَ أَبا جادٍ وينظرون فى النُّجُومِ : ما أَرَى مَن فَعَلَ ذلك له عندَ الله مِن خَلَاقٍ(٢) .

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير : « روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : ليس منا من سحر أو سحر له ، أو تكهن أو تكهن له . الطبراني من حديث الحسن عن عمران بن حصين ، وأبو نعيم من حديث علي بن أبي طالب ، والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس . وفي الأول إسحق بن الربيع ، وضعفه الفلاس ، والراوي عنه أيضاً لين ، وفي حديث ابن عباس زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام ، وهما ضعيفان .

(٢) هو حساب الجمل ، فيقطعون حروف « أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت » فيجعلون الألف واحداً ، والباء اثنين ، والجيم ثلاثة ، والدال أربعة ، والهاء خمسة ، إلى نهاية

فيه مسائل : الأولى لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن . الثانية التصريح بأنه كفر . الثالثة ذكر من تكهن له . الرابعة ذكر من تطير له . الخامسة ذكر من سحر له . السادسة ذكر من تعلم أبا جاد . السابعة ذكر الفرق بين الكاهن والعراف .

﴿ باب ما جاء في النُّشْرَةِ ﴾[1]

عن جابر : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عن النُّشْرَةِ ؟ فقال : هي مِن عَمَلِ الشَّيْطانِ » رواه أحمدُ بسندٍ جيِّدٍ وأبو داوُدَ ، وقال : سُئِلَ أحمد عنها فقال : ابن مسعودٍ يَكْرَهُ هذا كلَّهُ . وفي البخاريِّ عن قتادة : قلتُ لابن المُسَيَّبِ : رجلٌ بِهِ طِبٌّ[2] أو يُؤَخَّذُ

الحرف العاشر ثم يبدؤون بالكاف من « كلمن » ويجعلونها عشرة ، واللام عشرين ، وهكذا إلى أن تتم حروف هذه الكلمات . وقال العلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن في فتح المجيد : « هذا الأثر رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً ، وإسناده ضعيف » .

(١) قال ابن الأثير في النهاية : « النشرة بالضم : ضرب من الرقية والعلاج ، يعالج به من كان يظن أن به مسا من الجن ، سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء أي يكشف ويزال . وقال الحسن : النشرة من السحر ، وقد نشرت عنه تنشيراً » .

(٢) قوله «طب» ، هو بكسر الطاء : السحر ، يقال طب الرجل ، بالضم : إذا سحر قال في النهاية : « كنوا بالطب عن السحر تفاؤلا بالبرء ، كما كنوا بالسليم عن اللديغ » . وقوله « يؤخذ » بفتح الواو مهموز وتشديد الخاء المعجمة بعدها ذال معجمة ، أي يحبس عن

عن امرأتهِ ، أيُحَلُّ عنه أو يُنَشَّرُ ؟ قال : لا بأسَ به ، إنما يريدون به الإصلاحَ ، فأمَّا ما يَنْفعُ فلم يُنْهَ عنه ، انتهى . ورُوى عن الحسن أنه قال : لا يُحِلُّ السحرَ إلا ساحِرٌ . قال ابنُ القَيِّمِ : النُّشْرَةُ حَلُّ السحْرِ عن المسحور ، وهى نوعانِ : حَلٌّ بسِحرٍ مثلِه ، وهو الذى مِن عَمَلِ الشيطانِ ، وعليهِ يُحْمَلُ قولُ الحسنِ ، فَيتقَرَّبُ النَّاشرُ والمنتشِرُ إلى الشيطان بما يُحِبُّ فيبطُلُ عملُه عن المَسْحورِ . والثانِى النُّشْرَةُ بالرُّقْيَةِ والتَّعوُّذاتِ والأدويةِ والدَّعواتِ المُباحَةِ ، فهذا جائزٌ .

فيه مسائل : الأولى النهى عن النشرة . الثانية الفرق بين المنهى عنه والمرخص فيه عما يزيل الإشكال .

امرأته ولا يصل إلى جماعها . والأخذة ، بضم الهمزة : الكلام الذى يقوله الساحر ، وقوله « أيحل » بضم الياء وفتح الحاء مبنى للمفعول . وقوله « أو ينشر » بتشديد المعجمة . وقوله « لا بأس به » أي الفعل ، يعني أن النشرة لا بأس بها ، لأنهم يريدون بها الإصلاح ، أى إزالة السحر ، ولم ينه عما يراد به الإصلاح . وقد تقدم الكلام على الرقية الجائزة بما فيه الكفاية ، فارجع إليه . ومما يدل على صفة النشرة الجائزة ما رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سليم قال : بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر باذن الله ، تقرأ في إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور ، الآية التى في سورة يونس (فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله) إلى قوله : (إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) .

﴿ باب ما جاء فى التَّطَيُّرِ ﴾(١)

وقول الله تعالى : (ألا إنَّما طائِرُهُمْ عنْدَ اللهِ ولكنَّ أَكْثَرَهُمْ

---

(١) فى النهاية : « الطيرة ، بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن ، هى التشاؤم بالشيء ، وهو مصدر تطير ، يقال تطير طيرة وتخير خيرة ، ولم يجيء من المصادر هكذا غيرهما ، وأصله فيما يقال التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما ، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم ، فنفاه الشرع وأبطله ونهى عنه ، وأخبر أنه ليس له تأثير فى جلب نفع أو دفع ضر » قال ابن القيم فى مفتاح دار السعادة : « ومن ذلك هؤلاء أصحاب الطير السانح والبارح والعقيد والناطح ، وأصل هذا أنهم كانوا يزجرون الطير والوحش ويثيرونها ، فما تيامن منها وأخذ ذات اليمين سموه سانحاً ، وما تياسر منها سموه بارحاً ، وما استقبلهم منها فهو الناطح ، وما جاءهم من خلفهم سموه القعيد . فمن العرب من يتشاءم بالبارح ويتبرك بالسانح ، ومنهم من يرى خلاف ذلك . قال المدائنى : سألت رؤبة بن العجاج ما السانح ؟ قال : ما ولاك ميامنة ، قال : قلت : فما البارح ؟ قال : ما ولاك مياسرة ، قال : والذي يجيء من قدامك فهو الناطح والنطيح ، والذي يجيء من خلفك فهو القاعد والقعيد » . ثم قال : « وإنما اختلفوا فى مراتبها ومذاهبها لأنها خواطر وحدوس وتخمينات لا أصل لها ، فمن تبرك بشيء مدحه ، ومن تشاءم به ذمه » ولم تكن العرب قاطبة تعتقد هذا وتقول به . قال ابن القيم : « ومنهم من أنكرها بعقله ، وأبطل تأثيرها بنظره ، وذم من اغتر بها واعتمد عليها ، وتوهم تأثيرها ، فمنهم المرقش حيث يقول :

ولقد غدوت وكنت لا ... أغدو على واق وحاتم
فإذا الأشائم كالأيا ... من والأيامن كالأشائم
وكذاك لا خير ولا ... شر على أحد بدائم
لا يمنعنك من بغا ... ء الخير تعقاد التمائم
قد خط ذلك في السطو ... ر الأوليات القدائم

... يعني بالواق الصرد ، وبالحاتم الغراب ، سموه حاتماً لأنه كان عندهم يحتم بالفراق » .

وقال الكميت : وما أنا ممن يزجر الطير همه أطار غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية أمر سليم القرن أم مر أعضب

ومما كان أهل الجاهلية يتطيرون به ويتشاءمون منه العطاس ، كما يتشاءمون بالبوارح والسوانح . قال رؤبة بن العجاج يصف فلاة : ✡ قطعتها ولم أهب عطاسا ✡

وقال امرؤ القيس :

وقد أغتدى قبل العطاس بهيكل شديد مشيد الجنب فعم المنطق

أراد أنه كان يتنبه للصيد قبل أن يتنبه الناس من نومهم لئلا يسمع عطاساً فيتشاءم بعطاسه. وكانوا إذا عطس من يحبونه قالوا : عمراً وشباباً ، وإذا عطس من يبغضونه قالوا له : رياً وقحاباً. والورى كالرى داء يصيب الكبد فيفسدها ، والقحاب كالسعال وزنا ومعنى. وكان تشاؤمهم بالعطسة الشديدة أشد . قال ابن القيم : وقد شفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته في الطيرة حيث سئل عنها فقال : ذاك شيء يجده أحدكم فلا يصدنه . وفي أثر آخر : « إذا تطيرت فلا ترجع » أى امض لما قصدت له ولا يصدنك عنه الطيرة . واعلم أن التطير إنما يضر من أشفق منه وخاف ، وأما من لم يبال به ولم يعبأ به شيئاً لم يضره البتة ، ولا سيما إن قال عند رؤية ما يتطير به أو سماعة : اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك ، اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك . فالطير باب من الشرك وإلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته ، يكبر ويعظم شأنها على من أتبعها نفسه واشتغل بها وأكثر العناية بها، وتذهب وتضمحل عمن لم يلتفت إليها، ولا ألقى إليها باله، ولا شغل بها نفسه وفكره . واعلم أن من كان معتنياً بها قائلا بها كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدره ، وتفتحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويعطاه، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه وينكد عليه عيشه ، فإذا سمع سفرجلا أو أهدى إليه تطير به وقال : سفر وجلاء ! وإذا رأى ياسميناً أو سمع اسمه تطير به وقال : يأس ومين ! وإذا رأي سوسنة أو سمعها قال : سوء يبقى سنة !! وإذا خرج من داره فاستقبله أعور أو أشل أو أعمى أو صاحب آفة تطير به أو تشاءم بيومه » ، فكن أيها العاقل حريصاً على اتباع دينك ، متأسياً برسولك محافظاً على سير سلفك ، غير ملتفت إلى عادة الجاهلية

لا يَعْلَمُونَ)[١] .

وقوله : (قالوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ)[٢] الآية .

ولا تابع هذه السخافات التي تفسد العقل وتضعف اليقين. وكن مطمئن القلب إلى أن التطير ليس له أثر في نفع أو ضرر . نسأل الله تعالى أن يوفقني وإياك إلى هدى الرسول صلى الله عليه وسلم في العقيدة والقول والعمل وفي الحركات والسكنات .

(١) قوله « ألا » أداة تنبيه ، وهو رد لمقالتهم الباطلة ، وهي قولهم إذا جاءتهم الحسنة : لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة تطيروا بموسى ومن معه . وفسرت الحسنة بالخصب والرخاء ، والسيئة بالجدب والمرض . والحاصل أن آل فرعون كانوا إذا أصابتهم الحسنة ، أي الخصب والسعة والعافية ، قالوا : لنا هذه ، أي نحن الجديرون والحقيقون به ونحن أهله ، وإن تصبهم سيئة ، أي بلاء وقحط ، تطيروا بموسى ومن معه ، فيقولون هذا بسبب موسى وأصحابه أصابنا بشؤمهم . فقال الله تعالى : (ألا إنما طائرهم عند الله) أي ليس شؤمهم إلا عند الله ، أي من قبله وحكمه ، كما قال ابن عباس . وقال الزجاج : المعنى ليس الشؤم الذي وعدوا به من العقاب عنده لا ما ينالهم فى الدنيا ، وقوله : (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أي بسبب جهلهم ، ولو فهموا وعقلوا لعلموا أن موسى عليه السلام ما جاء إلا بالخير والبركة والفلاح لمن آمن به وصدق برسالته واتبعه .فسعادة الناس باتباعهم أنبيائهم ، وشقاوتهم بمنابذة ما جاؤوا به . وهذا حال كل نبي مع أمته ، وكذلك حال الجهال مع علمائهم العاملين . نسأل الله التوفيق والهداية لأقوم طريق .

(٢) هذا رد على من كذب الرسل فأصيبوا بالبلاء ، ولما ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل ادعوا أن سبب البلاء جاء من قبل الرسل وبسببهم ، وهذا ديدن الجهلة حيث يتيمنون بكل ما يوافق شهواتهم وإن كان مستجلباً لكل شر ، ويتشاءمون بما لا يوافقها وإن كان مستتبعاً لكل خير . والمعنى إن طائركم ، أى سبب شؤمكم معكم لا من قبلنا كما تزعمون ، وهو سوء عقيدتكم وقبح أعمالكم . وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس أنه فسر الطائر بنفس الشؤم ، أى شؤمكم معكم وهو الإقامة على الكفر ، وأما نحن فلا شؤم معنا لأنا ندعو إلى التوحيد وعبادة الله تعالى ، وفيه غاية اليمن والخير والبركة . وعن

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا عَدْوَى ولا طِيَرَةَ ولا هامَةَ ولا صَفَرَ » أَخْرَجاه ، زاد مسلمٌ : « ولا نَوْءَ ولا غُولَ »(١) .

أبى عبيدة والمبرد : طائركم أى حظكم ونصيبكم في الخير والشر ، معكم فى أفعالكم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر . ومناسبة ذكر الآيتين فى الترجمة أن التطير من أعمال المشركين في الجاهلية ، وقد ذمهم الله تعالى به ومقتهم ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التطير وأخبر أنه شرك .

(١) قال فى النهاية : « العدوى اسم من الإعداء ، كالرعوى والبقوى من الإرعاء والإبقاء ، يقال أعداه الداء يعديه إعداء ، وهو أن يصيبه مثل ما بصاحب الداء ، وذلك أن يكون ببعير جرب مثلا فتتقى مخالطته بإبل أخرى حذاراً أن يتعدى ما به من الجرب إليها فيصيبها ما أصابه ، وقد أبطله الإسلام ، لأنهم كانوا يظنون أن المرض بنفسه يتعدى ، فأعلمهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه ليس الأمر كذلك ، وإنما الله هو الذي يمرض وينزل الداء ، ولهذا قال فى بعض الأحاديث : فمن أعدى البعير الأول ، أي من أين صار فيه الجرب » . والهامة بتخفيف الميم على المشهور وقيل بتشديده . وقد ذكر لها النووي فى شرح مسلم تأويلين : أحدهما أن العرب كانت تتشاءم بالهامة الطائر المعروف من طير الليل . وقيل هى البومة ، قالوا : كانت إذا سقطت على دار أحدهم يراها ناعية له نفسه أو بعض أهله، وهذا تفسير مالك بن أنس . والثانى أن العرب كانت تعتقد أن عظام الميت وقيل روحه تنقلب هامة تطير ، وهذا تفسير أكثر العلماء ، وهو المشهور . ويجوز أن يكون المراد النوعين ، فإنهما جميعاً باطلان ، فبين النبى صلى الله عليه وسلم إبطال ذلك وضلالة الجاهليه فيما تعتقده من ذلك . وقوله « ولا صفر » هو بفتح الفاء ، وقد ذكر له أيضاً تأويلين : « أحدهما المراد تأخيرهم تحريم المحرم إلى صفر ، وهو النسيء الذي كانوا يفعلونه ، وبهذا قال مالك وأبو عبيدة . والثاني أن الصفر دواب فى البطن ، وهى دود ، وكانوا يعتقدون أن في البطن دابة تهيج عند الجوع وربما قتلت صاحبها ، وكانت العرب تراها أعدى من

ولهما عن أنسٍ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا عَدْوَى ولا طِيَرَةَ، ويُعْجِبُنِي الفَأْلُ، قالوا: وما الفألُ؟ قال: الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»(١).

الجرب، وهذا التفسير هو الصحيح، وبه قال مطرف وابن وهب وابن حبيب وأبو عبيد وخلائق من العلماء. وقد ذكره مسلم عن جابر بن عبد الله راوي الحديث، فيتعين اعتماده. ويجوز أن يكون المراد هذا والأول جميعاً، وأن الصفرين جميعاً باطلان لا أصل لهما ولا تعريج على واحد منهما». وقوله «ولا نوء» سيأتى الكلام عليه فى بابه إن شاء الله تعالى. وقوله «ولا غول» هو بضم الغين المعجمة واحد الغيلان، قال في النهاية: وهو جنس من الجن والشياطين. قال النووي: «قال جمهور العلماء: كانت العرب تزعم أن الغيلان فى الفلوات، وهى جنس من الشياطين، فتتراءى للناس وتتغول تغولا، أي تتلون تتلوناً، فتضلهم عن الطريق فتهلكهم، فأبطل النبى صلى الله عليه وسلم ذاك. وقال آخرون: ليس المراد بالحديث نفي وجود الغول، وإنما معناه إبطال ما تزعمه العرب من تلون الغول بالصور المختلفة واغتيالها، قالوا: ومعنى لا غول: أي لا تستطيع أن تضل أحداً. ويشهد له حديث آخر: لا غول ولكن السعالى. قال العلماء: السعالى بالسين المفتوحة والعين المهملتين، وهم سحرة الجن، أي ولكن في الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل. وفي الحديث الآخر: إذا تغولت الغيلان فنادو بالأذان. أي ادفعوا شرها بذكر الله تعالى، وهذا دليل على أنه ليس المراد نفى أصل وجودها. وفى حديث أبي أيوب: كان لى تمر في سهوة وكانت الغول تجيء فتأكل منه».

(١) قال ابن الأثير: «الفأل، مهموز: وهو فيما يسر ويسوء، والطيرة لا تكون إلافيما يسوء، وربما استعملت فيما يسر، يقال تفاءلت بكذا وتفألت، على التخفيف والقلب. وقد أولع الناس بترك همزه تخفيفاً. وإنما أحب الفأل لأن الناس إذا أملوا فائدة الله تعالى ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوى فهم على خير، ولو غلطوا فى جهة الرجاء، فان الرجاء لهم خير، وإذا قطعوا أملهم ورجاءهم من الله كان ذلك من الشر. وأما الطيرة فان فيها سوء الظن بالله وتوقع البلاء، ومعنى التفاؤل مثل أن يكون رجل مريض فيتفاءل بما يسمع من كلام، فيسمع آخر يقول: يا سالم، أو يكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول:

ولأبى داوُد بسند صحيح عن عُقْبَةَ بن عامرٍ[١] قال: « ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أَحْسَنُها الفألُ ولا تَرُدُّ مسلماً، فإذا رأى أحدُكم ما يَكْرَهُ فليقل: اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت، ولا يَدْفَعُ السيئاتِ إلا أنت، ولا حول ولا قوةَ إلا بكَ ».

وعن ابن مسعودٍ مرفوعاً: « الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وما مِنَّا إلَّا، ولكِنِ اللهُ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّل »[٢] رواه أبو داود

يا واجد، فيقع في ظنه أنه يبرأ من مرضه ويجد ضالته ». وقولهَ «لا عدوى ولا طيرة» قال العلامة ابن القيم: « هذا يحتمل أن يكون نفياً وأن يكون نهياً، أى لا تطيروا. ولكن قوله في الحديث: ولا عدوى ولاصفر ولا هامة، يدل على أن المراد النفى وإبطال هذه الأمور التى كانت الجاهلية تعانيها، والنفى فى هذا أبلغ من النهي، لأن النفى يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره. والنهى إنما يدل على المنع منه ».

(١) هكذا وقع في جميع النسخ « عقبة بن عامر » وهو غلط، صوابه « عروة بن عامر »، كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما، وهو مكي اختلف في نسبه، فقال أحمد: عن عروة بن عامر القرشي، وقال غيره: الجهنى، واختلف في صحبته.

(٢) قوله « الطيرة شرك » صريح فى تحريم الطيرة وأنها من الشرك، لاعتقادهم أن الطيرة تجلب لهم نفعاً وتدفع عنهم ضراً، فاذا عملوا بموجبها فكأنهم أشركوا بالله في ذلك، ويسمى شركا خفياً. ومن اعتقد أن شيئاً سوى الله ينفع أو يضر بالاستقلال فقد أشرك شركا جلياً، قال القاضي: إنما سماها شركا لأنهم كانوا يرون ما يتشاءمون به سبباً مؤثراً في حصول المكروه، وملاحظة الأسباب في الجملة شرك خفى، فكيف إذا انضم إليها جهالة

والترمذى وصححه ، وجعل آخِرَهُ من قول ابن مسعود . ولأحمد من حديث ابن عَمْرٍو : « مَن رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عن حاجته فقد أشركَ ، قالُوا : فما كَفَّارَةُ ذلك ؟ قال : أن يقولَ : اللَّهُمَّ لا خَيْرَ إِلا خَيْرُكَ ، ولا طَيْرَ إِلا طَيْرُكَ ، ولا إله غَيْرُكَ .

وسوء اعتقاد . وقوله « ومامنا إلا » أي وما منا أحد إلا من يخطر له من جهة الطيرة شيء ما لتعود النفوس بها ، فحذف المستثنى كراهة أن يتلفظ به . قال الخطابى : « معناه إلا من قد يعتريه الطيرة ويسبق إلى قوله الكراهة فيه ، فحذف اختصاراً للكلام واعتماداً على فهم السامع » . وهذه الجملة ليست من قول النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما هي من قول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه كما قال المصنف بعد رحمه الله تعالى . وقال ابن القيم : « وهذه اللفظة : ومامنا ، إلى آخره ، مدرجة فى الحديث ، ليست من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، كذا قاله بعض الحفاظ ، وهو الصواب ، فان الطيرة نوع من الشرك كما هو في أثر مرفوع : من رد الطيرة فقد قارف الشرك . وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي أنه قال : يا رسول الله ومنا أناس يتطيرون ، فقال : ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنه. فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به ، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده ، لا ما رآه وسمعه ، فأوضح صلى الله عليه وسلم لأمته الأمر ، وبين لهم فساد الطيرة ، ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ، ولا فيها دلالة ، ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه ، لتطمئن قلوبهم ولتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التى أرسل بها رسله وأنزل بها كتبه ، وخلق لأجلها السموات والأرض ، وعمر الدارين الجنة والنار ، فبسبب التوحيد ومن أجله جعل الجنة دار التوحيد وموجباته وحقوقه ، والنار دار الشرك ولوازمه وموجباته ، فقطع صلى الله عليه وسلم علق الشرك من قلوبهم لئلا يبقى فيها علقة منها ، ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهله البتة » انتهى ببعض تصرف . وقوله « ولكن الله يذهبه بالتوكل » أي يذهبه الله بسبب الاعتماد عليه والاستناد إليه سبحانه .

وله من حديث الفضل بن العباس رضى الله عنه : « إنما الطِّيَرَةُ ما أمْضاكَ أو رَدَّكَ »[١] .

فيه مسائل : الأولى التنبيه على قوله : (ألا إنما طائرهم عند الله) مع قوله : (طائركم معكم) . الثانية نفى العدوى . الثالثة نفى الطيرة . الرابعة نفى الهامة . الخامسة نفى الصفر . السادسة أن الفأل ليس من ذلك بل مستحب . السابعة تفسير الفأل . الثامنة أن الواقع فى القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر، بل يذهبه الله بالتوكل . التاسعة ذكر ما يقول من وجده . العاشرة التصريح بأن الطيرة شرك . الحادية عشرة تفسير الطير المذمومة

---

(١) هذا حد الطيرة المنهي عنها ، لأنها ما يحمل الإنسان على المضى فيما أراده أو يمنعه من المضي فيه كذلك ، بخلاف الفأل الذى كان يحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان فيه نوع بشارة ، فيسر به العبد ولا يعتمد عليه ، بخلاف ما يمضيه أو يرده ، فان للقلب فيه نوع اعتماد ، وهذا فرق واضح ، فاحفظه هداك الله .

﴿ باب ما جاء فى التنجيم (١) ﴾

قال البخارِى فى صحيحه : قال قَتادَةُ : خَلَقَ اللهُ هذه النجومَ لثَلاثٍ : زِينَةً للسماء ، ورُجُوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهْتَدَى بها ، فمن تأَوَّل فيها غيرَ ذلك أخطأ وأضاعَ نصيبَه وكُلِّفَ ما لا عِلمَ له به، انتهى (٢) . وكره قتادة تَعَلُّمَ منازل القمر. ولم يُرَخِّص ابنُ عُيَيْنَةَ فيه ،

---

(١) قال العلامة ابن تيمية رحمه الله تعالى : التنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية . وفى كشف الظنون : « هو علم يعرف به الاستدلال على حوادث علم الكون والفساد بالتشكلات الفلكية ، وهي أوضاع الأفلاك والكواكب ، كالمقارنة والمقابلة والتثليث والتسديس والتربيع إلى غير ذلك . وهو عند الإطلاق ينقسم إلى ثلاثة أقسام : حسابيات ، وطبيعيات ، ووهميات » . وقد تقدم بيان ما يجوز منه وما لا يجوز عن الخطابى وغيره وتفصيل ذلك ، في « باب بيان شيء من أنواع السحر » فارجع إليه ، وسيأتي زيادة على ذلك أيضاً . والله أعلم.

(٢) ذكر هذا الأثر البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه معلقاً ، وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم ، قال في الشرح : « وأخرجه الخطيب في كتاب النجوم عن قتادة ولفظه قال : إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً للشياطين ، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف مالا علم له به ، وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة : من أعرس بنجم كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا . ولعمرى مامن نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والدميم ، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا

الغيب ! ولو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء . فتأمل ما أنكر هذا الإمام مما حدث من هذه المنكرات في عصر التابعين ، وما زال الشر يزداد في كل عصر بعدهم حتى بلغ الغاية في هذه الأعصار ، وعمت به البلوى في جميع الأمصار ، فمقل ومستكثر ، وعز في الناس من ينكره ، وعظمت المصيبة فى الدين ، فانا لله وإنا إليه راجعون . وقوله : خلق الله هذه النجوم لثلاث . قال تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) أى ولقد زينا السماء الدنيا منكم ، أي التى هى أتم دنواً منكم من غيرها ، فدنوها بالنسبة إلى ما تحت ، وأما بالنسبة إلى من حول العرش فبالعكس. والمصابيح : جمع مصباح ، وهو السراج ، تجوز به عن الكواكب ، وتنكيرها للتعظيم ، أى بمصابيح عظيمة ليست كمصابيحكم التى تعرفونها . والضمير في « جعلناها » للمصابيح لا للسماء الدنيا . والرجوم : جمع رجم بالفتح ، وهو مصدر سمى به ما يرجم به ، أى يرمى ، فصار له حكم الأسماء الجامدة ولذا جمع . والمراد بالشياطين مسترقو السمع . وقال تعالى : (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) والعلامات الدلالات على الجهات يهتدى بها الناس فى ذلك . كما قال الله عز وجل : (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهدوا بها فى ظلمات البر والبحر) أى لتعرفوا بها جهة قصدكم ، وليس المراد يهتدى بها في علم الغيب كما يزعمه المنجمون ، ويبطل دعواهم زيادة على ما تقدم قول قتادة : فمن تأول فيها غير ذلك ، أى زعم فيها غير ما ذكر الله فى كتابه من هذه الثلاث ، فقد أخطأ ، حيث زعم شيئاً ما أنزل الله به من سلطان ، وأضاع نصيبه من كل خير ، لأنه شغل نفسه بما يضره ولا ينفعه » .

ذكره حرب عنهما . ورخص فى تعلم المنازل أحمد وإسحاق[1] .

(١) قال الخطابي فيما يتعلق بعلم النجوم من حيث القبلة وجهتها : « أما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والحد الذي يعرف به الزوال وتعلم به جهة القبلة فإنه غير داخل فيما نهى عنه ، وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل ما دام متناقصاً فالشمس صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقى ، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربى . وهذا علم يصح إدراكه بالمشاهدة ، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوها من الآلات التى يستغنى الناظر عن مراعاة مدته ومراصدته. وأما ما يستدل به فى النجوم على جهة القبلة فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة من الأئمة

وعن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثةٌ لايَدخلون الجنة : مُدْمِنُ الخمرِ : ومُصدِّقٌ بِالسِّحْرِ ، وقاطعُ الرَّحِمِ » . رواه أحمد وابن حِبَّانَ فى صحيحه (١) .

الذين لا نشك فى عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها ، مثل أن يشاهدها بحضرة الكعبة ، أو يشاهدها على حال الغيبة عنها ، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة ، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم ، إذ كانوا عندنا غير متهمين في دينهم ، ولا مقصرين في معرفتهم » :

(١) الحديث رواه أيضاً الطبرانى في معجمة الكبير ، والحاكم وقال : صحيح ، وأقره الحافظ الذهبي وتمامه : « ومن مات وهو يدمن الخمر سقاه الله من نهر الغوطة، نهر يجري من فروج المومسات ، يؤذى أهل النار ريح فروجهن » . وقوله « ثلاثة لا يدخلون الجنة » هذا من نصوص الوعيد التى كره السلف الصالح رضى الله عنهم تأويلها ، وقالوا : أمرّوها كما جاءت ، وهو يرجع إلى مشيئة الله سبحانه وتعالى ، فإن عذبه فباستحقاقه ذلك ، وإن غفر له فبفضله وعفوه ورحمته . ومعنى قوله « مدمن الخمر » المداوم على شربها حتى مات ولم يتب . و« قطع الرحم » عدم صلة الأقارب بما يليق بهم ، قال تعالى : (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) ، وقطع الرحم من الكبائر . وقوله «ومصدق بالسحر» أي بجميع أنواعه ، ومنه النجوم ، وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة. قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي في كتابه عد الكبائر : « ويدخل فيه تعلم السيما وعملها ، وعقد المرء عن زوجته ، ومحبة الزوج لامرأته وبعضها وبغضه ، وأشباه ذلك ، بكلمات مجهولة . قال : وكثير من الكبائر بل عامتها إلا الأقل يجهل خلق من الأمة تحريمه ، وما بلغه الزجر فيه ولا الوعيد عليه » .

فيه مسائل : الأولى الحكمة فى خلق النجوم . الثانية الرد على من زعم غير ذلك . الثالثة ذكر الخلاف فى تعلم المنازل . الرابعة الوعيد فيمن صدق بشىء من السحر ولو عرف أنه باطل .

﴿ باب ما جاء فى الاستسقاء بالأَنْواءِ[١] ﴾

وقول الله تعالى (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)[٢]

---

(١) الاستسقاء : طلب السقيا ، والمراد به هنا نسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء ، وهي جمع نوء . قال النووى في شرح مسلم : « وأما النوء ففيه كلام طويل قد لخصه الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله فقال : النوء في أصله ليس هو نفس الكوكب ، فإنه مصدر ناء النجم ينوء نوءاً أى سقط وغاب ، وقيل أي نهض وطلع . وبيان ذلك : أن ثمانية وعشرين نجما معروفة المطالع في أزمنة السنة كلها ، وهي المعروفة بمنازل القمر الثمانية والعشرين ، يسقط في كل ثلاث عشرة ليلة منها نجم في المغرب مع طلوع الفجر ، ويطلع آخر يقابله فى المشرق من ساعته . وكان أهل الجاهلية إذا كان عند ذلك مطر ينسبونه إلى الساقط الغارب منها ، وقال الأصمعى : إلى الطالع منهما ، قال أبو عبيد : ولم أسمع أحداً ينسب النوء للسقوط إلا في هذا الموضع ، ثم إن النجم نفسه قد يسمى نوءاً تسمية للفاعل بالمصدر ، قال أبو إسحق الزجاج في بعض أماليه : الساقطة فى المغرب هي الأنواء ، والطالعة فى المشرق هى البوارح » . وذكر ابن الأثير في النهاية قريباً من هذا إلا أنه قال : « هى ثمان وعشرون منزلة ، ينزل القمر كل ليلة منزلة منها » .

(٢) ونظم الآيات القرآنية التى قبلها هكذا : (فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين . أفبهذا الحديث أنتم مدهنون . وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) . أخبر

وعن أبي مالك الأشعريّ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله

سبحانه بأن الأمر عظيم لا يحتاج إلى قسم ما ، فضلا عن هذا القسم العظيم ، وهو مواقع النجوم ، أي مساقط كواكب السماء ومغاربها ، كما جاء فى رواية عن قتادة والحسن أن الوقوع بمعنى السقوط والغروب ، وتخصيصها بالقسم لما فى غروبها من زوال أثرها والدلالة على مؤثر دائم لا يتغير ، ولذا استدل الخليل صلوات الله وسلامه عليه بالأفول على وجود الصانع عز وجل ، أو لأن ذلك وقت قيام المتهجدين والمبتهلين إليه تعالى وأوان نزول الرحمة والرضوان عليهم ، روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعونى فأستجيب له من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له » . وقال جماعة منهم ابن عباس : النجوم نجوم القرآن ، ومواقعها أوقات نزولها . روى النسائي وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عنه أنه قال : « أنزل القرآن فى ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم فرق فى السنين » . وفي لفظ : « ثم نزل من الدنيا إلى الأرض نجوماً ، ثم قرأ (فلا أقسم بمواقع النجوم) » . وأيد هذا بأن الضمير في قوله تعالى بعد : (إنه لقرآن كريم) يعود حينئذ على ما يفهم من مواقع النجوم حتى يكاد يعد كالمذكور صريحاً . وقوله : (إنه لقرآن كريم) تعظيم للقسم مقرر مؤكد له . وجواب « لو » إما متروك أريد به نفي علمهم ، أو محذوف ثقة بظهوره ، أي لعظمتموه أو لعملتم بموجبه . وقوله تعالى : (في كتاب مكنون) وصف آخر للقرآن ، أي كائن في كتاب مصون عن غير المقربين من الملائكة عليهم السلام ، لا يطلع عليه من سواهم ، فالمراد به اللوح المحفوظ ، كما روي عن الربيع بن أنس وغيره ، وقيل في كتاب مصون عن التبديل والتغيير ، وهو المصحف الذي بأيدينا . وقوله تعالى : (لا يمسه إلا المطهرون) إما صفة بعد صفة لكتاب ، مراداً به اللوح ، فالمراد بالمطهرون الملائكة عليهم السلام ، أي المنزهون عن كدر الطبيعة ودنس الحظوظ النفسية ، وإما صفة أخرى لقرآن ، والمراد بالمطهرين المطهرون من الحدث الأصغر والأكبر ، بحمل الطهارة

عليه وسلم قال : أربعٌ فى أمَّتى من أمرِ الجاهلية لا يتركونَهُنَّ : الفخرُ بالأحسابِ ، والطَّعنُ فى الأنسابِ ، والاستسقاءِ بالنجومِ ، والنِّيَاحَةُ . وقال : النَّائِحَةُ إِذا لم تَتُبْ قبل موتِها تُقامُ يومَ القيامة وعليها سِرْبالٌ

على الشرعية ، والمعنى لا ينبغي أن يمس القرآن إلا من هو على طهارة من الناس ، وهو بمعنى النهي ، نظير قوله تعالى : (الزاني لا ينكح إلا زانية) بل هو أبلغ من النهي الصريح. وقوله عز وجل : (تنزيل من رب العالمين) صفة أخرى للقرآن ، أي منزل . وقوله جل ذكره : (أفبهذا الحديث) أي أتعرضون فبهذا الحديث الذي ذكرت نعوته الجليلة الموجبة لإعظامه وإجلاله والإيمان بما تضمنه وأرشد إليه وهو القرآن الحكيم (أنتم مدهنون) متهاونون به ، وعن ابن عباس والزجاج : مدهنون مكذبون ، وعن مجاهد : أي منافقون في التصديق به تقولون للمؤمنين آمنا به وإذا خلوتم إلى إخوانكم قلتم إنا معكم. فعلى الأول الخطاب للكفار ، وعلى الثاني للمنافقين ، والأول أولى . وقوله : (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) أي شكركم ، تقولون مطرنا بنجم كذا وكذا وبنوء كذا وكذا ، فأنزل الله تعالى وتجعلون شكركم أنكم إذا مطرتم تكذبون ، ومعنى جعل شكرهم التكذيب : جعل التكذيب مكان الشكر ، فكأنه عينه عندهم ، فهو من باب ٭ تحية بينهم ضرب وجيع ٭ وأكثر الروايات أن قوله تعالى (وتجعلون) إلخ نزل في القائلين مطرنا بنوء كذا ، من غير تعرض لما قبل . وأخرج مسلم وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : « مطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر : قالوا هذه رحمة وضعها الله ، وقال بعضهم لقد صدق نوء كذا ، فنزلت هذه الآية (فلا أقسم بمواقع النجوم — حتى بلغ — وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) » . قال العلامة ابن القيم : أي تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم التكذيب به ، يعني القرآن . وبهذا يظهر لك وجه استدلال المؤلف بالآية على ذلك . والله أعلم .

من قَطِرَانٍ ، ودِرعٌ من جَرَبٍ » رواه مسلم (١). ولهما عن زيد بن

---

(١) قال العلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن في فتح المجيد : « ستفعلها هذه الأمة إما مع العلم بتحريمها أو مع الجهل بذلك ، مع كونها من أعمال الجاهلية المذمومة المكروهة المحرمة . والمراد بالجاهلية هنا ماقبل المبعث، سموابذلك لفرط جهلهم . وكل مايخالف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فهو جاهلية ، فقد خالفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في كثير من أمورهم أو أكثرها ، وذلك يدرك بتدبر القرآن ومعرفة السنة . ولشيخنا رحمه الله مصنف لطيف ذكر فيه ما خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه أهل الجاهلية ، فبلغ مائة وعشرين مسألة . قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ، ذماً لمن لم يتركه ، وهذا يقتضي أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام ، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها ، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم ، وهذا كقوله تعالى : (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة . وقوله : والفخر بالأحساب ، أي التعاظم على الناس بالآباء ومآثرهم ، وذلك جهل عظيم ، إذ لا كرم إلا بالتقوى ،كما قال تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، وقال تعالى : (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً) الآية . ولأبي داود عن أبي هريرة مرفوعاً : إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي ، الناس بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أوليكونن أهون على الله من الجعلان . قوله : والطعن في الأنساب ، أي الوقوع فيها بالعيب والتنقص، ولما عير أبو ذر رضي الله عنه رجلا بأمه قال النبي صلى الله عليه وسلم : أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية . فدل على أن الطعن في الأنساب من عمل الجاهلية ، وأن المسلم قد يكون فيه شيء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه . قاله شيخ الإسلام رحمه الله تعالى . قوله : الاستسقاء بالنجوم ، أي نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم ، كما أخرج الإمام أحمد وابن جرير عن جابر السوائي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أخاف على أمتي ثلاثاً ، استسقاء بالنجوم ،

خالد رضى الله عنه قال : « صَلَّى لَنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم صلاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ على إِثْرِ سَماءٍ كانت من الليلِ، فلما انْصَرَفَ أَقْبَلَ على الناس فقال : هَلْ تَدْرُونَ ماذا قال رَبُّكُمْ ؟ قالوا : اللهُ

وحيف السلطان ، وتكذيباً بالقدر . فإذا قال قائلهم مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا ، فلا يخلو إما أن يعتقد أن له تأثيراً في إنزال المطر ، فهذا شرك وكفر ، وهذا هو الذي يعتقده أهل الجاهلية ، وإما أن يقول مطرنا بنوء كذا مثلا لكن مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده ، لكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم ، والصحيح أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم ولو على طريق المجاز ، فقد صرح ابن مفلح فى الفروع بأنه يحرم قول مطرنا بنوء كذا ، وجزم في الإنصاف بتحريمه ولو على طريق المجاز ، ولم يذكرا خلافاً . وذلك أن القائل لذلك نسب ما هو من فعل الله تعالى الذى لا يقدر عليه غيره إلى خلق مسخر لا ينفع ولا يضر ولا قدرة له على شيء ، فيكون ذلك شركا أصغر . قوله : والنياحة ، أي رفع الصوت بالندب على الميت ، لأنها تسخط بقضاء الله ، وذلك ينافي الصبر الواجب ، وهي من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة . قوله : النائحة إذا لم تتب قبل موتها ، فيه تنبيه على أن التوبة تكفر الذنب وإن عظم ، وهذا مجمع عليه في الجملة ، ويكفر أيضاً بالحسنات الماحية والمصائب ودعاء المسلمين بعضهم لبعض ، وبالشفاعة بإذن الله ، وعفو الله عمن شاء ممن لا يشرك به شيئاً . وفي الحديث عن ابن عمر مرفوعاً : إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر . رواه أحمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان . قوله : تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب ، قال القرطبي : السربال واحد السرابيل ، وهى الثياب والقمص ، يعني أنهن يلطخن بالقطران فيكون لهن كالقمص حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن أعظم ورائحتهن أنتن وألمهن بسبب الجرب أشد » . والقطران — بفتح القاف وكسر الطاء — ما يتقطر من الهناء فيدهن به الإبل ، وعن ابن عباس أنه هو النحاس المذاب . قوله « ودرع من جرب » يعني يسلط على أعضائها الجرب والحكة بحيث يغطى بدنها تغطية الدرع وهو القميص ، لأنها كانت تجرح بكلماتها المحرقة قلوب ذوي المصيبات .

ورسولهُ أعْلَمُ ، قال : قال : أَصْبَحَ من عِبادِى مُؤْمِنٌ بى وكَافِرٌ ، فأمَّا من قال مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ فذلك مُؤْمِنٌ بى كافِرٌ بالكَوْكَبِ(١) ، وأمَّا من قال مُطِرْنا بِنَوْءِ كذا وكذا فذلك كافرٌ بى

---

(١) قوله : « صلى لنا » اللام بمعنى الباء أي صلى بنا ، قال الحافظ ابن حجر : وفيه إطلاق ذلك مجازا وإنما الصلاة لله . و « الحديبية » قال النووي : فيها لغتان تخفيف الياء وتشديدها ، والتخفيف هو الصحيح المشهور المختار ، وهي بضم الحاء المهملة وفتح الدال وياء ساكنة وباء موحدة مكسورة ، قرية سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه عندها ، وبينها وبين مكة مرحلة ، وبعضها في الحل ، وهي أبعد الحل من البيت . وقوله « على إثر سماء » هو بكسر الهمزة وإسكان الثاء وبفتحهما جميعاً لغتان مشهورتان . والسماء المطر ، لأنه ينزل من السحاب ، ويطلق السماء على كل ما ارتفع . وقوله « فلما انصرف » أي من صلاته التفت إلى المأمومين فقال : «هل تدرون » الاستفهام للتنبيه ، وفى النسائي « ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة » . وهذا الحديث يدخل في الأحاديث القدسية . وقوله « قالوا الله ورسوله أعلم » هذه صفة المؤمن العاقل إذا سئل عما لا يعلم وكل العلم إلى عالمه . وما أحسن أدب الصحابة مع نبيهم ، اللهم ارزقنا الأخلاق المرضية والآداب العالية . وقوله « أصبح من عبادي مؤمن » الإضافة هنا للعموم بدليل قوله « مؤمن وكافر » وكقوله تعالى : (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) . قال النووي في شرح مسلم : وأما معنى الحديث ، فاختلف العلماء في كفر من قال مطرنا بنوء كذا على قولين : أحدهما هو كفر بالله سبحانه وتعالى سالب لأصل الإيمان مخرج من ملة الإسلام ، قالوا : وهذا فيمن قال ذلك معتقداً أن الكوكب فاعل مدبر منشىء للمطر ، كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم ، ومن اعتقد هذا فلا شك في كفره ، وهذا القول هو الذي ذهب إليه جماهير العلماء والشافعى منهم ، وهو ظاهر الحديث ، قالوا : وعلى هذا لو قال مطرنا بنوء كذا معتقداً أنه من الله تعالى ورحمته وأن النوء ميقات له وعلامة اعتباراً

مؤمنٌ بالكوكبِ » . ولهما من حديث ابن عباس معناه ، وفيه : قال بعضهم : « لقد صَدَقَ نوْءُ كذا وكذا ، فأنزل اللهُ هذه الآية (فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) إلى قوله (تُكَذِّبُونَ) » .

فيه مسائل : الأولى تفسير آية الواقعة . الثانية ذكر الأربع التى من أمر الجاهلية . الثالثة ذكر الكفر فى بعضها . الرابعة أن من الكفر ما لا يخرج عن الملة . الخامسة قوله « أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر » بسبب نزول النعمة . السادسة التفطن للإيمان فى هذا الموضع . السابعة التفطن للكفر فى هذا الموضع . الثامنة التفطن لقوله « لقد صدق نوء كذا وكذا » . التاسعة إخراج العالم للتعليم للمسألة بالاستفهام عنها ، لقوله « أتدرون ماذا قال ربكم » . العاشرة وعيد النائحة .

بالعادة ، فكأنه قال مطرنا في وقت كذا ، فهذا لا يكفر ، واختلفوا في كراهته ، والأظهر كراهته ، لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها ، وسبب الكراهة أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بصاحبها ، ولأنها شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم . والقول الثاني في أصل تأويل الحديث : أن المراد كفر نعمة الله تعالى لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكوكب ، وهذا فيمن لا يعتقد تدبير الكوكب . ويؤيد هذا التأويل الرواية الأخيرة في الباب « أصبح من الناس شاكر وكافر » وفي الرواية الأخرى « ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين » ، وفى الرواية الأخرى « ما أنزل الله تعالى من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين » ، فقوله « بها » يدل على أنه كفر بالنعمة والله أعلم . أقول : مقتضى بيان سبب الكراهة أن الكراهة كراهة تحريم لا تنزيه ، لأن من قال كلمة مترددة بين الكفر وغيره لا يصح أن يقال لا إثم عليه ، فإن هذا للقائل يفتح بذلك باب التساهل والتمادي في ذلك ، فالأظهر أنه يأثم بذلك . والله أعلم .

﴿ باب قول الله تعالى ﴾

(ومن النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ)(١).

وقولِهِ : (قُلْ إنْ كانَ آبَاؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُمْ) إلى قوله (أَحَبَّ إلَيْكُمْ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ)(٢).

---

(١) قال ابن القيم في مدارج السالكين : « أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً ، فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية ، فإن أحداً من أهل الأرض لا يثبت هذا الند ، بخلاف ند المحبة ، فإن أكثر الناس قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم . ثم قال تعالى : (والذين آمنوا أشد حباً لله) . وفي تقدير الآية قولان : أحدهما والذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله . والثاني والذين آمنوا أشد حباً لله من محبة المشركين بالأنداد لله ، فإن محبة المؤمنين خالصة ، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها ، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة » .

(٢) قول الله جل وعلا : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله) الآية : خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأمر له عليه السلام بأن يثبت المؤمنين ويقوي عزائمهم على الانتهاء عما نهوا عنه من موالاة الآباء والإخوان ، ويزهدهم فيهم وفيمن يجري مجراهم ، ويقطع علائقهم عن زخارف الدنيا الدنيئة على وجه التوبيخ والترهيب . وقوله (وأموال اقترفتموها) أي اكتسبتموها ، وأصل الاقتراف اقتطاع الشيء من مكانه إلى

عن أنس أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتى أَكُونَ أَحَبَّ إليه من ولده ووالده والنَّاسِ أَجْمَعِينَ »⁽¹⁾ أخرجاه .

ولهما عنه : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثَلَاثٌ

غيره . (وتجارة) أي أمتعة اشتريتموها للتجارة والربح (تخشون كسادها) بفوات وقت رواجها (ومساكن ترضونها) أي منازل تعجبكم الإقامة فيها ، (أحب إليكم من الله ورسوله) بالحب الاختياري المستتبع لأثره ، الذي هو الملازمة وتقديم الطاعة ، لا ميل الطبع ، فإنه أمر جبلي لا يمكن تركه ولا يؤاخذ عليه ، ولا يكلف الإنسان بالامتناع عنه . والله أعلم .

(١) نقل النووي كلام الخطابي في معنى الحديث قال : « قال الإمام أبو سليمان الخطابي: لم يرد به حب الطبع ، بل أراد به حب الاختيار ، لأن حب الإنسان نفسه طبع ، ولا سبيل إلى قلبه ، قال : فمعناه لا تصدق في حبي حتى تفنى في طاعتي نفسك وتؤثر رضاي على هواك وإن كان فيه هلاكك ، هذا كلام الخطابي . وقال ابن بطال والقاضي عياض وغيرهما رحمة الله عليهم : المحبة ثلاثة أقسام : محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد ، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد ، ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر الناس ، فجمع صلى الله عليه وسلم أصناف المحبة في محبته . قال ابن بطال رحمه الله : ومعنى الحديث أن من استكمل الإيمان علم أن حق النبي صلى الله عليه وسلم آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين ، لأنه به صلى الله عليه وسلم استنقذنا من النار وهدينا من الضلال . قال القاضي عياض رحمه الله تعالى : ومن محبته صلى الله عليه وسلم نصرة سنته والذب عن شريعته وتمنى حضور حياته فيبذل ماله ونفسه دونه ، قال : وإذا تبين ما ذكرناه تبين أن حقيقة الإيمان لا تتم إلا بذلك ، ولا يصح الايمان إلا بتحقيق إعلاء قدر النبي صلى الله عليه وسلم ومنزلته على والد وولد ، ومحسن ومفضل ، ومن لم يعتقد هذا واعتقد ما سواه فليس بمؤمن » .

مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ : أن يكونَ اللّهُ ورسولُه أَحَبَّ إليه مما سواهما ، وأَنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّهُ إلاَّ لِلّهِ ، وأن يَكْرَهَ أن يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللّهُ منه كما يَكْرَهُ أن يُقْذَفَ فِي النَّارِ »[١] .

---

(١) هذا حديث عظيم وأصل من أصول الإسلام . قال العلماء رحمهم الله تعالى : معنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات وتحمل المشقات في رضا الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وإيثار ذلك على عرض الدنيا ، ومحبة العبد ربه سبحانه وتعالى بفعل طاعته وترك مخالفته ، وكذلك محبة رسوله صلى الله عليه وسلم. ولا تصح المحبة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم حقيقة وحب الآدمي في الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وكراهة الرجوع إلى الكفر إلا لمن قوي بالإيمان يقينه واطمأنت به نفسه وانشرح له صدره وخالط لحمه ودمه . وهذا هو الذي وجد حلاوته . والحب في الله من ثمرات حب الله تعالى . ا هـ من كلام القاضي عياض رحمه الله تعالى باختصار . وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم من المهاجرين والأنصار في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما يؤثر بعضهم بعضاً على نفسه محبة في الله وتقرباً إليه ، كما قال تعالى : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . وفي سنن ابن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : «لقد رأيتنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما منا أحد يرى أنه أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم» . قال الإمام الورع أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة في كتابه « بهجة النفوس » : ظاهر الحديث يدل على أن الإيمان على قسمين : بحلاوة وبغير حلاوة ، ومنه قوله عليه السلام : « الإيمان إيمانان : إيمان لا يدخل صاحبه النار ، وإيمان لا يخلد صاحبه في النار » . فالإيمان الذي لا يدخل صاحبه النار هو ما كان بالحلاوة ، والإيمان الذي لا يخلد صاحبه في النار هو ما كان بغير حلاوة . والكلام عليه من وجوه : [ونقتصر على ما يتعلق بالموضوع] (الوجه الأول) : الحلاوة المذكورة هل هي محسوسة أو معنوية ؟ قد اختلف العلماء في ذلك ، فحملها قوم على المعنى وهم الفقهاء ، وحملها قوم على المحسوس وأبقوا اللفظ

وفى رواية : « لا يَجِدُ أَحَدٌ حَلاَوَةَ الايمَانِ حتى » إلى آخره .

على ظاهره من غير أن يتأولوا وهم أهل الصفة ، والصواب معهم في ذلك والله أعلم ، لأن ما ذهبوا إليه أبقوا به لفظ الحديث على ظاهره من غير تأويل ، وهو أحسن من التأويل ، ما لم يعارض لظاهر اللفظ معارض . ويشهد لما ذهبوا إليه أحوال الصحابة رضي الله عنهم والسلف الصالح وأهل المعاملات ، لأنه قد حكي عنهم أنهم وجدوا الحلاوة محسوسة ، فمن جملة ما حكي في ذلك حديث بلال رضي الله عنه حين صنع به ما صنع في الرمضاء إكراهاً على الكفر وهو يقول أحد أحد ، فمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان ، وكذلك أيضاً عند موته ، أهله يقولون : وا كرباه ، وهو يقول : وا طرباه

غداً ألقى الأحبه　　　محمـــد وحـــزبه

فمزج مرارة الموت بحلاوة اللقاء ، وهى حلاوة الإيمان . ومنها حديث الصحابى الذى سرق فرسه بليل وهو في الصلاة ، فرأى السارق حين أخذه فلم يقطع لذلك صلاته ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : ما كنت فيه أكبر من ذلك . ولا ذاك إلا للحلاوة التي وجدها محسوسة في وقته ذلك . ومنها حديث الصحابيين اللذين جعلهما النبي صلى الله عليه وسلم في بعض مغازيه ليلة يحرسان جيش المسلمين ، فنام أحدهما وقام الآخر يصلي ، فإذا الجاسوس من قبل العدو قد أقبل ، فرآهما ، فـكبد الجاسوس القوس ورمى الصحابى فأصابه ، فبقى على صلاته ولم يقطعها ، ثم رماه ثانية فأصابه، فلم يقطع لذلك صلاته ، ثم رماه ثالثة فأصابه، فعند ذلك أيقظ صاحبه ، وقال : لولا أنى خفت على المسلمين ما قطعت صلاتي . وما ذاك إلا لشدة ما وجد فيها من الحلاوة حتى أذهبت عنه ما يجده من ألم السهام (ومثل هذا ما حكي عن كثير من أهل المعاملات يطول الـكلام عليه وفيما ذكرناه كفاية ، إلى آخر ما ذكره من الوجوه) ، ثم قال : فلأجل هذه النسبة وهذا الاتحاد الذي بين الشجرة والإيمان عبر عليه السلام في الحديث بالحلاوة ولم يعبر بغيرها ، ليقع المثال في كل الحالات . ومنه قوله عليه السلام : « الناس كشجر ذات جنا ويوشك أن يعود كشجر ذات شوك » الحديث ، فشبههم عليه السلام أيضاً بالشجر ، وهم كذلك لا شك فيه ، لأن من تقدم من

وعن ابن عباس : « من أَحبَّ في الله وأَبْغَضَ في الله ووَالَى في الله وعَادَى في الله ، فإِنَّمَا تُنَالُ وَلاَيَةُ الله بذلك[١] ، ولن يجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإِيمان وإنْ كَثُرَتْ صلاته وصومه حتى يكون كذلك ، وقد صارتْ عَامَّةُ مُوَاخَاةِ الناس على أَمْرِ الدنيا ، وذلك لا يُجْدِي

السلف كان إيمانهم كاملا بتتبعهم للأمر والنهي وحبهم لله ورسوله صلى الله عليه وسلم والنصيحة التي كانت بينهم ، حتى لقد كانوا إذا التقى بعضهم مع بعض يقولون : تعال نؤمن، فكأن شجرة إيمانهم تناهت في الطيب والحلاوة . وأما اليوم فقد ذهب ذلك ، وظهر ما أخبر به عليه السلام لرجوعهم كشجر ذات شوك ، لعدم اتباعهم للأمر والنهي وترك النصيحة بينهم والغش الذى في صدورهم ، فرجع موضع النصيحة غشا ، وموضع الامتثال مخالفة ، فلم يبق معهم من صفة الإيمان في غالب أحوالهم إلا النطق بالكلمة ، وما عداها من الأفعال بضد ما يقتضيه الإيمان ، فبقى لهم الأصل وذهبت ثمرته التي هى الأعمال ، كما هي شجرة السدر مع شجرة الثمر إذا أبدلت مكانها ، فالأولى كانت تطعم الثمر وله حلاوة ، والثانية تنبت الشوك ، هذا هو حال عامتهم اليوم ، اللهم إلا القليل النادر ، لقوله عليه السلام : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة لا يضرهم من خالفهم » فهذه الطائفة التي أخبر بها عليه السلام هى التي لم تزل ثمرة تطعم وتتناهى في الحلاوة كما كان السلف رضي الله عنهم ، ولولاهم ما أمطرت السماء قطرة ، ولا أنبتت خضرة ، ولوقع الهلاك بمن تقدم ذكرهم ، ولكنه عز وجل يمهلهم لمجاورتهم لأهل الإيمان المتحققين ، إكراماً لأوليائه وترفيعاً . جعلنا الله من أوليائه بمنه ويمنه .

(١) الولاية — بفتح الواو — الأخوة والمحبة والنصرة ، وبالكسر الإنابة ، والمراد هنا الأول ، وروى أحمد والطبراني عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله ، فإذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق الولاية لله » .

على أهله شيئاً »[١] رواه ابنُ جَرِيرٍ.

وقال ابن عباس فى قوله (وتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ) قال : المَوَدَّةُ[٢] .

فيه مسائل : الأولى تفسير آية البقرة . الثانية تفسير آية براءة[٣] . الثالثة وجوب محبته صلى الله عليه وسلم على النفس والأهل والمال . الرابعة نفى الإيمان لايدل على الخروج من الإسلام . الخامسة أن للإيمان حلاوة قد يجدها

---

(١) أنظر يا أخى — حماني الله وإياك مخالفة الشرع الشريف واتباع الهوى والنفس الخبيثة — إلى قول ابن عباس رضى الله عنه ، وهوفي عصر الصحابة والقرن الأول المشهود له بالأخيرية ، وقارن بينه وبين عصرنا هذا الفاسد أهله ، فلقد وقعت الموالاة على الشرك والبدع والفسوق والعصيان ، وقد وقع كل ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ » فنسأل الله السلامة في ديننا وأهلنا إنه بعباده رؤف رحيم .

(٢) روى هذا الأثر عبد بن حميـــد وابن جرير الطبرى وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه . والمودة ، أى التي كانت بينهم في الدنيا ، خانتهم أحوج ما كانوا إليها ، وتبرأ بعضهم من بعض ، كما قال الله عز وجل في كتابه : (وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض و يلعن بعضكم بعضاً) الآية .

(٣) هي قوله تعالى : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين) .

الإنسان وقد لايجدها . السادسة أعمال القلب الأربع التى لاتنال ولاية الله إلا بها ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها . السابعة فهم الصحابى للواقع : أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا . الثامنة تفسير (وتقطعت بهم الأسباب) . التاسعة أن من المشركين من يحب الله حبًّا شديداً . العاشرة الوعيد على من كان الثمانية أحب إليه من دينه . الحادية عشرة أن من اتخذ نداً تساوى محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر .

﴿ باب قول الله تعالى ﴾

(إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(١)) وقوله : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ

---

(١) قوله : (إنما ذلكم الشيطان) الخطاب للمؤمنين ، واسم الإشارة إلى المثبط ، والشيطان : إبليس لأنه علم له ، والمراد بالأولياء أبو سفيان وأصحابه ، أو المتخلفون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمعنى على الأول أي يخوفكم أولياءه بأن يعظمهم في قلوبكم . وعلى الثاني أي يوقعهم في الخوف أو يخوفهم من أبي سفيان وأصحابه . (فلا تخافوهم) أي فلا تخافوا أولياءه الذين خوفكم إياهم . (وخافون) في مخالفة أمري (إن كنتم مؤمنين) ، لأن الإيمان يقتضي أن تؤثروا خوف الله تعالى على خوف الناس . قال ابن القيم : الخوف عبودية القلب فلا يصلح إلا لله ، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب . والخوف عرفه الجنيد بأنه توقع العقوبة على مجاري الأنفاس . قال فى مدارج السالكين في منزلة الخوف : وهى من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب ، وهي فرض على كل أحد ، قال الله تعالى : (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) وقال تعالى : (فإياى فارهبون) وقال تعالى : (ولا تخشوا الناس واخشون) . وقال : الخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل ،

بالله واليوم الآخِرِ وأقامَ الصَّلاةَ وآتى الزَّكاةَ ولم يَخْشَ إلاَّ اللهَ)(١)

فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط . قال في الشرح : « والخوف من حيث هو على ثلاثة أقسام : أحدها ، خوف السر ، وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره ، كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام أنهم قالوا له : (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال إني اشهد الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه ، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون) . وقال تعالى : (ويخوفونك بالذين من دونه) . وهذا هو الواقع من عباد القبور ونحوها من الأوثان ، يخافونها ويخوفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة لله ، وهذا ينافي التوحيد . الثاني ، أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفاً من بعض الناس ، فهذا محرم ، وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد . وهذا هو سبب نزول هذه الآية، كما قال تعالى : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) الآيات ، وفي الحديث : « إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك إذ رأيت المنكر أن لا تغيره ؟ فيقول : رب خشية الناس ، فيقول : إياي كنت أحق أن تخشى » . الثالث . الخوف الطبيعي ، وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك ، فهذا لا يذم ، كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام : (فخرج منها خائفاً يترقب) الآية » .

(١) أي إنما يليق بعمارة مساجد الله سبحانه وتعالى من آمن بالله واليوم الآخر على الوجه الذي نطق به الوحي ، (وأقام الصلاة) ، أي داوم عليها مستوفية لأركانها وسننها على منهج الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه المصطفين الأخيار ، (وآتى الزكاة) ، أي أخرجها وأعطاها مستحقيها من الأصناف الثمانية . والمراد بالعمارة ما يعم مرمة ما استرم منها وقمها وكنسها وتنظيفها وتزيينها بالفرش ، لا على وجه يشغل قلب المصلي عن الحضور ، كما هي غالب المساجد الآن ، وإدامة العبادة والذكر ودراسة العلوم الشرعية فيها ونحو ذلك ، وصيانتها مما لم تبن له في نظر الشارع ، كحديث الدنيا ، والغناء على مآذنها كما هو معتاد الناس اليوم ، والأذكار غير المشروعة ، ورفع الأصوات فيها ، يفعل ذلك ولا يخشى أحداً إلا الله تعالى ، فيعمل بموجب أمره ونهيه ، غير خائف في الله لومة لائم ولا عدوان ظالم .

الآية . وقوله : (ومِنَ الناسِ مَنْ يقول آمَنَّا بِاللهِ فإذا أُوذِيَ في الله جَعَلَ فِتْنَةَ الناس كعذابِ اللهِ)(١) الآية .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا : « إنَّ مِنْ ضَعْفِ اليَقينِ أن تُرْضِيَ النَاسَ بسَخَطِ الله ، وأنْ تَحْمَدَهم على رِزْقِ اللهِ ، وأنْ تَذُمَّهم على ما لم يُؤْتِكَ اللهُ ، إنَّ رِزْقَ اللهِ لا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ ، ولا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ »(٢) .

---

(١) قوله : (ومن الناس) أى بعض الناس ، (من يقول آمنا بالله فاذا أوذى في الله) أى لأجله جل وعلا أو في سبيله ، بأن عذبهم المشركون على الإيمان به كما حصل في مبدأ النبوة ، (جعل فتنة الناس) ، أى نزلوا ما يصيبهم من أذيتهم ، (كعذاب الله) ، في الآخرة ، فجزعوا من ذلك ولم يصبروا ، وأطاعوا الناس وكفروا بالله تعالى ، كما يطيع الله تعالى من يخاف عذابه سبحانه فيؤمن به ، (ولئن جاء نصر من ربك) من فتح وغنيمة (ليقولن إنا كنا معكم) مشايعين لكم في الدين فأشركونا فيما حصل من الغنيمة ، أو مقاتلين معكم ناصرين لكم ، فرد الله عليه ذلك بقوله : (أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين) ، أى لا يخفى عليه حالهم فيعلم بما في صدور العالمين من الأخلاق والنفاق ، ومتى كان الرب تبارك وتعالى كذلك فلا يليق بحال الإنسان أن يخاف غيره . نسأل الله الصدق والإخلاص في العبادة لله وحده لاشريك له .

(٢) الحديث لم يبين المؤلف من خرجه ، وقد رواه أبو نعيم في الحلية والبيهق ، وأعله بمحمد بن مروان السدى وقال : ضعيف . وفيه أيضاً عطية العوفي ، ذكره الذهبي في الضعفاء والمتروكين . وتمامه : « وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضا واليقين ،

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ عنه وأرضى عنه النَّاسَ ، ومَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عليهِ وأَسْخَطَ عليهِ النَّاسَ » . رواه ابنُ حِبَّانَ فى صحيحه[1] .

فيه مسائل . الأولى تفسير آية آل عمران . الثانية تفسير آية براءة . الثالثة تفسير آية العنكبوت . الرابعة أن اليقين يضعف ويقوى . الخامسة علامة ضعفه ، ومن ذلك هذه الثلاث . السادسة أن إخلاص الخوف لله من الفرائض . السابعة ذكر ثواب من فعله . الثامنة ذكر عقاب من تركه .

وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » . ومعنى الحديث صحيح . وإرضاء الناس بسخط الله هو أن تؤثر رضاهم على رضى الله ، وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من استجلاب رضا المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه الذي يتصرف في القلوب ويفرج الكروب ويغفر ما شاء من الذنوب ، ولا شك أن هذا يدخل في أنواع الشرك . نسأل الله السلامة .

(١) الحديث رواه أيضاً الترمذي بلفظ قريب من هذا ، ورواه أبو نعيم أيضاً . واعلم أن خير الناس من أرضى الله بسخط الناس ، فعليك يا أخي بمجاهدة نفسك وكفها عن غيها ، لأن من اتقى الله كفاه مؤنة الناس وكان في حرز منيع ، قال الله تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً . قال الحافظ ابن رجب : « فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب ، فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب ؟ أم كيف يرضى التراب بسخط الملك الوهاب ؟ إن هذا لشيء عجاب » .

﴿ باب قول الله تعالى ﴾

(وعلى الله فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) الآية[١] .

---

(١) التوكل : الاعتماد ، وهو من أعمال القلب ، وتقديم المعمول يفيد الحصر . والمعنى إن كنتم مؤمنين فلا تعتمدوا إلا على الله وحده . ومن هذه الجهة استدل المصنف بأن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله وحده لا شريك له ، فالتوكل أجمع أنواع العبادة وأعظمها ، لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة الخالصة ، فإن العبد إذا اعتمد على الله فى جميع أموره الدينية والدنيوية دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى .

والآيات والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جداً . قال ابن القيم فى مدارج السالكين (ج ٢ ص ٦٣ — ٦٤) : « التوكل نصف الدين ، ونصفه الثانى الإنابة ، فإن الدين استعانة وعبادة ، فالتوكل هو الاستعانة ، والإنابة هي العبادة . ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها ، ولا تزال معمورة بالنازلين لسعة متعلق التوكل وكثرة حوائج العالمين ، وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفار والأبرار والفجار والطير والوحش والبهائم ، فأهل السموات والأرض — المكلفون وغيرهم — في مقام التوكل وإن تباين متعلق توكلهم . فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في حصول ما يرضيه منهم وفي إقامته في الخلق ، فيتوكلون عليه في الإيمان ونصرة دينه وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه ، وفي محابه وتنفيذ أوامره ، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه ، وحفظ حاله مع الله فارغاً عن الناس ، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه من رزق أو عافية أو نصر على عدو أو زوجة أو ولد ونحو ذلك ، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول الإثم والفواحش ، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالباً إلا باستعانتهم بالله وتوكلهم عليه ، بل قد يكون توكلهم عليه أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات ، ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك معتمدين على الله أن يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم . فأفضل التوكل في الواجب ، أعنى واجب الحق وواجب الخلق وواجب النفس ، وأوسعه وأنفعه التوكل في التأثير في الخارج في

مصلحة دينية أو في دفع مفسدة دينية ، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله ودفع فساد المفسدين في الأرض ، وهذا توكل ورثتهم . ثم الناس بعدُ في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم . فلنذكر معنى التوكل ودرجاته وما قيل فيه : قال الإمام أحمد : التوكل عمل القلب . ومعنى ذلك أنه عمل قلبي ليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح ، ولا هو من باب العلوم والإدراكات . ومن الناس من يجعله من باب المعارف والعلوم ، فيقول : هو علم القلب بكفاية الرب للعبد . ومنهم من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب ، فيقول : التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب ، كانطراح الميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء ، وهو ترك الاختيار ، والاسترسال مع مجاري الأقدار . قال سهل : التوكل الاسترسال مع الله على ما يريد . ومنهم من يفسره بالرضا ، فيقول : هو الرضا بالمقدور . قال بشر الحافي : يقول أحدهم توكلت على الله ، يكذب على الله ، لو توكل على الله رضى بما يفعل الله . وسئل يحي بن معاذ : متى يكون الرجل متوكلا ؟ فقال : إذا رضى بالله وكيلا . ومنهم من يفسره بالثقة بالله والطمأنينة إليه والسكون إليه . . . . ومنهم من جعله مركباً من أمرين أو أمور . قال أبو سعيد الخراز : التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب . . . . وقال أبو تراب النخشبي : هو طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية والطمأنينة إلى الكفاية ، فإن أعطى شكر ، وإن منع صبر . فجعله مركباً من خمسة أمور . . . وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافى القيام بالأسباب ، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها ، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد . قال سهل بن عبد الله : من طعن في الحركة فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان . فالتوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم ، والكسب سنته ، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته . . . . فترك الأسباب المأمور بها قادح في التوكل ، وقد تولى الحق إيصال العبد بها . وأما ترك الأسباب المباحة ، فإن تركها لما هو أرجح منها مصلحة فممدوح ، وإلا فهو مذموم » .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : وما رجا أحد مخلوقاً ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فإنه مشرك (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) . وقال الشارح : « قلت : لكن التوكل على الله قسمان : أحدهما التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله ، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم ، من نصر أو حفظ أو رزق أو شفاعة ، فهذا شرك أكبر . الثانى التوكل

وقوله : (إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) الآية[١].

وقوله : (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ) الآية[٢]. وقوله : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على الله فَهُوَ حَسْبُهُ) .

وعن ابن عباسٍ قال : « حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الْوَكِيلُ » . قالها إبرهيم عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فى النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له : (إِنَّ النَّاسَ قد جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً) الآية . رواه البخارى والنسائى .

فيه مسائل : الأولى أن التوكل من الفرائض . الثانية أنه من شروط الإيمان. الثالثة تفسير آية الانفال [٣] . الرابعة تفسير الآية فى آخرها . الخامسة تفسير آية الطلاق . السادسة عظم شأن هذه الكلمة ، وأنها قول إبرهيم عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم فى الشدائد .

في الأسباب الظاهرة ، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله تعالى عليه من رزق أو دفع أذى ونحو ذلك ، فهو نوع شرك أصغر . والوكالة الجائزة هي توكيل الإنسان في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه ، ولكن ليس له أن يعتمد عليه في حصول ما وكل فيه ، بل يتوكل على الله في تيسير أمره الذى يطلبه بنفسه أو نائبه ، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها ، ولا يعتمد عليها ، بل يعتمد على المسبب الذى أوجد السبب والمسبب » .

(١) وجلت : خافت ، من الوجل وهو الخوف .

(٢) أي كافيك الله .

(٣) يريد قوله تعالى : (وعلى ربهم يتوكلون) .

باب قول الله تعالى

(أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا القَوْمُ الخَاسِرُونَ)(١)

وقوله : (وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)(٢) .

وعن ابن عباس : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عن الكَبائِرِ ؟ فقال : الشِّرْكُ باللهِ ، واليأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ ، والأَمْنُ من مَكْرِ اللهِ »(٣) .

---

(١) قال صاحب النهاية : « مكر الله إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه . وقيل : هو استدراج العبد بالطاعات فيتوهم أنها مقبولة ، وهي مردودة » . يعني أن الله تبارك وتعالى يسبغ على العبد نعمه على عصيانه وكفره ، ثم يأخذه بغتة وهو لا يشعر . أراد المؤلف رحمه الله تعالى بهذه الآية التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب ، وأنه ينافي كمال التوحيد ، كما أن القنوط من رحمة الله كذلك . وهذا يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء ، كما يدل على ذلك الكتاب والسنة .

(٢) القنوط : استبعاد الفرج واليأس منه ، وهو يقابل الأمن من مكر الله ، وكلاهما ذنب عظيم . قال الشارح : « ذكر المصنف رحمه الله تعالى هذه الآية مع التي قبلها تنبيهاً على أنه لا يجوز لمن خاف الله تعالى أن يقنط من رحمته ، بل يكون خائفا راجياً ، يخاف ذنوبه ويعمل بطاعته ، ويرجو رحمته » .

(٣) الروح ، بفتح الراء : الرحمة . وهذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس ، ورجاله ثقات إلا شبيب ، والأشبه أن يكون موقوفاً . قال ابن القيم : « الشرك بالله هضم للربوبية ، وتنقص للالهية ، وسوء ظن برب العالمين » .

وعن ابن مسعود قال : أَكْبَرُ الكَبائِرِ الإِشْرَاكُ بالله ، والأَمْنُ مِن مَكْرِ الله ، والقُنُوطُ مِن رَحْمَةِ اللهِ ، واليَأْسُ مِن رَوْحِ اللهِ . رواه عبد الرَّزَّاقِ[1] .

فيه مسائل . الأولى تفسير آية الأعراف . الثانية تفسير آية الحجر . الثالثة شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله . الرابعة شدة الوعيد فى القنوط .

---

(١) قال الشارح : « رواه ابن جرير باسانيد صحاح » .

﴿ باب من الإيمان بالله الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ ﴾(١)

---

(١) الصبر . الحبس والكف ، ومنه قتل فلان صبراً ، أي ، إذا أمسك وحبس ، ومنه قوله تعالى : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) أي احبس نفسك معهم ، فالصبر حبس النفس من الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن التشويش . وهو ثلاثة أنواع : صبر على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله ، وصبر على امتحان الله ، فالأولان صبر على ما يتعلق بالكسب ، والثالث صبر على ما لا كسب للعبد فيه . وقال صاحب منازل السائرين : الصبر حبس النفس على المكروه ، وعقل اللسان عن الشكوى ، وهو من أصعب المنازل على العامة وأوحشها في طريق المحبة وأنكرها في طريق التوحيد » . وهو واجب بإجماع الأمة ، قال الإمام أحمد بن حنبل : ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً ، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس في الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له ، كما أن لا جسد لمن لا رأس له ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : خير عيش أدركناه بالصبر . وفي الحديث الصحيح : « الصبر ضياء » رواه الإمام أحمد ومسلم . وللبخاري ومسلم مرفوعاً : « ما أعطى أحد عطاء خيراً من الصبر وأوسع من الصبر » . وفي الحديث الصحيح : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده حتى يلقوه على الحوض . وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر . وأمر بالصبر عند المصيبة . وأخبر انه إنما يكون عند الصدمة الأولى . وأمر المصاب بأنفع الأمور له وهو الصبر والاحتساب ، فإن ذلك يخفف مصيبته ويوفر أجره ، والجزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة ويذهب الأجر . والشكوى إلى الله عز وجل لا تنافي الصبر ، فإن يعقوب عليه السلام وعد بالصبر الجميل ، والنبي إذا وعد لا يخلف ، ثم قال : (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) . وكذلك أيوب أخبر الله عنه أنه وجده صابراً مع قوله (مسني الضر وأنت أرحم الراحمين). وإنما ينافي الصبر شكوى الله لا الشكوى إليه ، كما رأى بعضهم رجلا

وقوله تعالى : (وَمَنْ يُؤْمِنْ باللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)(١) .

قال عَلْقَمَةُ : هو الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المصيبة فَيَعْلم أنها مِنْ عِنْدِ اللهِ ، فَيَرْضَى ويُسَلِّمُ(٢) .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اثْنَتَانِ فى النَّاسِ هُما بِهِمْ كُفْرٌ : الطَّعْنُ فى النَّسَبِ والنِّيَاحَةُ على الميِّتِ » . ولهما عن ابن مسعود مرفوعًا : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ

يشكو إلى آخر فاقة « وضررورة » فقال : يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ، ثم أنشد :

وإذا عرتك بلية فاصبر لها … صبر الكريم فإنه بك أعلم

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما … تشكو الرحيم إلى الذى لا يرحم

أفاد ذلك ابن القيم مدارج فى السالكين بتصرف .

(١) نظم الآية هكذا : (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شيء عليم) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : « يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها) وهكذا قال ههنا (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) ، قال ابن عباس : بأمر الله ، يعني عن قدره ومشيئته (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) أي ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه ، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه ويقيناً صادقاً ، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيراً منه » .

(٢) هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، وعلقمة هذا هو ابن قيس بن عبدالله النخعى الكوفي ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم .

الْخُدودَ وشَقَّ الْجُيُوبَ ودَعَا بِدَعْوَى الجاهِلِيَّةِ »(١) . وعن أَنَسٍ أَنَّ

---

(١) ضرب الخدود : لطمها جزعاً على الميت ، وخص الخد بذلك لكونه الغالب في ذلك ، وإلا فضرب بقية الوجه داخل في ذلك . والجيوب : جمع جيب ، وهو ما يدخل فيه الرأس من الثوب ، وشقها : تمزيق الثوب جزعاً على الميت . و « دعوى الجاهلية » قال شيخ الإسلام عليه سحائب الرضوان : هو ندب الميت . وقال غيره : هو الدعاء بالويل والثبور . وقال ابن القيم : الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية ، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ وتفضيل بعض على بعض ، يدعو إلى ذلك ويوالى عليه ويعادى ، فكل هذا من دعوى الجاهلية . قال الحافظ ابن حجر في الفتح : « قوله : ليس منا ، أي من أهل سنتنا وطريقتنا ، وليس المراد به إخراجه عن الدين ، ولكن فائدة إيراده بهذا اللفظ المبالغة في الردع عن الوقوع في مثل ذلك ، كما يقول الرجل لولده عند معاتبته : لست منك ولست منى ، أي ما أنت على طريقتى . وقال الزين بن المنير ما ملخصه : التأويل الأول يستلزم أن يكون الخبر إنما ورد على أمر وجودي ، وهذا يصان كلام الشارع عن الحمل عليه ، والأولى أن يقال : المراد أن الواقع في ذلك يكون قد تعرض لأن يهجر ويعرض عنه فلا يختلط بجماعة السنة ، تأديباً له على استصحابه حالة الجاهلية التي قبحها الإسلام ، فهذا أولى من الحمل على ما لا يستفاد منه قدر زائد على الفعل الموجود . وحكى عن سفيان أنه كان يكره الخوض في تأويله ويقول : ينبغي أن يمسك عن ذلك ليكون أوقع في النفوس وأبلغ في الزجر . وقيل : المعنى ليس على ديننا الكامل ، أى إنه خرج من فرع من فروع الدين وإن كان معه أصله ، حكاه ابن العربي . ويظهر لى أن هذا النفى يفسره التبري الأتى في حديث أبي موسى بعد باب حيث قال : بريء منه النبي صلى الله عليه وسلم ، وأصل البراءة الانفصال من الشيء ، وكأنه توعده بأن لا يدخله في شفاعته مثلا . وقال المهلب قوله : أنا بريء ، أي من فاعل ما ذكر وقت ذلك الفعل ، ولم يرد نفيه عن الإسلام . قلت : بينهما واسطة تعرف مما تقدم أول الكلام . وهذا يدل على تحريم ما ذكر من شق الجيب وغيره ، وكأن السبب في ذلك ما تضمنه ذلك من عدم الرضا بالقضاء ، فإن وقع التصريح بالاستحلال مع العلم بالتحريم أو التسخط مثلا بما وقع فلا مانع من حمل النفى على الإخراج من الدين » .

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أرادَ اللهُ بعبْدِهِ الخيْرَ عَجَّلَ لهُ بالعُقُوبَةِ فى الدُّنيَا ، وإذا أرادَ بعبْدِهِ الشَّرَّ أمْسَكَ عنه بِذَنبِهِ حتى يُوَافِى بهِ يَوْمَ القِيامَةِ » (١) .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنَّ عِظَمَ الجزاءِ مع عِظَمِ البَلاءِ ، وإنَّ الله تعالى إذا أَحبَّ قوْماً ابْتلاهمْ ، فمَنْ رَضِىَ فَلَهُ الرِّضا ، ومَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ » . حَسَّنَهُ الترمذىُّ .

فيه مسائل : الأولى تفسير آية التغابن . الثانية أن هذا من الإيمان بالله . الثالثة الطعن فى النسب . الرابعة شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية . الخامسة علامة إرادة الله بعبده الخير . السادسة إرادة الله به الشر . السابعة علامة حب الله للعبد . الثامنة تحريم السخط . التاسعة ثواب الرضى بالبلاء .

---

(١) الحديث رواه الترمذي وحسنه والحاكم . وقوله « يوافي » هو بضم الياء المثناة من تحت آخر الحروف وكسر الفاء ، أى يجيء بها ، ولما روى الترمذى هذا الحديث وما بعده بإسناد واحد وصحابي واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد . ومعنى عجل له بالعقوبة في الدنيا أى صب عليه المصائب والبلاء لما فرط من الذنوب منه ، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافي به يوم القيامة . فالمصائب نعمة ، لأنها تكفر الذنوب وتدعو إلى الصبر ، فيثاب عليها ، وتقتضى الإنابة إلى الله والذل له ، والإعراض عن الخلق ، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة .

﴿ باب ما جاء في الرِّياءِ ﴾(١)

وقول الله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) الآية(٢) .

وعن أبي هريرة مرفوعاً : « قال الله تعالى : أنا أغنى الشُّركاءِ

---

(١) الرياء ، بكسر أوله وبالمد : ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله تعالى فيه . وحده : فعل الخير لإرادة الغير . والفرق بينه وبين السمعة : أن الرياء يكون في الفعل ، كالصلاة ، والسمعة تكون في القول ، كالقراءة والوعظ والذكر ، وهو مشتق من الرؤية .

(٢) ونظم الآية هكذا : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) ومعنى الآية والله أعلم : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم : إنما أنا بشر مثلكم ، فمن زعم أني كاذب فليأت بمثل ما جئت به فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضى عما سألتم من قصة أصحاب الكهف وخبر ذى القرنين مما هو مطابق في نفس الأمر ، لولا ما أطلعني الله عليه ، وإنما أخبركم أنما إلهكم الذى أدعوكم إلى عبادته إله واحد لا شريك له ، فمن كان يرجو لقاء ربه ، أى ثوابه وجزاءه الصالح ، فليعمل عملا صالحاً ، وهو ما كان موافقاً لشرع الله تعالى ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ، وهو الذى يراد به وجه الله جل وعز وحده لا شريك له . وهذان ركنا العمل المقبل ، لا بد أن يكون خالصاً صواباً على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى ابن أبي حاتم بسنده عن طاوس قال : قال رجل : يا رسول الله إنى أقف الموقف أريد وجه الله وأحب أن يرى موطنى ، فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً حتى نزلت هذه الآية : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

عن الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عملًا أَشْرَكَ معى فيه غيرِى تركتُه وشِرْكَهُ » . رواه مسلم(١) . وعن أبى سعيد مرفوعًا : « ألا أُخْبِرُكُمْ بما هو أَخْوَفُ عليكم عندى من المسيح الدجَّال ؟ قالوا : بلَى ، قال : الشِّرْكُ الخفِيُّ ، يَقُومُ الرَّجُلُ فيُصَلِّى فيُزَيِّنُ صلاتَهُ لِما يَرَى من نَظَرِ رَجُلٍ » . رواه أحمد(٢) .

---

(١) هذا حديث قدسى ، قال النوري في شرح مسلم : هكذا وقع في بعض الأصول « وشركه » وفي بعضها « وشريكه » وفي بعضها « وشركته » . ومعناه أنا أغنى عن المشاركة وغيرها ، فمن عمل شيئاً لي ولغيري لم أقبله ، بل أتركه لذلك الغير . والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه ويأثم به اهـ . ولابن ماجة : « فأنا منه بريء وهو للذي أشرك » . قال العلامة الطيبي : الضمير المنصوب في قوله « تركته » يجوز أن يرجع إلى العمل .

(٢) قوله : « أخوف » اسم تفضيل من خيف مبنياً للمفعول على خلاف القياس . والمعنى إني أخاف عليكم من الرياء أكثر مما أخاف عليكم من فتنة المسيح الدجال . وسمى هذا العمل شركا خفياً لأن صاحبه يظهر أن عمله لله وقد قصد به غيره أو شركه فيه بتزيين صلاته لأجله . قال ابن القيم : « وأما الشرك الأصغر فيسير الرياء والتصنع للخلق والحلف بغير الله ، وقول الرجل للرجل ما شاء الله وشئت ، وهذا من الله ومنك ، وأنا بالله وبك ، وما لي إلا الله وأنت ، وأنا متوكل على الله وعليك ، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا . وقد يكون هذا شركا أكبر بحسب حال قائله ومقصده » . قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى في قوله تعالى : (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) : أخلصه وأصوبه ، قيل : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ، فالخالص ما كان لله والصواب ما كان على السنة .

فيه مسائل : الأولى تفسير آية الكهف . الثانية الأمر العظيم فى رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله . الثالثة ذكر السبب الموجب لذلك ، وهو كمال الغنى . الرابعة أن من الأسباب أنه خير الشركاء . الخامسة خوف النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه من الرياء . السادسة أنه فسر ذلك أن المرء يصلى لله لكن يزينها لما يرى من نظر رجل .

﴿ باب من الشِّرك إرادةُ الإنسان بعمله الدنيا ﴾[1]

وقوله تعالى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحيوةَ الدُّنْيَا وزِينَتَهَا نُوَفِّ إليهم أعْمَالَهُمْ فيها) الآيتين[2] .

---

(١) أراد المؤلف رحمه الله تعالى بهذه الترجمة وما بعدها أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافي كمال التوحيد الواجب ويحبط الأعمال ، وهو أعظم من الرياء ، لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله ، وأما الرياء فقد يعرض له في عمل دون عمل ولا يسترسل معه ، والمؤمن يكون حذراً من هذا وهذا . أفاده الشارح .

(٢) تمام الآية الأولى : (وهم فيها لا يبخسون) والآية الثانية بعدها : (أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) الآيتان ١٥ و١٦ من سورة هود . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس في هذه الآية : إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا ، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً . يقول : من عمل صالحاً التماس الدنيا ، صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل، لا يعمله إلا التماس الدنيا ، يقول الله تعالى : أو فيه الذي التمس من الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذي كان يعمله لالتماس الدنيا ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

وفى الصحيح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينار ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهم ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصةِ ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ ، إنْ أُعْطِىَ رَضِىَ وإنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعِسَ وَانتَكَسَ ، وإذا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ ، طُوبَى لِعَبْدٍ أخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِى سَبِيلِ اللهِ ، أشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ ، إنْ كَانَ فِى الحِرَاسَةِ كَانَ فِى الحِرَاسَةِ ، وإنْ كان فى السَّاقَةِ كانَ فِى السَّاقَةِ ، إنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، وإنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ »(١) .

---

(١) هذا الحديث رواه البخارى في صحيحه في موضوعين : في كتاب الجهاد وكتاب الرقاق ، وليسما ذكره المؤلف موافقاً للفظ أحدهما ، ولعله نقله بالمعنى. وهاك شرح ألفاظه « تعس » بفتح أوله وكسر ثانيه ، ويجوز الفتح ، وهو ضد سعد ، تقول تعس فلان أى شقى ، وقيل : معنى التعس الكب على الوجه ، قال الخليل : التعس أن يعثر فلا يفيق من عثرته ، وقيل التعس الشر ، ومنه قوله تعالى : (فتعساً لهم) أراد إلزامهم الشر ، وقيل البعد ، وقيل الهلاك ، وقيل التعس أن يخر على وجهه والنكس أن يخر على رأسه ، وقيل تعس أخطأ حجته وبغيته . وقوله « عبد الدينار » أى طالبه الحريص على جمعه القائم على حفظه فكأنه لذلك خادمه وعبده . قال الطيبي : قيل خص العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها ، كالأسير الذى لا يجد خلاصاً ، ولم يقل مالك الدينار ولا جامع الدينار لأن المذموم من الملك والجمع الزيادة على قدر الحاجة . وقوله : « إن أعطى » إلخ يؤذن بشدة الحرص على ذلك . وقال غيره جعله عبداً لهما لشغفه وحرصه ، فمن كان عبداً لهواه لم يصدق في حقه « إياك نعبد » فلا يكون من اتصف بذلك صديقاً ، وكذلك يقال في عبد الدرهم . والخميصة ، بفتح المعجمة ، ثوب خز أوصوف معلم ، وهو الكساء

فيه مسائل : الأولى إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة . الثانية تفسير آية هود . الثالثة تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة . الرابعة تفسير ذلك بأنه إن أعطى رضى و إن لم يعط سخط . الخامسة قوله « تعس وانتكس » . السادسة قوله « و إذا شيك فلا انتقش » . السابعة الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات .

المربع . والخميلة ، بفتح المعجمة ، كل ثوب له خمل . وفي بعض روايات صحيح البخاري بدل « الخميلة » القطيفة ، وفسرت بذلك . وقوله انتكس ، بالمهملة ، أى عاوده المرض ، وقيل إذا سقط اشتغل بسقطته حتى تسقط أخرى ، وحكى عياض أن بعضهم رواه انتكش ، بالشين المعجمة ، وفسره بالرجوع ، وجعله دعاء له لا عليه ، والأول أولى . وقوله « شيك » بكسر المعجمة وسكون التحتية بعدها كاف ، أي أصابته شوكة . وانتقش ، بالقاف والشين المعجمة ، أى فلا قدر على إخراجها بالمنقاش ، تقول نقشت الشوك إذا استخرجته . قال شيخ الإسلام : فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الدينار والدرهم وعبد القطيفة وعبد الخميصة وذكر فيه ما هو دعاء بلفظ الخبر ، وهو قوله « تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش » وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه لم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب ولا خلص من المكروه ، وهذه حال من عبد المال ، وقد وصف ذلك بأنه إن أعطى رضى وإن لم يعط سخط ، كما قال تعالى:(ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) فرضاؤهم لغير الله ، وسخطهم لغير الله ، وهكذا حال من كان متعلقاً منها برياسة أو بصورة ونحو ذلك من أهواء نفسه ، إن حصل له رضى وإن لم يحصل له سخط ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك ، وهو رقيق له ، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته ، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده ا هـ . وقوله « طوبى لعبد » هى على وزن « فعلى » اسم الجنة ، وقيل هى شجرة فيها . وفيه إشارة إلى الحض على العمل بما يحصل به خير الدنيا والآخرة . وعنان الفرس ، بكسر أوله ، سير اللجام .

﴿ باب من أطاع العلماءَ والأُمَراءَ في تحريم ما أحَلَّ اللهُ أو تحليل ما حَرَّمهُ فقدِ اتَّخَذَهم أرباباً ﴾(١)

وقال ابن عباس : يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عليكم حِجَارَةٌ من السماء ،

وقوله « في سبيل الله » أى في جهاد المشركين . وقوله « أشعث » صفة لعبد مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة ، لأنه غير منصرف للوصف ووزن الفعل. ولفظ « رأسه » مرفوع على الفاعلية . وقوله « في الحراسة » هو بكسر الحاء حماية الجيش عن أن يهجم العدو عليهم، وهذا من المواضع التى اتحد فيها الشرط والجزاء لفظاً لكن المعنى مختلف ، والتقدير إن كان المهم في الحراسة كان فيها، وقيل معنى فهو فى الحراسة أى فهو فى ثواب الحراسة . والساقة مؤخرة الجيش ، يعنى أنه يقلب نفسه في مصالح الجهاد ، فكل مقام يقوم فيه ، إن كان ليلا أو نهاراً رغبة فى ثواب الله تعالى وطلباً لمرضاته جل وعز . قال ابن الجوزى : المعنى أنه خامل الذكر لا يقصد السمو ، فإن اتفق له السير سار ، فكأنه قال إن كان فى الحراسة استمر فيها وإن كان فى الساقة استمر فيها . وقوله « إن استأذن لم يؤذن له » إلخ ، أي إن استأذن على أمير أو حاكم أو غني لم يؤذن له ، لأذنه لا جاه له عندهم ولا منزلة له ، لأنه ليس من طلابها ، وإنما يطلب ما عند الله لا يقصد بعمله سواه . وقوله « إن شفع » هو بفتح أوله وثانيه ، و « لم يشفع » بفتح الفاء المشددة ، يعني لو ألجأته الحال إلى أن يشفع في أمر يحبه الله ورسوله لم تقبل شفاعته عند أهل الدنيا الفانيه . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : فيه ترك حب الرياسة والشهرة وفضل الخمول والتواضع .

(١) إطاعة العلماء والأمراء والسلاطين والملوك واجبة فيما أباحه الشارع وأحله ، وممنوعة فيما لم يبحه الشارع وزجر عنه . واستدل المصنف رحمه الله تعالى على أن الناس إذا أطاعوا أمراءهم وعلماءهم فى تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذوهم أرباباً من دون الله تعالى بآية : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ، ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) .

أقول قال رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وتقولون قال أبو بكر وعمر[١]!
وقال أحمد بن حنبلٍ : عَجِبْتُ لقوم عرَفُوا الإِسناد وصِحَّتَهُ يذهبون
إلى رأيِ سُفيانَ ، واللهُ تعالى يَقُولُ : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ
عن أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أو يُصِيبَهُمْ عذابٌ أَليمٌ) ، أَتَدْرِي

---

(١) قال الشارح : « هذا القول من ابن عباس جواب لمن قال له : إن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج ويريان أن إفراد الحج أفضل ، وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب ، ويقول : إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط فقد حل من عمرته شاء أم أبى ، لحديث سراقة بن مالك حين « أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعلوها عمرة ويحلوا إذا طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة ، فقال سراقة : يا رسول الله ألعامنا هذا أم للابد ؟ فقال : بل للأبد » . والحديث فى الصحيحين . وعلى هذا فلا عذر لمن استفتى أن ينظر في مذاهب العلماء وما استدل به كل إمام ويأخذ من أقوالهم ما دل عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك ، كما قال الله تعالى : (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) الآية ، ولما فى صحيح البخارى ومسلم وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أهديت ، ولولا أن معى الهدى لأحللت » . هذا لفظ البخارى في حديث عائشة رضي الله عنها ، ولفظه فى حديث جابر : « افعلوا ما أمرتكم به ، فلولا أنى سقت الهدى لفعلت مثل الذى أمرتكم » . فى عدة أحاديث تؤيد قول ابن عباس » . وقوله « يوشك » هو بضم أوله وكسر الشين المعجمة ، أى يقرب ويسرع . قال الإمام مالك إمام دار الهجرة : ما منا إلا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم . وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد . وكلام الأئمة في هذا المكان واسع جداً .

ما الفِتْنَةَ ؟ الفِتنَةَ الشِّرْكُ ، لَعَلَّهُ إذا رَدَّ بعضَ قوله أَنْ يَقَعَ فى قلبه شىءٌ من الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ[1].

---

(١) قال فى الشرح : رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب ، قال أبو طالب عن أحمد وقيل له : إن قوماً يدعون الحديث ويذهبون إلى رأى سفيان وغيره ، فقال ، إلخ ، وسفيان هو الثورى الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه ، صاحب مذهب وأصحاب ، وينقل كلامه فى كثير من الكتب المطولة ، كالمحلى لابن حزم . فقول الإمام أحمد رحمه الله تعالى عجبت لقوم إلخ إنكار منه لذلك ، وأنه يؤول إلى زيغ القلوب الذى يكون به المرء كافراً . وقد عمت البلوى بهذا المنكر ، خصوصاً ممن ينتسب إلى العلم ، نصبوا الحبائل فى الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة ، وصدوا الناس عن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيم أمره ونهيه ، فمن ذلك قولهم : لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد ، والاجتهاد قد انقطع ! ويقول : هذا الذى قلدته أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه ، ونحو ذلك من الأقوال التى غايتها ترك متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى لا ينطق عن الهوى ، والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ ، وغيره من الأئمة يخالفه ويمنع قوله بدليل ، فما من إمام إلا والذى معه بعض العلم لا كله . فالواجب على كل مكلف إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله وفهم معنى ذلك أن ينتهى إليه ويعمل به ، وإن خالفه من خالفه ، كما قال تعالى : (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) الآية ، وقال تعالى : (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) . وفى كلام الإمام أحمد رحمه الله تعالى إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم ، وإنما ينكر على من بلغته الحجة وخالفها لقول إمام من الأئمة ، وذلك إنما نشأ عن الإعراض عن تدبر كتاب الله وسنة رسوله والإقبال على كتب من تأخر والاستغناء بها عن الوحيين . وهذا شبه ما وقع من أهل الكتاب الذين قال الله فيهم : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) . فيجب على من نصح نفسه إذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها وعرف أقوالهم أن يعرضها على ما في الكتاب والسنة ، فإن كل مجتهد من العلماء

وعن عَدىِّ بْن حَاتِمٍ : « أنه سمع النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقرأُ هذه الآية : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أربابًا مِنْ دُونِ اللهِ) الآية ،

ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه لا بد أن يذكر دليله ، والحق فى المسألة واحد ، والأئمة يثابون على اجتهادهم . فالمنصف يجعل النظر فى كلامهم وتأمله طريقاً إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهناً ، وتمييزاً للصواب من الخطأ بالأدلة التى يذكرها المستدلون ، ويتعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه . والأدلة على هذا الأصل في كتاب الله أكثر من أن تحصر ، وفي السنة كذلك ، كما أخرج أبو داود بسنده عن أناس من أصحاب معاذ : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال : كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بكتاب الله تعالى ، قال : فإن لم تجد في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فإن لم تجد فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى كتاب الله ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو ، قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله » . وساق بسنده عن الحارث بن عمرو عن أناس من أصحاب معاذ بن جبل رضى الله عنه : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن » بمعناه . والأئمة رحمهم الله لم يقصروا فى البيان ، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة ، لعلمهم أن من العلم شيئاً لم يعلموه ، وقد يبلغ غيرهم ، وذلك كثير، كما لا يخفى على من نظر فى أقوال العلماء . قال أبو حنيفة رحمه الله : إذا جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن الصحابة رضى الله عنهم فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال . وقال : إذا قلت قولا وكتاب الله يخالفه فاتركوا قولى لكتاب الله ، قيل إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالفه ؟ قال : اتركوا قولى لخبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقيل : إذا كان قول الصحابة يخالفه ؟ قال : اتركوا قولي لقول الصحابة . وقال الربيع : سمعت الشافعي رحمه الله يقول : إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ما قلت . وقال : إذا صح الحديث بما يخالف قولى فاضربوا

فقلت له : إنَّا لَسْنَا نعبُدُهمْ ، قال : أليْسَ يُحَرِّمُونَ ما أحلَّ اللهُ فتُحرِّمُونَهُ ، ويُحِلُّونَ ما حرَّمَ اللهُ فتُحِلُّونَهُ ؟ فقلتُ : بلَى ، قال : فتلكَ عِبادَتُهمْ » . رواه أحمد والترمذيُّ وحَسَّنَهُ(١) .

بقولى الحائط . وقال مالك : كل واحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتقدم له مثل ذلك . فلا عذر لمقلد بعد هذا . ولو استقصينا كلام العلماء في هذا لخرج بنا عما قصدناه من الاختصار وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى . قوله « لعله إذا رد بعض قوله » أى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك » نبه رحمه الله أن رد قول الرسول صلى الله عليه وسلم سبب لزيغ القلب ، وذلك هو الهلاك فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدي القوم الفاسقين) . قال شيخ الإسلام رحمه الله في معني قول الله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) : فإذا كان المخالف لأمره قد حذر من الكفر والشرك أو من العذاب الأليم دل على أنه قد يكون مفضياً إلى الكفر والعذاب الأليم ، ومعلوم إن إفضاءه إلى العذاب الأليم هو بمجرد فعل المعصية ، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من الاستخفاف في حق الأمر ، كما فعل إبليس لعنه الله تعالى. انتهى .وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى عن الضحاك : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة) قال : يطبع على قلبه فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه فتضرب عنقه . قال أبو جعفر بن جرير أدخلت «عن» لأن معنى الكلام فليحذر الذين يلوذون عن أمره عنه ويدبرون معرضين : قوله (أو يصيبهم) فى عاجل الدنيا عذاب من الله موجع : على خلافهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهى باختصار .

(١) هذا الحديث يدل على أن طاعة الرهبان والأحبار في معصية الله عز وجل عبادة لهم من دون الله ، ومن الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله ، لقوله تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) . ونظير ذلك قوله تعالى : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) .

فيه مسائل : الأولى تفسير آية النور . الثانية تفسير آية براءة . الثالثة التنبيه على معنى العبادة التى أنكرها عديٌّ . الرابعة تمثيل ابن عباس بأبى بكر وعمر ، وتمثيل أحمد بسفيان . الخامسة تغير الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هى أفضل الأعمال ، وتسمى الولاية وعبادة الأحبار هى العلم والفقه ، ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين .

﴿ باب قول الله تعالى ﴾

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً) الآيَاتِ[١]

---

(١) ابن كثير فى تفسيره : « هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعى الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين ، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم فى فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما ، فجعل اليهودى يقول : بينى وبينك محمد، وذاك يقول : بينى وبينك كعب بن الأشرف . وقيل في جماعة من المنافقين ممن أظهر الإسلام أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية . وقيل غير ذلك . والآية أعم من ذلك كله ، فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت

وقوله : (وَإِذَا قِيلَ لَهم لَا تُفْسِدُوا فى الأَرضِ قالوا إِنما نحن مُصْلِحُونَ)[١] وقوله : (ولَا تُفْسِدُوا فى الأَرض بعد إِصْلَاحِهَا)[٢]. وقوله :

ههنا ، ولهذا قال : (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) إلى آخرها» . وقوله (ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً) بين تعالى ذكره في هذه الآية أن التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويزينه لمن أطاعه ، ويبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله ، وأكده بالمصدر ، ووصفه بالبعد ، فدل على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى . قال فى الشرح : ففى هذه الآية أربع أمور : الأول أنه من إرادة الشيطان ، والثاني أنه ضلال ، والثالث تأكيده بالمصدر ، والرابع وصفه بالبعـد عن سبيل الحق والهدى ، فسبحان الله ما أعظم هذا القرآن وما أبلغه وما أدله على أنه كلام رب العالمين أوحاه إلى رسوله الكريم ، وبلغه عبده الصادق الأمين ، صلوات الله وسلامه عليهما .

(١) قال ابن كثير نقلا عن أبى العالية : « قال : يعنى لا تعصوا في الأرض ، وكان فسادهم ذلك معصية الله ، لأنه من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية فقد أفسد في الأرض ، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ، وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة ، وقال ابن جريج عن مجاهد : إذا ركبوا معصية الله فقيل لهم لاتفعلوا كذا وكذا قالوا إنما نحن على الهدى مصلحون... فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين ، فكان الفساد من جهة المنافق حاصل ، لأنه هو الذي غر المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له ، ووالى الكافرين على المؤمنين ، ولو أنه استمر على حاله الأول لكان شره أخف ، ولو أخاص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح ، ولهذا قال تعالى : (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون) أي نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء » .

(٢) قال ابن القيم : « قال أكثر المفسرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله ، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض ، بل فساد الأرض فى الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره ، فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ) الآية[1] .

وعن عبد الله بن عَمْرٍو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتى يكونَ هَواهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ به » . قال النوويُّ :

غيره ومطاع متبع غير رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أعظم فساد في الأرض ، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود المطاع ، والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة . ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله » .

(١) قال ابن كثير : ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن جنكزخان الذى وضع لهم الياسق ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر ، يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير « قال الله تعالى : (أفحكم الجاهلية يبغون (أي يبتغون ويريدون ، وعن حكم الله يعدلون (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون (أى ومن أعدل من الله فى حكمه ، لمن عقل عن الله شرعه وآمن به ، وأيقن ، وعلم أن الله تعالى أحكم الحاكمين وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، العادل فى كل شيء » .

حديثٌ صحيحٌ ، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح[١] .

---

(١) هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصر بن إبرهيم المقدسي الشافعي الفقيه الزاهد نزيل دمشق ، في كتاب الحجة على تارك المحجة ، في عقيدة أهل السنة ، ورواه محيي السنة البغوي في المصابيح وشرح السنة ، وأخرجه أبو نعيم أيضاً في كتابه الأربعين التى شرط لها أن تكون من صحاح الأخبار وجياد الآثار مما أجمع الناقلون على عدالة ناقله، ورواه الطبراني أيضاً ، وكذا الحافظ أبو بكر بن أبى عاصم الأصفهاني . ومعنى الحديث : لا يكمل إيمان أحدكم حتى يكون موافقته للشريعة مثل موافقته لمألوفاته من غير الكلفة . ويجوز أن يحمل على نفى أصل الإيمان ، أى حتى يكون تابعاً للشرع اعتقاداً كالمخلصين ، لا خوفاً وإكراهاً كالمنافقين . ويوافق هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ووالده وولده وأهله والناس أجمعين » رواه الشيخان . ولما صدقت محبة الصحابة له صلى الله عليه وسلم وكان هواهم تبعاً لما جاء به قاتلوا معه آباءهم وأبناءهم ، وبذلوا فى طريقة مهجهم ، وأنفقوا أموالهم ، فطوبى لهم . فمن كان الهوى ، وهو الباطل المطاع المحبوب ، تابعاً لطرق الهدى من الملة البيضاء والسنة الزهراء ، حتى تصير همومه المختلفة وخواطره المتفرقة التى تنبعث من هوى النفس وميل الطبع ، هما واحداً يتعلق بأمر ربه وأتباع شرعه ، تعظيما لحقه ، وشفقة على خلقه ، كما قال :

كانت لقلبي أهواء مفرقة ... فاستجمعت إذ رأتك العين أهوائي
وصار يحسدني من كنت أحسدهم ... وصرت مولى الورى إذ صرت مولائى
تركت للخلق دنياهم ودينهم ... شغلا بحبك يا دينى ودنيائى

فلا فلا يميل إلا بأمر الشرع، ولا يهوى إلا حكم الطبع، فهو المؤمن الكامل الوحيد الذى يقبل منه التوحيد . ومن أعرض عنه متبعاً لهواه ، مبتغياً لرضاه ، فهو الكافر الخاسر في دنياه وعقباه . ومن اتبع أصول الشريعة دون فروعها فهو الفاسق ، ومن عكس فهو المنافق . والهوى : مصدر هواه أحبه ، وشرعا ميل النفس إلى مشتهيات الطبع دون مقتضيات الشرع . قال الراغب : « مثل النفس في البدن كمجاهد بعث إلى ثغر يراعى أحواله ، وعقله خليفة مولاه لديه ، ضم إليه ليرشده ويشهد له وعليه ، وبدنه بمنزلة

مركوب ، وهواه سائس خبيث ضم إليه ليتفقد مركوبه ، والقرآن بمنزلة كتاب أتاه من مولاه تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة ، والنبي رسول أتاه بالكتاب ليبين للناس ما نزل إليهم وأشكل عليهم ، فإن جاهد أعداءه وقهرهم ، واستعان بالعقل من أمرهم ، حمد أثره إذا عاد إلى حضرته وهو من المفلحين ، ومن ضيع ثغره وأهمل رعيته ، وصرف همته إلى مركوبه ، وأقام سائس المركوب مقام خليفة ربه ، فهو في الآخر من الخاسرين » .

قال الحافظ الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى في شرح هذا الحديث : « أما معنى الحديث فهو أن الإنسان لا يكون مؤمناً كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الأوامر والنواهي وغيرها ، فيحب ما أمر به ، ويكره ما نهى عنه . وقد ورد القرآن بمثل هذا المعنى في غير موضع . وذم سبحانه من كره ما أحبه الله أو أحب ما كرهه الله ، كما قال تعالى : (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) . فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما أوجب عليه منه ، فإن زادت المحبة حتى أتي بما ندب إليه منه كان ذلك فضلا ، وأن يكره ما يكرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه ، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهاً كان ذلك فضلا . فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب ذلك له أن يحب بقلبه ما يحب الله ورسوله ، ويكره ما يكرهه الله ورسوله ، ويرضى ما يرضى به الله ورسوله ، ويسخط ما يسخط الله ورسوله ، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض ، فإن عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك ، بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله ، أو ترك بعض ما يحبه الله ورسوله ، مع وجوبه والقدرة عليه ، دل ذلك على نقص محبته الواجبة ، فعليه أن يتوب من ذلك ، ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة التي هي ركن العبادة إذا كملت ، فجميع المعاصي إنما تنشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله . وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه ، فقال تعالى : (فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه ، بغير هدى من الله) . وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع ، ولهذا يسمي أهلها أهل الأهواء وكذلك المعاصي إنما تنشأ من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه ، وكذلك حب الأشخاص ، الواجب فيه أن يكون تبعاً لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيجب على المؤمن محبة الله ومحبة من يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عموماً ، ولهذا كان من علامات

وقال الشَّعْبِيُّ[١] : كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خُصُومَةٌ ، فقال اليهودى : نَتَحَاكَمُ إلى محمدٍ ، عَرَفَ أَنَّه لا يَاخُذُ الرِّشْوَةَ[٢] ، وقال المنافق : نتحاكَمُ إلى اليهود ، لعلمه أنهم ياخذون الرِّشْوَةَ ، فاتَّفَقَا أن يَأْتِيَا كَاهِناً فى جُهَيْنَةَ فَيَتَحَاكَمَانِ إليه ، فنزلتْ : (أَلَمْ تَرَ إلى الذين يَزْعُمُونَ) الآية. وقيل : نَزَلَتْ فى رجلين اخْتَصما، فقال أحدهما : نَتَرَافَعُ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقال الآخَرُ :

وجود حلاوة الإيمان أن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وتحريم موالاة أعداء الله وما يكرهه الله عموماً ، وبهذا يكون الدين كله لله ، ومن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان ، ومن كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه كان ذلك نقصاً في إيمانه الواجب ، فتجب التوبة من ذلك » . انتهى ملخصاً .

(١) الشعبي هو الإمام العلامة الحافظ البارع المجتهد عامر بن شراحيل الكوفي ، ذو الفنون ، كان رحمه الله تعالى يقول : ما كتبت سوداء في بيضاء ونسيتها ، وأدرك خلقاً كثيراً من الصحابة ، وعاش بضعاً وثمانين سنة . وفي كلامه هذا ما يدل على أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى ، وهو أشد عداوة منهم لأهل الإيمان ، كما هو الواقع في هذه الأزمنة وقبلها ، من إعانة العدو على المسلمين ، وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان . ومن تدبر ما في التاريخ وما وقع منهم من الوقائع عرف أن هذا حال المنافقين قديماً وحديثاً ، وقد حذر الله نبيه صلى الله عليه وسلم من طاعتهم والقرب منهم ، وحضه على جهادهم في مواضع من كتابه ، قال تعالى : (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) الآية .

(٢) بتثليث الراء ، هي ما يعطيه أحد الخصمين للقاضى ليحكم له . قال ابن القيم : هذا دليل على أن من دعى إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى أنه من المنافقين .

إلى كَعْبِ بن الأَشْرَفِ ، ثم تَرَافَعَا إلى عمر ، فَذَكَرَ له أحدهما القِصَّةَ ، فقال لِلَّذِي لم يَرْضَ برسول الله صلى الله عليه وسلم : أَكَذَلِكَ ؟ قال : نعم ، فَضَرَبَهُ بالسيف فَقَتَلَهُ .

فيه مسائل : الأولى تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت[1] . الثانية تفسير آية البقرة (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض) الآية . الثالثة تفسير آية الاعراف (ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) . الرابعة تفسير (أفحكم الجاهلية يبغون) . الخامسة ما قال الشعبى فى سبب نزول الآية الأولى . السادسة تفسير الإيمان الصادق والكاذب . السابعة قصة عمر مع المنافق . الثامنة كون الايمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

(١) يؤخذ من الآية أن من يحكم بغير ما أنزل الله فإنما يحكم بالطاغوت ، وهذا يشمل كل من عرف حكم الله أو أمكنه أن يعرفه وحكم بخلافه ، كما هو واقع في هذا الزمان ، نرجو الله السلامة .

﴿ باب مَنْ جَحَدَ شيئاً من الأَسْماءِ والصفات ﴾(١)

وقول الله تعالى : (وهمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ) الآية .

---

(١) استدل المصنف رحمه الله تعالى على كفر من أنكر شيئاً من أسماء الله أو صفاته بالآية القرآنية ، وقد ذهب الى إثبات صفات الله تعالى وأسمائه كما وصف الله بها نفسه أهل السنة والجماعة ، ومال أهل البدع والأهواء ، كجهم بن صفوان ومن تبعه ، إلى أن أسماء الله جل وعز لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى، وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم ، فلهذا كفرهم كثير من أهل السنة ، قال ابن القيم في نونيته :

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان

واللالكائي الإمام حكاه عنهم بل حكاه قبله الطبراني

قال في الشرح : « فإن الكلام في الصفات فرع من الكلام في الذات يحتذى حذوه ، فكما أن هؤلاء المعطلة يثبتون لله ذاتاً لا تشبه الذوات ، فأهل السنة يقولون ذلك ويثبتون ماوصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، لا تشبه صفاته صفات خلقه ، فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يتناقضوا، وأولئك المعطلة كفروا بما فى الكتاب والسنة من ذلك ، وتناقضوا ، فبطل قول المعطلين بالعقل والنقل ، ولله الحمد والمنة ، وإجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين . وقد صنف العلماء رحمهم الله تعالى في الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم فى إبطال هذه البدع وما فيها من التناقض والتهافت كالإمام أحمد رحمه الله تعالى في رده المشهور ، وكتاب السنة لابنه عبد الله ، وصاحب الحيدة عبد العزيز الكناني فى رده على بشر المريسى ، وكتاب السنة لأبي عبد الله المروزي ، ورد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد ، وهو بشر المريسى ، وكتاب التوحيد لإمام الأئمة محمد بن خزيمة الشافعي ، وكتاب السنة لأبي بكر الخلال ، وأبي عثمان الصابوني الشافعي ، وشيخ الإسلام الأنصاري ، وأبي عمر بن عبدالبر

وفي صحيح البخاري قال: عليٌّ[1] : « حَدِّثوا الناسَ بما يعرفُون ، أتُريدُون أن يُكذَّبَ اللهُ ورسولُهُ ». وروى عبد الرزَّاقِ عن مَعْمَرٍ عن ابْن طاوُسٍ عن أبيه عن ابن عباس : «أنَّهُ رأى رَجُلًا انتفَضَ[2] لمَّا سَمِعَ حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصِّفَاتِ، استنكاراً لذلك ، فقال : مَا فَرَقُ هَؤُلَاء[3] ؟ يَجِدُونَ رِقةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ ويَهلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابَهِهِ »[4] ، انتهى . ولما سمِعتْ قُرَيْشٌ رسولَ

النمرى ، وخلق كثيرين من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم وأهل الحديث ، ومن متأخريهم أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة ، وشيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه وغيرهم رحمهم الله تعالى . فلله الحمد والمنة على بقاء السنة وأهلها مع تفرق الأهواء وتشعب الآراء . والله أعلم » .

(١) هو ابن أبي طالب . والنهي والله أعلم عن الأخبار الإسرائيلية التى لا تدل على حلال ولا على حرام ، ولا ينفع العامة علمها بل ربما ضرهم . بنحو هذا فسره الشارح .

(٢) بالفاء من الانتفاض ، أى تحرك واضطرب من هول ما سمع ، وكذا في النسخة الخطية بالفاء أيضا ، وفى الشرح « انتقض » بالقاف ، ومعناه على هذه النسخة انتكس وانحل، أي فسدت حاله . والله أعلم .

(٣) الفرق ، بفتحتين الخوف ، والاستفهام إنكاري ، أى ليس خوفهم بشيء لإيمانهم ببعض الحديث وكفرهم ببعض .

(٤) عن جماعة من الصحابة : المحكم هو الناسخ الذى يعمل به، والمتشابه هو المنسوخ . وقد يطلق المتشابه على ما لا يعرفه حقيقته إلا الله ، كآيات الصفات وأحاديثها ، وهذا هو المراد هنا .

الله صلى الله عليه وسلم يَذْكُرُ الرَّحْمٰنَ أنكروا ذلك ، فَأَنْزَلَ اللهُ فيهم : (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ)(١) .

فيه مسائل : الأولى عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات . الثانية تفسير آية الرعد . الثالثة ترك التحديث بما لا يفهم السامع . الرابعة ذكر العلة ، أنه يفضى إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد المنكر . الخامسة كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك ، وأنه أهلكه .

---

(١) هذا قول ابن عباس رضى الله عنهما فى سبب نزول الآية . وعن قتادة وابن جريج ومقاتل : أن الآية نزلت في مشركى مكة لما رأوا كتاب الصلح يوم الحديبية وقد كتب على كرم الله وجهه (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل بن عمرو : ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة . وقيل سمع أبو جهل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا الله يا رحمن ، فقال : إن محمداً ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين ، فنزلت .

﴿ باب قول الله تعالى ﴾

(يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا)[١] الآية .

قال مجاهدٌ ما معناه : هو قول الرَّجُلِ : هذا مالِي ورِثْتُهُ عن آبائِي . وقال عَوْنُ بن عبد الله : يقولون : لَوْلَا فلانٌ لم يكنْ كذا . وقال ابن قُتَيْبَةَ : يقولون : هذا بِشَفَاعَةِ آلهتِنَا . وقال أبو العباس[٢] ، بَعْدَ حديث زيد بن خالد الذى فيه أنَّ الله تعالى قال : « أصْبحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِى وكَافِرٌ » الحديث ، وقد تقدم : وهذا كثيرٌ فى الكتاب والسنة ، يَذُمُّ سبحانه من يُضِيفُ إنْعَامَهُ إلى غيره ويُشْرِكُ بِهِ . قال بعض السَّلَفِ : هو كقولهم كَانت الرِّيحُ طَيِّبَةً والمَلَّاحُ حاذِقاً ، ونحوِ ذلِك مِمَّا هو جارٍ على أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ .

---

(١) قال أهل التأويل : معنى ذلك أنهم يعرفون أن ما عدد الله تعالى ذكره فى هذه السورة من النعم من عند الله ، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك ، ولكنهم ينكرون ذلك ، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم . والله أعلم .

(٢) هو الإمام شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رحمه الله تعالى . وحديث زيد بن خالد تقدم فى باب ماجاء في الاستسقاء بالأنواء .

فيه مسائل : الأولى تفسير معرفة النعمة و إنكارها . الثانية معرفة أن هذا جار على ألسنة كثير . الثالثة تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة . الرابعة اجتماع الضدين فى القلب .

﴿ باب قول الله تعالى ﴾

(فلا تَجْعَلُوا للهِ أنْدَاداً وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)[١] .

قال ابن عباس فى الآية : « الأَنْدَادُ هو الشِّرْكُ ، أَخْفَى من دَبِيبِ النَّمْلِ على صَفَاةٍ[٢] سوداءَ فى ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ، وهو أن تقولَ :

---

(١) الأنداد : جمع ند ، وهو المثل والنظير . وجعل الند لله هو صرف أنواع العبادة أو شىء منها لغير الله ، كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم ويدفع عنهم ويشفع لهم . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : « قال أبو العالية : (لا تجعلوا لله أنداداً) أى عدلاء شركاء ، وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدى وأبو مالك وإسمعيل بن أبى خالد ، وقال ابن عباس : (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) أى لا تشركون بالله شيئاً من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أن ربكم لا يرزقكم غيره ، وقد علمتم أن الذى يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق الذى لا شك فيه ، وكذلك قال قتادة ، وعن قتادة ومجاهد (لا تجعلوا لله أنداداً) قال : أكفاء من الرجال تطيعونهم فى معصية الله » .

(٢) الصفاة : الحجر الأملس .

واللهِ وحياتِكِ يا فُلانَةُ وحياتِي ، وتقُولُ : لَولاَ كُلَيْبَةُ هذا لأتَانَا اللُّصُوصُ ، ولولا البَطُّ[١] في الدَّارِ لأَتى اللُّصُوصُ ، وقولُ الرجل لصاحبه : ما شاءَ اللهُ وشِئْتَ ، وقولُ الرجلِ : لولا اللهُ وفلانٌ . لا تَجْعَلْ فِيهاَ فُلاَناً[٢] ، هذا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ »[٣] . رواه ابن أبي حاتم . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فقد كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ »[٤] . رواه الترمذيُّ وحَسَّنَهُ ، وصَحَّحَهُ الحاكمُ . وقال ابن مسعودٍ : « لأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِباً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بغيْرِهِ صادقاً »[٥] .

---

(١) هو من طير الماء .

(٢) أى لا تجعل في مقالتك فلاناً ، بل الله وحده .

(٣) قال في الشرح : « بين ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا كله من الشرك ، وهو الواقع اليوم على ألسنة كثير ممن لا يعرف التوحيد ولا الشرك . فتنبه لهذه الأمور ، فإنها من المنكر العظيم الذى يجب النهى عنه والتغليظ فيه ، لكونه أكبر الكبائر ، وهذا من ابن عباس رضى الله عنهما تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى » .

(٤) قوله « فقد كفر أو أشرك » قال فى الشرح : « يحتمل أن يكون شكا من الراوى ، ويحتمل أن تكون « أو » بمعنى الواو ، فيكون قد كفر وأشرك ، ويكون من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر ، كما هو من الشرك الأصغر ، وورد مثل هذا عن ابن مسعود بهذا اللفظ » .

(٥) قال فى الشرح : « ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذباً كبيرة من الكبائر ، لكن الشرك أكبر من الكبائر وإن كان أصغر ، كما تقدم بيان ذلك . فإذا كان هذا

وعن حُذَيفةَ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقُولُوا مَا شاءَ اللهُ وشاءَ فلانٌ، ولـكِن قولوا مَا شاءَ اللهُ ثُمّ شاءَ فُلاَن »(١). رواه أبو داود بسند صحيح. وجاء عن إبراهيم النَّخَعِيِّ(٢): أنه يَكْرَهُ

حال الشرك الأصغر فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود فى النار ، كدعوة غير الله والاستغاثة به والرغبة إليه وإنزال حوائجه به ، كما هو حال الأكثر من هذه الأمة في هذه الأزمان وما قبلها، من تعظيم القبور واتخاذها أوثاناً والبناء عليها واتخاذها مساجد، وبناء المشاهد باسم الميت لعبادة من بنيت باسمه وتعظيمه والإقبال عليه بالقلوب والأقوال والأعمال. وقد عظمت البلوى بهذا الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله ، وتركوا ما دل عليه القرآن العظيم من النهى عن هذا الشرك وما يوصل إليه . قال الله تعالى : (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ! أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) إلى قوله: (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) كفرهم تعالي بدعوتهم من كانوا يدعونه من دونه في دار الدنيا ، وقد قال تعالى : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) وقال تعالى : (قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً ، قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً) . وهؤلاء المشركون عكسوا الأمر ، فخالفوا ما بلغ به الأمة وأخبر به عن نفسه صلى الله عليه وسلم ، فعاملوه بما نهاهم عنه من الشرك بالله والتعلق على غير الله » .

(١) لأن المعطوف بالواو يكون مساوياً للمعطوف عليه ، لكونها إنما وضعت لمطلق الجمع فلا تقتضى ترتيباً ولا تعقيباً . وتسوية المخلوق بالخالق شرك ، إن كان في الأصغر مثل هذا فهو أصغر ، وإن كان في الأكبر فهو أكبر ، كما قال تعالى عنهم فى الدار الآخرة : (تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين) بخلاف المعطوف بثم، فإن المعطوف بها يكون متراخياً عن المعطوف عليه بمهلة . فلا محذور لكونه صار تابعاً . والله أعلم .

(٢) هو العالم الحافظ الفقيه رأس أهل الكوفة فى زمنه ومفتيها المتوفى سنة ٩٦ ، والنخعى نسبة إلى النخع ، بفتحتين ، قبيلة من اليمن . قال في الشرح : « وهذا إنما هو في

أعُوذُ بِاللهِ وبِكَ ، ويجوز أن يقول : بالله ثُمَّ بِكَ ، قال : ويقولُ : لَوْلا اللهُ ثُمَّ فلانٌ ، ولا تقولوا لَوْلَا اللهُ وفلانٌ .

فيه مسائل : الأولى تفسير آية البقرة فى الأنداد . الثانية أن الصحابة يفسرون الآية النازلة فى الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر . الثالثة أن الحلف بغير الله شرك . الرابعة أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس . الخامسة الفرق بين الواو وثم فى اللفظ .

الحى الحاضر الذى له قدرة وسبب فى الشيء ، وهو الذى يجرى فى حقه مثل ذلك . وأما في حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهم ولا قدرة لهم على نفع ولا ضر فلا يقال في حقهم شيء من ذلك ، فلا يجوز التعلق عليه بشىء ما بوجه من الوجوه . والقرآن يبين ذلك ، وينادي بأنه يجعلهم آلهة إذا سئلوا شيئاً من ذلك أو رغب اليهم أحد بقوله أو عمله الباطن أو الظاهر . فمن تدبر القرآن ورزق فهمه صار على بصيرة من دينه وبالله التوفيق . والعلم لا يؤخذ قسراً ، وإنما يؤخذ بأسباب.. ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى حيث قال فى نونيته :

والجهل داء قاتل وشفاؤه	أمران في الترتيب متفقان
نص من القرآن أو من سنة	وطبيب ذاك العالم الرباني
والعلم أقسام ثلاث مالها	من رابع ، والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله	وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهى الذي هو دينه	وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكل فى القرآن والسنن التى	جاءت عن المبعوث بالقرآن
والله ما قال امرؤ متحذلق	بسواهما إلا من الهذيان » .

﴿ باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله ﴾

عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تَحْلِفُوا بِآبائِكُمْ ، مَنْ حَلَفَ بالله فَلْيَصْدُقْ ، ومن حُلِفَ له بالله فَلْيَرْضَ ، ومن لم يَرْضَ فليس من الله »[١] . رواه ابن ماجة بسندٍ حسنٍ .

فيه مسائل : الأولى النهى عن الحلف بالآباء . الثانية الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى . الثالثة وعيد من لم يرض .

---

(١) الحلف بغير الله تعالى تقدم النهى عنه ، فالحلف بالآباء داخل فيه . وقوله « ومن حلف بالله فليصدق » فقد ورد الحث على الصدق فى كتابه المنزل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كثيراً .

﴿ باب قولِ « مَا شاءَ اللهُ وشِئْتَ » ﴾

عن قُتَيْلَةَ : « أن يهوديًّا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنَّكُمْ تُشْرِكُونَ ، تقولون : مَا شاءَ اللهُ وشِئْتَ ، وتقولون : والكَعْبَةِ ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أن يقولوا : ورَبِّ الكَعْبَةِ ، وأن يقولوا : ما شاء اللهُ ثُمَّ شِئْتَ »[١] .

---

(١) « قتيلة » ، بقاف بعدها تاء مثناة من فوق مصغراً ، بنت صيفي الأنصارية ، صحابية مهاجرة . قال في الشرح : « وفيه قبول الحق ممن جاء به كائناً من كان . وفيه بيان النهى عن الحلف بالكعبة ، مع أنها بيت الله تعالى التى حجها وقصدها بالحج والعمرة فريضة . وهذا يبين أن النهى عن الشرك بالله عام ، لا يصلح منه شيء ، لا لملك مقرب ولا نبي مرسل ، ولا للكعبة التى هي بيت الله فى أرضه . وأنت تري ما وقع من الناس اليوم من الحلف بالكعبة وسؤالها مالا يقدر عليه إلا الله ، ومن المعلوم أن الكعبة لا تضر ولا تنفع ، وإنما شرع الله لعباده الطواف بها ، ودعاؤها ممنوع . فميز أيها المكلف بين ما يشرع وما يمنع وإن خالفك من خالفك من جهلة الناس الذين هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا . قوله : « إنكم تشركون تقولون ماشاء الله وشئت » والعبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله ، ولا قدرة له على أن يشاء شيئاً إلا إذا كان الله قد شاءه كما قال تعالى : (لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) » .

رواه النسائِيُّ وصححه . وله أيضاً عن ابن عباس : « أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما شاء اللهُ وشِئْتَ ، فقال : أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا ؟[١] ما شاء اللهُ وَحْدَهُ » .

ولابن ماجة عن الطُّفَيْلِ أَخى عائِشَةَ لِأُمِّها قال : « رَأَيْتُ[٢] كَأَنِّى أَتَيْتُ على نَفَرٍ من اليهودِ ، قلتُ : إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ[٣] لَوْلَا أَنَّكُمْ تقولون عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ، قالوا : وأَنتم لَأَنْتُمُ القومُ لولا أَنَّكُمْ تقولون ما شاء الله وشاء محمد ، ثم مررتُ بنفرٍ من النصارى فقلت : إِنكم لأنتم القومُ لولا أنكم تقولون المسيح ابن اللهِ ، قالوا : وإِنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمدٌ ، فلما أَصبحتُ أَخبرتُ بها من أخبرتُ ، ثم أتيتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبرتُهُ ، قال : هل أخبرتَ بها أحداً ؟ قلت : نعم ، قال : فَحَمِدَ اللهَ وأَثْنَى عليه ثم قال ، أما بعدُ فإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيا أَخْبَرَ بِهِا من أخبر منكم ، وإِنكم قلتم كَلِمَةً كان يَمْنَعُنِي

---

(١) أى مثلا وشريكا . والمعنى ما ينبغى لك أن تسوينى بالله .

(٢) يعني في المنام .

(٣) أى الكاملون لولا أنكم إلخ .

كذا وكذا[١] أنْ أَنْهاكُمْ عنها ، فلا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولـكن قولوا : ما شاء الله وحدَه » .

فيه مسائل : الأولى معرفة اليهود بالشرك الأصغر . الثانية فهم الإنسان إذا كان له هواء . الثالثة قوله صلى الله عليه وسلم « أجعلتنى لله نداً » فكيف بمن قال مالى من ألوذ به سواك والبيتين بعده[٢] . الرابعة أن هذا ليس من الشرك الأكبر ، لقوله يمنعنى كذا وكذا . الخامسة أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحى . السادسة أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام .

---

(١) كناية عن شيء لم يذكر في هذه الرواية . قال الشارح : « وفي بعض طرقه كان يمنعنى الحياء » . قلت : فإن قيل كيف يستحيي من الحق ؟ فالجواب قد يقع منه ذلك ، ولكن الله لا يقره ، بل ينبهه ، فيصرح بما استحيا من التصريح به ، كما في قصة زينب في سورة الأحزاب .

(٢) يريد قول البوصيرى في القصيدة التى يسميها الناس « البردة » :

يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم

وقد بالغ البوصيرى في غير موضع من مدائحه ، ولا تسأل عما كان يعمل . ولعله لو نبه على هذا وما يفيده الحصر لرجع . فالضال كل الضلال هو الذى ينبه على هذا الخطأ ونحوه فيصر مستكبراً كأن لم يسمع ، فبشره بعذاب أليم : قال في الشرح « فانظر إلى هذا الجهل العظيم ، حيث اعتقد ان لا نجاة له إلا بعياذه ولياذه بغير الله ، وانظر إلى هذا الإطراء العظيم الذى يجاوز الحد فى الإطراء الذى نهى عنه صلى الله عليه وسلم بقوله : لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله . رواه مالك وغيره » .

﴿ باب من سَبَّ الدَّهْرَ فقد آذى اللهَ ﴾

وقول الله تعالى (وقالوا مَا هِيَ إِلَّا حياتُنا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وما يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ) الآية[١] .

وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى : يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ ، يَسُبُّ الدَّهْرَ ، وأَنا الدَّهْرُ ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ »[٢] . وفى رواية : « لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ ،

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : « يخبر تعالى عن دهرية الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد وقالوا : (ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) ما ثم إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثم معاد ولا قيامة . وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد ، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم ، وهم ينكرون البداءة والرجعة » . وهذه مكابرة للمعقول وتكذيب للمنقول . نسأل الله السلامة .

(٢) رواه أيضاً النسائي وأبو داود . قال في شرح السنة : « حديث متفق على صحته، أخرجاه من طريق معمر من أوجه عن أبي هريرة . ومعناه أن العرب كان من شأنها ذم الدهر أى سبه عند النوازل ، لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره ، فيقولون أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر ، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها ، فكان مرجع سبها إلى الله عز وجل ، إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التى يصنعونها ، فنهوا عن سب الدهر » . انتهى باختصار . وفي الحديث زيادة لم يذكرها المصنف ، وهى قوله « بيدى الأمر » .

فإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ »(١) .

فيه مسائل : الأولى النهى عن سب الدهر . الثانية تسميته أذى الله . الثالثة التأمل فى قوله « فإن الله هو الدهر » . الرابعة أنه قد يكون سابًّا ولو لم يقصده بقلبه .

باب التسمى بقاضى القضاة ونحوه

فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنَّ أخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجَلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الامْلَاكِ ، لا مَالِكَ إلاَّ اللهُ . قال سُفيانُ مِثْلَ شَاهَانَ شَاه . وفى رواية : « أَغْيَظُ رَجُلٍ على الله يوم القِيامَةِ وأَخْبَثُهُ »(٢) . قوله « أَخْنَعُ » يعنى أوْضَع .

---

(١) أى إن الله هو الفاعل الحقيقي للأشياء ، فمن سب الدهر فإنما سبه لنسبة الحوادث إليه ، وهو ليس له فعل ، فرجع السب إلى الفاعل الحقيقى ، وهو الله تعالى ذكره .

(٢) أى أبغض رجل عند الله وأخبثه ، لأنه لما تعاظم بنفسه وعلى الخلق وضعه الله تعالى وجعله أحقر العباد ، ومن تواضع لله رفعه . وقوله « شاهان شاه » هو عند العجم عبارة عن ملك الأملاك ، ولهذا مثل به سفيان بن عيينة . وقوله « أغيظ » من الغيظ ، وهو مثل الغضب والبغض . قال في الشرح : « هذا من الصفات التي تمر كما جاءت ، وليس شيء مما ورد في الكتاب والسنة إلا ويجب إتباع الكتاب والسنة في ذلك ، وإثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى إثباتاً بلا تمثيل وتنزيها بلا تعطيل ، والباب كله واحد . وهذا

فيه مسائل : الأولى النهى عن التسمى بملك الأملاك . الثانية أن ما فى معناه مثله ، كما قال سفيان . الثالثة التفطن للتغليظ فى هذا ونحوه مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه . الرابعة التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه .

﴿ باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك ﴾

عن أبى شُرَيْحٍ : « أَنه كان يُكْنَى أَبَا الحَكَمِ ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إنَّ الله هو الحَكَمُ وإليه الحُكْمُ ، فقال : إنَّ قَوْمِى إذا اخْتَلَفُوا فى شيءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بينهم فرَضِيَ كِلاَ الفريقين ، فقال : ما أحسنَ هذا ، فمالَكَ من الوَلَدِ ؟ قال : شُرَيْحٌ ومُسْلِمٌ وعبد اللهِ ، قال : فمَنْ أَكْبَرُهُمْ ؟ قُلْتُ شُرَيْحٌ ، قال : فأَنتَ أبُو شُرَيْحٍ » . رواه أبو داود وغيره .

فيه مسائل : الأولى احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه . الثانية تغيير الاسم لأجل ذلك . الثالثة اختيار أكبر الأبناء للكنية .

هو قول أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الفرقة الناجية من الثلاث والسبعين فرقة . وهذا التفرق والاختلاف إنما حدث في أواخر القرن الثالث وما بعده ، كما لا يخفى على من له معرفة بما وقع في الأمة من التفرق والاختلاف والخروج عن الصراط المستقيم ، والله المستعان » .

﴿ باب من هَزَلَ بشيء فيه ذِكْرُ الله أو القرآن أو الرسول ﴾

وقول الله تعالى (ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ليقولُنَّ إنما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) الآية .

عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة ، دَخَلَ حديثُ بعضهم في بعضٍ : « أنه قال رجلٌ في غَزْوَةِ تَبُوكَ : ما رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هؤلاء أرْغَبَ بُطُوناً[1] ولا أكْذَبَ ألْسُناً ولا أجْبَنَ عند اللِّقَاءِ[2] ، يعني رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه القُرَّاءَ ، فقال له عَوْفُ بن مالكٍ : كَذَبْتَ ، ولكنك مُنَافِقٌ ، لأُخْبِرَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فَذَهَبَ عوفٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لِيُخْبِرَهُ ، فوجد القرآنَ قد سَبَقَهُ ، فجاء ذلك الرَّجلُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارْتَحَلَ ورَكِبَ نَاقَتَهُ ، فقال : يا رسول الله إنما كُنَّا نَخُوضُ ونتحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ ، قال ابن عمر : كأنِّي أنْظُرُ إليه مُتَعَلِّقاً

---

(١) أي أكثر رغبة في الأكل .

(٢) أي أكثر جبناً عند لقاء العدو .

بِنِسْعَةِ[١] ناقةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وإنَّ الحِجارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ وهو يقول: إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونلعبُ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَبِاللهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ) ما يَلْتَفِتُ[٢] إليهِ[٣] وما يَزِيدُهُ عليهِ»[٤].

فيه مسائل: الأولى، وهى العظيمة، أن من هزل بهذا إنه كافر. الثانية أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان. الثالثة الفرق بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله. الرابعة الفرق بين العفو الذى يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله[٥]. الخامسة أن من الاعتذار ما لا ينبغى أن يقبل.

---

(١) هو سير تشد به الرحال، وهو على وزن حكمة.

(٢) فاعله ضمير عائد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يقبل عذر المنافق لكذبه.

(٣) أى إلى المنافق.

(٤) أى لا يزيد المنافق على قوله (أبالله وآياته) شيئاً. والحديث أخرجه الطبرى في تفسيره.

(٥) يعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم أغلظ على المنافق ولم يصفح عنه لعلمه أنه عدو الله.

﴿ باب قولِ اللهِ تعالى ﴾

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي) الآية.

قال مجاهِدٌ : هَذَا بِعَمَلِي وأنَا مَحْقُوقٌ بِهِ . وقال ابن عباسٍ : يُرِيدُ من عندى . وقوله : (قال : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِنْدِي) . قال قتادة : على علم مِنِّى بِوُجُوهِ المَكاسِبِ ، وقال آخرون : على علم من الله أنِّى له أهلٌ ، وَهذا معنى قولِ مجاهد أُوتِيتُهُ على شَرَفٍ[1] .

---

(١) وهذه الأقوال ليس فيها اختلاف ، وإنما هي أفراد المعنى . قال الحافظ العلامة عماد الدين بن كثير في تفسيره : « (وإذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة) يخبر أن الإنسان في حال الضر يضرع إلى الله تعالى وينيب إليه ويدعوه ، ثم إذا خوله نعمة منه طغى وبغى وقال إنما أوتيته على علم ، أي لما يعلم الله استحقاقى له ، ولولا أني عند الله حظيظ لما خولنى هذا . قال تعالى : (بل هى فتنة) أي ليس الأمر كما زعم ، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه : أيطيع أم يعصى مع علمنا المتقدم بذلك (بل هى فتنة) أى اختبار ، (ولـكن أكثرهم لا يعلمون) فلهذا يقولون ما يقولون ويدعون ما يدعون ، (قد قالها الذين من قبلهم) أى هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى فماصح قولهم ولا نفعهم جمعهم وما كانوا يكسبون ، كما قال تعالى مخبراً عن قارون إذ (قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) إلى قوله (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) وقال تعالى : (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين) »

وعن أبى هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : « إِنَّ ثَلاَثَةً مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ : أَبْرَصَ وأَقْرَعَ وأَعْمَى ، فَأَرادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيهُمْ ، فبَعَثَ إليهِم مَلَكاً ، فَأَتَى الأَبْرَصَ فقال : أىُّ شىْءٍ أَحَبُّ إليك ؟ قال : لَوْنٌ حَسَنٌ وجِلْدٌ حَسَنٌ ويَذْهَبُ عَنِّى الذى قدْ قَذِرَنى النَّاسُ به ، قال : فمَسَحَهُ فَذَهَب عنه قَذَرُهُ ، فَأُعْطِىَ لَوْنًا حَسَنًا وجِلْداً حَسَناً ، قال : فَأَىُّ المال أَحَبُّ إليك ؟ قال : الإبلُ أوِ البقرُ — شَكَّ إِسْحَاقُ — فَأُعْطِىَ نَاقَةً عُشَراءَ ، فقال : بارَكَ اللهُ لَكَ فيها . قال : فَأَتى الأَقْرَعَ فقال : أىُّ شَىْءٍ أَحَبُّ إِليك ؟ قال : شَعْرٌ حسن ويَذْهَب عَنِّى الذى قد قَذِرَنى الناسُ به ، فَمَسَحَهُ فذهب عنه ، وأُعْطِىَ شَعْراً حسناً ، فقال : أىُّ المال أَحَبُّ إليك ؟ قال : البَقَرُ أو الإِبلُ ، فَأُعْطِىَ بَقَرَةً حامِلًا ، قال : بارَكَ اللهُ لَكَ فيها ، فَأَتى الأَعْمَى فقال : أَىُّ شىْءٍ أَحَبُّ إليك ؟ قال : أنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَىَّ بَصَرِى فَأُبْصِرَ بِهِ الناسَ ، فمَسَحَهُ فرَدَّ اللهُ بَصَرَهُ ، قال : فَأَىُّ المَالِ أحبُّ إليك ؟ قال : الغنَمُ ، فَأُعْطِىَ شاةً وَالِدًا ، فَأُنْتِجَ هَذَانِ وولَّدَ هذا ، فكان لهذا وادٍ مِنَ الإِبِلِ ، ولهذا وادٍ

من البقرِ ، ولهذا وادٍ من الغَنمِ . قال : ثُمَّ إنَّهُ أَتى الأَبْرَصَ في صُورَتِهِ وهَيْئَتِهِ فقال : رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انقْطَعَتْ بِي الحِبالُ فِي سَفَرِي فَلاَ بَلاَغَ لى اليومَ إلاَّ باللهِ ثُمَّ بكَ ، أَسْأَلُكَ بالذى أعْطاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ والجِلْدَ الحَسَنَ والمال ، بَعِيراً أَتَبَلَّغُ بِهِ في سَفَرِى ، فقال : الحُقُوقُ كَثِيرَةٌ ، فقال له : كَأَنِّي أَعْرِفُكَ ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَص يَقْذَرُكَ النَّاسُ فقيراً فَأَعْطاكَ اللهُ عز وجل المالَ ؟ فقال : إِنَّما وَرِثْتُ هذا المال كابراً عن كابِرٍ ، فقال : إنْ كُنْتَ كاذِباً فصَيَّرَكَ اللهُ إلَى ما كُنْتَ . قال : وأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ فقال له مثلَ ما قال لهذا ورَدَّ عليهِ مثل ما رَدَّ عليه هذا ، فقال : إِنْ كُنْتَ كاذِباً فَصَيَّرَكَ اللهُ إلى ما كُنْتَ . قال : وأَتِي الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ فقال : رَجُلٌ مِسْكِينٌ وابْنُ سَبِيلٍ قد انقَطَعَتْ بِي الحِبالُ فِي سَفَرِي فلا بلاغَ لى اليومَ إلا باللهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِى رَدَّ عليك بَصَرَكَ شاةً أَتَبَلَّغُ بِها فِي سَفَرِى ، فقال : قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِى ، فَخُذْ ما شِئْتَ ، وَدَعْ ما شِئْتَ فواللهِ لا أَجْهَدُكَ اليومَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلهِ ، فقال : أَمْسِكْ مالَكَ ، فَإِنَّما ابْتُلِيتُمْ ،

فقد رَضِيَ اللهُ عنكَ وسخِطَ على صَاحِبَيْكَ » . أخرجاه [١] .

---

(١) أي أخرج الحديث البخارى ومسلم . وقوله « أبرص » هو من به داء البرص . وقوله « أقرع » هو من به داء القرع ، وهو داء يصيب الصبيان في رؤوسهم ثم ينتهى بزوال الشعر كله أو بعضه . وقوله « أن يبتليهم » أى يختبرهم بنعمته (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) . وقوله « قد قذرني الناس » أي عدونى قذراً وسخاً فكرهوني . والناقة العشراء ، بضم العين وفتح الشين وبالمد على وزن حنفاء ، هى الحامل . قوله « أنتج » وفي رواية « فنتج » معناه تولى نتاجها ، والناتج للناقة كالقابلة للمرأة . وقوله « وولد » هو بتشديد اللام ، أي تولى ولادتها ، وهو بمعنى نتج في الناقة ، فالمولد والناتج والقابلة بمعنى واحد ، لـكن هذا للحيوان وذاك لغيره . « وقوله انقطعت بي الحبال » هو بالحاء المهملة والباء الموحدة، وهي الأسباب . وقوله « فلا بلاغ » أى ما يبلغني أهلي من الزاد . وقوله « كابراً عن كابر » أى شريفاً كبيراً عن شريف كبير . وقوله « لا أجهدك » معناه لا أشق عليك في رد شيء تأخذ أو تطلبه من مالى . قال في الشرح . « وهذا حديث عظيم ، وفيه معتبر ، فإن الأولين جحدا نعمة الله ، فما أقرا لله بنعمة ، ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها ، ولا أديا حق الله فيها ، فحل عليهما السخط ، وأما الأعمى فاعترف بنعمة الله ، ونسبها إلى من أنعم عليه بها ، وأدى حق الله فيها ، فاستحق الرضى من الله بقيامه بشكر النعمة لما أتى بأركان الشكر الثلاثة التى لا يقوم الشكر إلا بها ، وهي الإقرار بالنعمة ونسبتها إلى المنعم وبذلها فيما يجب . قال ابن القيم رحمه الله : أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة ، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلا بها لم يشكرها ، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضاً ، ومن عرف النعمة والمنعم لـكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها كفرها ، ومن عرف النعمة والمنعم بها وأقر بها ولم يجحدها ، ولـكن لم يخضع له ولم يحبه ويرض به وعنه لم يشكرها أيضاً ، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقر بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضى به وعنه واستعملها في محابه وطاعته : فهذا هو الشاكر لها ، فلا بد فى الشكر من علم القلب ، وعمل يتبع العلم ، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له » .

فيه مسائل : الأولى تفسير الآية . الثانية ما معنى (ليقولن هذا لى) . الثالثة ما معنى قوله (إنما أوتيته على علم عندى) . الرابعه ما فى هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة .

﴿ باب قول الله تعالى ﴾

(فَلَمَّا آتَاهُما صَالِحًا جَعلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيما آتَاهُما) الآية[١] .

قالَ ابنُ حَزْمٍ : اتَّفَقُوا على تحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغيرِ اللهِ ، كعبدِ عُمَرَ ، وعبدِ الكَعْبَةِ[٢] ، وما أشبه ذلِك ، حاشا عبدَ المُطَّلِبِ[٣] .

---

(١) روى أحمد والترمذى وحسنه واستغربه ، والحاكم وصححه ، عن سمرة مرفوعاً : « لما ولدت حواء طاف بها إبليس ، وكان لا يعيش لها ولد ، فقال سميه عبد الحارث ، فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث ، فعاش ، فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره » وروى عن ابن عباس موقوفاً . قال ابن كثير : وكأن أصله والله أعلم مأخوذ من أهل الكتاب .

(٢) كتسمية عبد الحسين وعبد علي وعبد العباس عند الشيعة ، وعبد النبي عند غيرهم ، وكل ذلك حرام . وابن حزم هذا هو الإمام العلامة الوزير بن الوزير ، صاحب التآليف العظيمة ، عالم الأندلس ، أبو محمد علي بن أحمد سعيد بن حزم القرطبي الظاهرى ، ومن مؤلفاته العظيمة المشهورة كتاب (الإحكام في أصول الأحكام) في ٨ أجزاء ، وكتاب (المحلى) في ١١ جزءاً ، وهما مطبوعان بمصر .

(٣) لأنه من عبودية الرق ، لأن أهل مكة لما رأوا شيبة مع عمه المطلب حين قدم به من المدينة وكان نشأ بها، ورأوا لونه متغيراً بسبب الشمس ، ظنوه عبداً للمطلب ، فسموه بذلك.

وعن ابن عباس في الآية ، قال : لما تغشاها آدم حملت . فأتاهما إبليس فقال : إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعانني أو لأجعلن له قرني إيل[١] فيخرج من بطنك فيشقه ، ولأفعلن ، يخوفهما ، سمياه عبد الحارث ، فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتاً ، ثم حملت ، فأتاهما فقال مثل قوله ، فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتاً ، ثم حملت فأتاهما فذكر لهما ، فأدركهما حب الولد ، فسمياه عبد الحارث ، فذلك قوله (جعلا له شركاء فيما آتاهما) » . رواه ابن أبي حاتم . وله بسند صحيح عن قتادة قال : شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته . وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله (لئن آتيتنا صالحاً) قال : أشفقا أن لا يكون إنساناً[٢] . وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما .

فيه مسائل : الأولى تحريم كل اسم معبد لغير الله . الثانية تفسير الآية . الثالثة أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها . الرابعة أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم . الخامسة ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة .

---

(١) «الإيل» بكسر الهمزة وتشديد الياء المفتوحة ، ويجوز أيضاً ضم الهمزة وفتحها ، وهو الذكر من الأوعال .

(٢) أي خافا أن لا يكون الولد إنساناً .

﴿ باب قول الله تعالى ﴾

(وَلِلّٰهِ الأَسماءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِها وذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أسمائِهِ) الآية[1] .

ذَكَرَ ابْنُ أبي حاتِمٍ عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ (يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ) : يُشْرِكُونَ . وعنه : سَمَّوُا اللاَّتَ مِنَ الإلٰهِ ، والعُزَّى مِنَ العَزيزِ . وعن الأعمشِ : يُدْخِلُونَ فِيها ما لَيْسَ مِنْها .

فيه مسائل : الأولى إثبات الأسماء . الثانية كونها حسنى . الثالثة الأمر بدعائه بها . الرابعه ترك من عارض من الجاهلين الملحدين . الخامسة تفسير الإلحاد فيها . السادسة وعيد من ألحد .

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله تعالى : « حقيقة الإلحاد في أسماء الله تعالى الميل بالإشراك والتعطيل والنكران . وأسماء الرب تعالى كلها أسماء وأوصاف تعرف بها تعالى إلى عباده ، ودلت على كماله جل وعلا : فالإلحاد إما بجحدها وإنكارها ، وإما بجحد معانيها وتعطيلها ، وإما بتحريفها عن الصواب وإخراجها عن الحق بالتأويلات ، وإما أن يجعلها أسماء لهذه المخلوقات ، كإلحاد أهل الاتحاد ، فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون محمودها ومذمومها ، حتى قال زعيمهم : هو المسمى بمعنى كل اسم ممدوح عقلا وشرعاً وعرفاً ، وبكل اسم مذموم عقلا وشرعاً وعرفاً ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً » .

﴿ باب لا يُقالُ السَّلَامُ على الله ﴾[١]

في الصحيح عن ابن مسعودٍ رضى الله عنه قال : « كُنَّا إذا كُنَّا مع النبي صلى الله عليه وسلم فى الصلاة قُلْنا : السَّلَامُ على الله من عباده ، السَّلَامُ على فلان وفلان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تقولوا السَّلَامُ على الله ، فإنَّ اللهَ هو السَّلَامُ »[٢] .

فيه مسائل : الأولى تفسير السلام . الثانية أنه تحية . الثالثة أنها لا تصلح لله . الرابعة العلة فى ذلك . الخامسة تعليمهم التحية التى تصلح لله .

---

(١) السلام اسم من أسماء الله ، ويكون بمعنى السلامة أيضاً ، وعلى كل منهما لا يصح قول « السلام على الله » .

(٢) رواه الشيخان وأبو داود والنسائى وابن ماجة من حديث شقيق بن سلمة عن عبدالله بن مسعود .

﴿ باب قول اللهم اغفر لى إنْ شِئْتَ[(١)] ﴾

فى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يَقُلْ أحدكم اللهم اغفر لى إن شِئْتَ ، اللهم ارْحَمْنِي إن شئتَ ، لِيَعْزِمِ المسألةَ ، فإنَّ الله لا مُكْرِهَ لَهُ »[(٢)] . ولمسلم « ولْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ[(٣)] ، فإنَّ اللهَ لا يتعاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطاهُ »[(٤)] .

فيه مسائل : الأولى النهى عن الاستثناء في الدعاء . الثانية بيان العلة فى ذلك . الثالثة قوله ليعزم المسألة . الرابعة إعظام الرغبة . الخامسة التعليل لهذا الأمر .

---

(١) يريد أن هذا القول غير جائز ، كما يدل على ذلك الحديث الآتى .

(٢) أى بخلاف المخلوق ، فإنه قد يعطي الشيء وهو كاره ، ولذلك يقال له : إن شئت .

(٣) من التعظيم ، أى ليسأل شيئاً عظيما .

(٤) أي لا يعظم عليه لكمال غناه .

﴿ باب لا يقول عَبْدِى وأَمَتِى ﴾

فى الصحيح عن أبى هريرة أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يَقُلْ أحدكم أَطْعِمْ رَبَّكَ ، وَضِّئْ رَبَّكَ ، ولْيَقُلْ : سيدى ومولاىَ . ولا يقل أحدكم عبْدَى وأَمَتِى ، وليقل : فَتاىَ وفَتاتِى وغُلامِى »[١] .

---

(١) قال في الشرح : « هذه الألفاظ المنهى عنها وإن كانت تطلق لغة فالنبى صلى الله عليه وسلم نهى عنها تحقيقاً للتوحيد وسداً لذرائع الشرك ، لما فيها من التشريك فى اللفظ ، لأن الله تعالى هو رب العباد جميعهم ، فإذا أطلق على غيره شاركه فى الاسم ، فنهى عنه لذلك وإن لم يقصد بذلك التشريك في الربوبية التى هى وصف الله تعالى . وإنما المعنى أن هذا مالك له ، فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار ، فالنهى عنه حسما لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق ، وتحقيقاً للتوحيد ، وبعداً عن الشرك حتى في اللفظ . وهذا من أحسن مقاصد الشريعة ، لما فيه من تعظيم الرب تعالى وبعده عن مشابهة المخلوقين ، فأرشدهم صلى الله عليه وسلم إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ ، وهو قوله : سيدى ومولاى . وكذا قوله : ولا يقل أحدكم عبدي وأمتى ، لأن العبيد عبيد الله ، والإماء إماء الله ، قال الله تعالى : (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) ، ففى إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريك فى اللفظ ، فنهاهم عن ذلك تعظيما لله تعالى وأدباً وبعداً عن الشرك وتحقيقاً للتوحيد ، وأرشد إلى أن يقول فتاي وفتاتي وغلامى ، وهذا من باب حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد ، فقد بلغ صلى الله عليه وسلم أمته كل ما فيه لهم نفع ، ونهاهم عن كل ما فيه نقص فى الدين ، فلا خير إلا دلهم عليه خصوصاً في تحقيق التوحيد ، ولا شر إلا حذرهم منه ، صلوات الله وسلامه عليه ، خصوصاً ما يقرب من الشرك لفظاً وإن لم يقصد . و بالله التوفيق » .

فيه مسائل : الأولى النهى عن قول عبدى وأمتى . الثانية لا يقول العبد ربى ، ولا يقال له أطعم ربك . الثالثة تعليم الأول قول فتاي وفتاتى وغلامى . الرابعة تعليم الثانى قول سيدى ومولاى . الخامسة التنبيه للمراد ، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ .

﴿ بابٌ لا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ باللهِ[(١)] ﴾

---

(١) قال في الشرح : « ظاهر الحديث النهى عن رد السائل إذا سأل بالله ، لكن هذا العموم يحتاج إلى تفصيل حسب ماورد في الكتاب والسنة . فيجب إذا سأله السائل ما له فيه حق ، كبيت المال ، فيعطى منه على قدر حاجته وما يستحقه وجوباً ، وكذلك إذا سأل المحتاج من فى ماله فضل فيجب أن يعطيه على حسب حاله ومسألته ، خصوصاً إذا سأل من عنده فيستحب أن يعطيه على قدر حال المسؤول ما لا يضر به ولا يضر عائلته ، وإن كان مضطراً وجب أن يعطيه ما يدفع ضرورته . ومقام الإنفاق من أشرف مقامات الدين ، وتفاوت الناس فيه بحسب ماجبلوا عليه من الكرم والجود ، وضدهما من البخل والشح . فالأول محمود في الكتاب والسنة ، والثاني مذموم فيهما ، وقد حث الله تعالى عباده على الإنفاق لعظم نفعه وتعديه وكثرة ثوابه . قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ماكسبتم) إلى قوله : (والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم) وقال تعالى : (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وذلك الإنفاق من خصال البر المذكورة فى قوله : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين) الآية . فذكره بعد ذكر أصول الإيمان وقبل ذكر الصلاة ، وذلك — والله أعلم — لتعدى نفعه ، وذكره تعالى في الأعمال التى أمر بها عباده وتعبدهم بها ووعدهم عليها الأجر العظيم ، قال تعالى : (إن المسلمين والمسلمات

عن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ ، وَمَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ(١) ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ(٢) ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ(٣) ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تُرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ »(٤)

رواه أبو داود والنسائى بسند صحيح .

والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات) إلى قوله : (والمتصدقين والمتصدقات) الآية . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء ، نصحاً للأمة ، وحثاً لهم على ما ينفعهم عاجلا وآجلا . وقد أثنى الله سبحانه على الأنصار رضى الله عنهم بالإيثار ، فقال تعالى: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) . والإيثار من أفضل خصال المؤمن ، كما تفيده هذه الآية الكريمة ، وقد قال تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه) إلى قوله : (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) . والآيات والأحاديث فى فضل الصدقة كثيرة جداً ، ومن كان سعيه للآخرة رغب في هذا ورغب . وبالله التوفيق » .

(١) أى من استجار بالله فأجيروه .

(٢) هو من الدعوة إلى الطعام ، وفي الحديث الصحيح : « لو دعيت إلى كراع لأجبت » . وهذا من حق المسلم على المسلم ، كما في حديث آخر .

(٣) يدل له قوله : « من أحسن إليكم فأحسنوا إليه » .

(٤) قال في الشرح : « قوله : من دعاكم فأجيبوه ، هذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض ، إجابة دعوة المسلم ، وتلك من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمين . قوله : ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه ، ندبهم صلى الله عليه وسلم إلى المكافأة على المعروف ، فإن المكافأة على المعروف من المروءة التى يحبها الله ورسوله ، كما دل عليه هذا الحديث . ولا

فيه مسائل : الأولى إعاذة من استعاذ بالله . الثانية إعطاء من سأل بالله . الثالثة إجابة الدعوة . الرابعة المكافأة على الصنيعة . الخامسة أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه . السادسة قوله « حتى تروا أنكم قد كافأتموه » .

يهمل المكافأة على المعروف إلا اللئام من الناس ، وبعض اللئام يكافىء على الإحسان بالإساءة ، كما يقع كثيراً من بعضهم ، نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة . بخلاف حال أهل التقوى والإيمان ، فإنهم يدفعون السيئة بالحسنة ، طاعة لله ومحبة لما يحبه لهم ويرضاه ، كما قال تعالى : (ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون . وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) . وقال تعالى : (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا) الآية . وهم الذين سبقت لهم من الله تعالى السعادة . قوله : فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له ، أرشدهم صلى الله عليه وسلم إلى أن الدعاء في حق من لم يجد المكافأة مكافأة للمعروف ، فيدعو له على حسب معروفه . قوله : تروا ، بضم التاء ، أي تظنوا أنكم كافأتموه ، ويحتمل أنها مفتوحة بمعنى تعلموا ، ويؤيده ما في سنن أبي داود من حديث ابن عمر : حتى تعلموا ، فتعين الثاني للتصريح به . وفيه من سألكم بالله فأجيبوه ، أي إلى ما سأل ، فيكون بمعنى أعطوه وعند أبي داود في رواية أبي نهيك عن ابن عباس : من سألكم بوجه الله فأعطوه ، وفي رواية عبد الله القواريري لهذا الحديث : ومن سألكم بالله ، كما في حديث ابن عمر» .

﴿ باب لا يُسْأَلُ بِوَجْهِ الله إلاَّ الجَنَّة ﴾

عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إلاَّ الجنة » . رواه أبو داود(١) .

فيه مسائل : الأولى النهى عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب . الثانية إثبات الوجه .

---

(١) قال فى الشرح : « حديث الباب من جملة الأدلة المتواترة فى الكتاب والسنة على إثبات الوجه لله تعالى ، فإنه صفة كمال ، وسلبه غاية النقص والتشبيه بالناقصات ، كسلبهم جميع الصفات أو بعضها ، فوقعوا فى أعظم مما فروا منه ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا . وطريقة أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً : الإيمان بما وصف الله به نفسه فى كتابه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم فى سنته ، على ما يليق بجلال الله وعظمته ، فيثبتون له ما أثبته لنفسه فى كتابه وأثبته له رسول الله صلى الله عليه وسلم وينفون عنه مشابهة المخلوق ، فكما أن ذات الرب لا تشبه الذوات ، فصفاته كذلك لا تشبه الصفات ، فمن نفاها فقد سلبه الكمال » .

﴿ باب ما جاء فى اللَّوِّ ﴾[1]

وقول الله تعالى : (يقولون لَوْ كانَ لنا مِنَ الأمْرِ شئٌ ما قُتِلْنا هَهُنا)[2] . وقوله : (الَّذِين قَالُوا لإخْوانِهِمْ وقَعَدُوا لَوْ أطاعُونا مَا قُتِلُوا)[3] .

فى الصَّحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أحْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ واسْتَعِنْ بِاللهِ ولا تَعجِزَنَّ ، وإِن

---

(١) أدخل المؤلف رحمه الله تعالى أداة التعريف على لفظ « لو » وهى هنا لا تفيد تعريفاً . وغرض المصنف رحمه الله أن يبين ما ورد فى لفظ « لو » من النهى عنه عند حصول الأمور المكروهة ، كالبلايا والمصائب إذا جرى بها القدر ، لما فيه من الإشعار بعدم الصبر والأسى على ما فات مما لا يمكن استدراكه . فالذى ينبغي ويجب أن يسلم لقدر الله ، ويقوم بحق العبودية الواجبة عليه ، وهو الصبر على ما أصابه مما يكره .

(٢) قال هذا بعض المنافقين يوم وقعة أحد ، لخوفهم وجزعهم وخورهم من ذلك اليوم .

(٣) قال الحافظ ابن كثير « أى لو سمعوا مشاورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل . قال الله تعالى : (قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) . أى إذا كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت ، فينبغى لكم أن لا تموتوا ، والموت لا بد آت إليكم ولو كنتم فى بروج مشيدة ، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ، قال مجاهد عن جابر بن عبد الله : نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبيّ وأصحابه . يعنى أنه هو الذي قال ذلك » .

أَصَابَكَ شَيْءٌ فلا تقل لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لكان كذا وكذا ، ولكن قُلْ : قَدَّرَ اللهُ وما شاء فعل ، فإنَّ لو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ »[1] .

فيه مسائل : الأولى تفسير الآيتين فى آل عمران . الثانية النهى الصريح عن قول « لو » إذا أصابك شى . الثالثة تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان . الرابعة الإرشاد إلى الكلام الحسن . الخامسة الأمر بالحرص على ماينفع مع الاستعانة بالله . السادسة النهى عن ضد ذلك ، وهو العجز .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه مطولا ، واختصره المصنف . وفي الحديث إرشاد الرسول صلى الله عليه وسلم أمته إذا أصاب أحدهم مكروه فلا يقل : لو أنى فعلت كذا وكذا كان كذا وكذا ، ولكن يقول : قدر الله وما شاء فعل ، أى هذا قدر الله ، والواجب التسليم للقدر والرضا به واحتساب الثواب عليه . وينبغي له أن يحرص على فعل الأسباب التى تنفع العبد في دنياه وآخرته ، مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة ، ويكون العبد في حال فعله السبب مستعيناً بالله وحده ، غنياً عن كل ما سواه ، ليتم له سببه وينفعه ، ويكون اعتماده على الله وحده .

﴿ باب النهى عن سَبِّ الرِّيحِ ﴾

عن أبيٍّ بْنِ كَعْبٍ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لاَ تَسُبُّوا الرِّيحَ ، فإِذا رَأَيْتُمْ ما تكرهون فقولوا : اللَّهُمَّ إنَّا نَسْأَلُكَ من خيرِ هذه الرِّيح وخيرِ ما فيها وخيرِ ما أُمِرَتْ به ، ونعوذ بك من شَرِّ هذه الرِّيح وشرِّ ما فيها وشرِّ ما أُمِرَتْ به » صَحَّحَهُ الترمذى .

فيه مسائل : الأولى النهى عن سب الريح . الثانية الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الانسان ما يكره . الثالثة الإرشاد إلى أنها مأمورة . الرابعة أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر .

---

(١) إنما نهى عن سب الريح لأنها إنما تهب عن إيجاد الله تعالى وخلقه لها وأمره ، لأنه هو الذى أوجدها وأمرها ، فسبتها مسبة للفاعل الحقيقي ، وهو الله جل ذكره . ولا يفعل السب إلا أهل الجهل بالله ودينه وبما شرعه لعباده . فأرشد النبي أمته أن يقولوا ما فيه أدب مع الله وخضوع له وتسليم ، وما ينفعهم من الدعاء الصالح عند هبوب الريح . والله أعلم .

﴿ باب قول الله تعالى ﴾

(يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّة . يَقُولُون : هل لَنَا من الأَمْرِ مِنْ شَىْءٍ ، قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لله) الآية . وقوله : (الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ ، عليهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ) الآية .

قال ابن القيم فى الآية الأولى : فُسِّر هذا الظن بأنه سبحانه لا يَنْصُر رسوله وأن أمره سيضمحل [1] . وفُسِّر بأن ما أصابه لم يكن بقَدَر الله وحكمته ، ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمرُ رسوله صلى الله عليه وسلم وأن يظهره على الدين كله ، وهذا هو ظن السوء الذى ظن المنافقون والمشركون فى سورة الفتح ، وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظن غير ما يليقُ به سبحانه وما يليقُ بحكمته وحمده ووعده الصادق . فمن ظنَّ أنه يُديلُ [2] الباطل على الحق إدالةً مستقرةً يضمحل معها الحق ، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدَره ، أو أنكر أن يكون قدَره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد ، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة ، فذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار .

---

(١) أى يذهب ويتلاشى .

(٢) الإدالة : الغلبة ، يدال عليه : يجعل له الكرة والدولة .

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم . ولا يَسْلَم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده ، فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا ، وليتب إلى الله وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء . ولو فتشتَ من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القَدَر وملامةً له ، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ، فمستقلٌّ ومُسْتَكْثِر ، وفتش نفسَك : هل أنت سالم ؟

فإنْ تَنْجُ منها تَنْجُ من ذى عظيمةٍ ... وإلّا فإنِى لا إخالُكَ ناجياً[1]

فيه مسائل : الأولى تفسير آية آل عمران . الثانية تفسير آية الفتح . الثالثة الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر . الرابعة أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه .

---

(١) « من ذى عظيمة » أى من أمر ذى مصيبة عظيمة . «إخالك » بكسر الهمزة ، أى . أظنك

﴿ باب ما جاء في مُنْكِرِي القَدَرِ[١] ﴾

وقال ابن عمر : والذى نَفْسُ ابنِ عُمَرَ بيَدِهِ لو كان لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَباً ثم أنفقه فى سبيل الله ما قبله الله منه حتى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ ، ثم استدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الإِيمانُ أَنْ تُؤْمِنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليومِ الآخِرِ ، وتؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ » رواه مسلم[٢] .

---

(١) أى من الوعيد الشديد ونحو ذلك . وقد وردت أحاديث كثيرة وآثار في ذم القدرية وأنهم مجوس هذه الأمة . روى أبو داود عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم » . وعن عمر مولى غفرة عن رجل من الأنصار عن حذيفة — وهو ابن اليمان رضى الله عنهما — قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل أمة مجوس ، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر ، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ، ومن مرض منهم فلا تعودوه ، وهم شيعة الدجال ، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال » .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه كما قال المؤلف . ورواه أبو داود والترمذي والنسائى وابن ماجة عن يحيي بن يعمر ، قال : « كان أول من تكلم في القدر بالبصرة معبد الجهني ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجين أو معتمرين، فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر ، فوفق لنا عبدالله بن عمر داخلا المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبي، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي، فقلت : أبا عبد

وعن عُبادَةَ بن الصَّامتِ أنَّهُ قال لابنه : « يا بُنيَّ إنَّكَ لن تجدَ طَعْمَ[(١)] الإيمانِ حتى تَعْلمَ أنَّ ما أصابكَ لم يَكُنْ لِيُخطِئَكَ ، وما أَخْطَأَكَ لم يكن ليُصِيبَكَ ، سمعت رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول : إنَّ أوَّلَ ماخلقَ اللهُ القلمُ ، فقالَ له : اكْتُبْ ، فقال : رَبِّ وماذا أَكْتُبُ ؟ قال : اكْتُبْ مقاديرَ كُلِّ شيءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ، يا بُنَيَّ سمعتُ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلَّم يقول : مَنْ ماتَ على غير هذا فليس مِنِّي » .[(٢)] وفي رواية لأحمد :

الرحمن ، إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم ، يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف ، فقال : إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم برىء وأنهم مني برءاء ، والذى يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر ، ثم قال : حدثني عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب » الحديث إلخ ، وفيه : « وتؤمن بالقدر خيره وشره» . فأبان في الحديث أن الإيمان بالقدر من أصول الإيمان الستة المذكورة في الحديث ، فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد ترك أصلا من أصول الدين وجحده . والله أعلم .

(١) أى حلاوة الإيمان ، كما في حديث آخر .

(٢) رواه أبوداود والترمذى وصححه الإمام أحمد . وفى هذا الحديث ونحوه بيان شمول علم الله تعالى وإحاطته بما كان وما يكون في الدنيا والآخرة . ويشهد له قوله جل ذكره وتعالت أسماؤه : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) فهذه الكلية داخل فيها إدراك الجزئيات .

«إنّ أوّلَ ما خلقَ الله تعالى القلمُ ، فقال له : اكتُبْ ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة» . وفي رواية لابن وَهْبٍ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فمَنْ لم يُؤْمن بالقدرِ خيرِه وشرِّهِ أحْرَقَهُ اللهُ بالنَّار» . وفي المسند والسُّننِ[1] عن ابنِ الدَّيلميِّ . قال : «أتيْتُ أُبَيَّ بن كعبٍ فقلتُ : في نفسي شيءٌ من القدَرِ ، فحدِّثْني بشيءٍ لعلَّ الله يُذْهِبُهُ مِنْ قلْبي ، فقال : لو أَنفقْتَ مثل أُحُدٍ ذَهبًا ما قبلَهُ اللهُ منك حتَّى تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ ، وتعْلَمَ أَنَّ ما أصابك لم يكن لِيُخْطِئَكَ ، وما أخْطَأَكَ لم يكن لِيُصيبَكَ ، ولو مُتَّ على غير هذا لكنتَ مِنْ أهل النَّارِ ، قال : فأَتَيْتُ عبد الله بن مسعودٍ وحُذيفَةَ بن اليمَانِ وزيدَ بن ثابتٍ ، فكُلُّهُمْ حدثني بمثل ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم» . حديثٌ صَحيحٌ ، رواه الحاكمُ في صَحيحه .

فيه مسائل : الأولى بيان فرض الإيمان بالقدر . الثانية بيان كيفية الإيمان . الثالثة إحباط عمل من لم يؤمن به . الرابعة الإخبار أن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به . الخامسة ذكر أول ما خلق الله . السادسة أنه جرى

---

(١) أي مسند أحمد وسنن أبي داود .

بالمقادير فى تلك الساعة إلى قيام الساعة . السابعة براءته صلى الله عليه وسلم ممن لم يؤمن به . الثامنة عادة السلف فى إزالة الشبهة بسؤال العلماء . التاسعة أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته ، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط .

﴿ باب ما جاء فى المصوِّرِين[1] ﴾

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) أى من عظيم عقوبة الله لهم وعذابه . والمصور هو الذى يصور الصور متشبهاً بالخالق تعالى ، وذلك جهل عظيم .

قال الشارح رحمه الله : « وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم العلة ، وهي المضاهاة بخلق الله ، لأن الله تعالى له الخلق والأمر ، فهو رب كل شيء ومليكه ، وهو خالق كل شيء ، وهو الذى صور جميع المخلوقات ، وجعل فيها الأرواح التى تحصل بها الحياة . كما قال تعالى : (الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) . فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة صار مضاهياً لخلق الله ، فصار ما صوره عذاباً له يوم القيامة ، وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ ، فكان أشد الناس عذاباً ، لأن ذنبه من أكبر الذنوب ، فإذا كان هذا فيمن صور صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان ، فكيف بحال من سوى المخلوق برب العالمين وشبهه بخلقه ، وصرف له شيئاً من العبادة التى خلق الله الخلق ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه . فتسوية المخلوق بالخالق بصرف حقه

وسلم : « قال اللهُ تعالى : ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي ، فَلْيَخْلقُوا ذَرَّةً(١) ، أو لِيَخْلقُوا حَبَّةً ، أَوْ لِيَخْلقُوا شَعِيرَةً » . أخرجاهُ .

ولهما عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يوم القيامة الذين يُضَاهِئُونَ(٢) بخلق

لمن لا يستحقه من خلقه ، وجعله شريكا له فيما اختص به تعالى وتقدس ، هو أعظم ذنب عصى الله تعالى به ، ولهذا أرسل رسله وأنزل كتبه لبيان هذا الشرك والنهي عنه ، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى . فنجى الله تعالى رسله ومن أطاعهم ، وأهلك من جحد التوحيد واستمر على الشرك والتنديد ، فما أعظمه من ذنب (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق) » .

(١) الذرة — بفتح المعجمة وتشديد الراء — واحدة الذر ، وهو صغار النمل ، ويراد بها ما يرى في شعاع الشمس الداخل في النافذة ، والمراد بالحبة حبة القمح ، بقرينة ذكر الشعير ، أو الحبة أعم . والغرض تعجيزهم ، تارة بتكليفهم خلق حيوان ، وهو أشد ، وأخرى بتكليفهم خلق جماد ، وهو أهون ، ومع ذلك فلا قدرة لهم على شيء منه .

(٢) أى يشابهون . قال الحافظ ابن حجر في فتح البارى ج ١٠ ص ٣٢٢ : « وقد استشكل كون المصور أشد الناس عذاباً مع قوله تعالى : (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) فإنه يقتضى أن يكون المصور أشد عذاباً من آل فرعون ، وأجاب الطبرى بأن المراد هنا من يصور ما يعبد من دون الله وهو عارف بذلك قاصداً له ، فإنه يكفر بذلك ، فلا يبعد أن يدخل مدخل آل فرعون ، وأما من لا يقصد ذلك فإنه يكون عاصياً بتصويره فقط . وأجاب غيره بأن الرواية بإثبات « من » ثابتة ، وبحذفها محمولة عليها ، وإذا كان من يفعل التصوير من أشد الناس عذاباً كان مشتركا مع غيره ، وليس في الآية ما يقتضى اختصاص آل فرعون بأشد العذاب ، بل هم في العذاب الأشد ،

فكذلك غيرهم يجوز أن يكون في العذاب الأشد . وقوى الطحاوى ذلك بما أخرجه من وجه آخر عن ابن مسعود رفعه : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبياً أو قتله نبي ، وإمام ضلالة ، وممثل من الممثلين . وكذا أخرجه أحمد . وقد وقع بعض هذه الزيادة في رواية ابن أبي عمر التي أشرت إليها ، فاقتصر على المصور وعلى من قتله نبي . وأخرج الطحاوي أيضاً من حديث عائشة مرفوعاً : أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل هجا رجلا فهجا القبيلة بأسرها . قال الطحاوى : فكل واحد من هؤلاء يشترك مع الآخر في شدة العذاب . وقال أبو الوليد بن رشد في مختصر مشكل الطحاوى ما حاصله أن الوعيد بهذه الصيغة إن ورد في حق كافر فلا إشكال فيه ، لأنه يكون مشتركا في ذلك مع آل فرعون ، ويكون فيه دلالة على عظم كفر المذكور ، وإن ورد في حق عاص فيكون أشد عذاباً من غيره من العصاة ، ويكون ذلك دالا على عظم المعصية المذكورة . وأجاب القرطبي في المفهم بأن الذين أضيف إليهم أشد لا يراد بهم كل الناس ، بل بعضهم ، وهم من يشارك في المعنى المتوعد عليه بالعذاب ، ففرعون أشد الناس الذين ادعوا الإلهية عذاباً ، ومن يقتدى به في ضلالة كفره أشد عذاباً ممن يقتدى به في ضلاله فسقه ، ومن صور صورة ذات روح للعبادة أشد عذاباً ممن يصورها لا للعبادة . واستشكل ظاهر الحديث إيضاً بإبليس وبابن آدم الذي سن القتل . وأجيب بأنه في إبليس واضح ، ويجاب بأن المراد بالناس من ينسب إلى آدم ، وأما في ابن آدم فأجيب بأن الثابت في حقه أن عليه مثل أوزار من يقتل ظلماً ، ولا يمتنع أن يشاركه في مثل تعذيبه من ابتدأ الزنا مثلا ، فإن عليه مثل أوزار من يزنى بعده ، لأنه أول من سن ذلك ، ولعل عدد الزناة أكثر من القاتلين ، قال النووى : قال العلماء : تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم ، وهو من الكبائر ، لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد ، وسواء صنعه لما يمتهن أم لغيره ، فصنعه حرام بكل حال ، وسواء كان في ثوب أو بساط أو درهم أو دينار أو فلس أو إناء أو حائط أو غيرها ، فأما تصوير ما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام . (قلت) : ويؤيد التعميم فيما له ظل وفيما لا ظل له ما أخرجه أحمد من حديث علي : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أيكم ينطلق إلى المدينة فلا يدع بها وثناً إلا كسره ، ولا صورة إلا لطخها ، أى طمسها ، الحديث ، وفيه : من عاد إلى صنعة شيء من هذا فقد كفر بما أنزل على محمد . وقال الخطابى : إنما عظمت عقوبة المصور لأن الصور كانت تعبد من دون الله ، ولأن النظر إليها يمتن ، وبعض النفوس إليها

الله » . ولهما عن ابن عباس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كُلُّ مُصَوِّرٍ فى النَّارِ ، يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بها فى جهنم » . ولهما عنه مرفوعا : « مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فى الدُّنْيا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فيها الرُّوحَ ، وليس بِنَافِخٍ » . ولمسلم عن أبي الهيَّاجِ قال: قال لى عليٌّ: « أَلاَ أَبْعَثُكَ على ما بَعَثَنِي عليه رسولَ الله

تميل . قال : والمراد بالصور هنا التماثيل التى لها روح . وقيل يفرق بين العذاب والعقاب ، فالعذاب يطلق على مايؤلم من قول أو فعل كالعتب والانكار ، والعقاب يختص بالفعل ، فلا يلزم من كون المصور أشد الناس عذاباً أن يكون أشد الناس عقوبة ، هكذا ذكره الشريف المرتضى فى الغرر ، وتعقب بالآية المشار إليها وعليها انبنى الإشكال ، ولم يكن هو عرج عليها فلهذا ارتضى التفرقة ، والله أعلم . واستبدل به أبو على الفارسى فى التذكرة على تكفير المشبهة ، فحمل الحديث عليهم، وأنهم المراد بقوله « المصورون » أى الذين يعتقدون أن لله صورة . وتعقب بالحديث الذى بعده فى الباب بلفظ: إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون . وبحديث عائشة الآتي بعد بابين بلفظ : إن أصحاب هذه الصور يعذبون . وغير ذلك ، ولو سلم له استدلاله لم يرد عليه الإشكال المقدم ذكره . وخص بعضهم الوعيد الشديد بمن صور قاصداً أن يضاهىء ، فإنه يصير بذلك القصد كافراً ، وسيأتى فى باب ما وطىء من التصاوير بلفظ : أشد الناس عذاباً الذين يضاهئون بخلق الله تعالى . وأما من عداه فيحرم عليه ويأثم ، لـكن إثمه دون إثم المضاهىء (قلت) : وأشد منه من يصور ما يعبد من دون الله كما تقدم ، وذكر القرطبي أن أهل الجاهليه كانوا يعملون الأصنام من كل شىء ، حتى إن بعضهم عمل صنمه من عجوة ثم جاع فأكله » .

صلى الله عليه وسلم : أَنْ لَا تَدَعَ صُورَةً إلَّا طَمَسْتَهَا ، ولا قبراً مُشْرِفًا إلَّا سَوَّيْتَهُ »(١) .

---

(١) قال العلامة ابن القيم رحمه الله : « ومن جمع بين سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القبور وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه ، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم ، رأى أحدهما مضاداً للآخر مناقضاً له ، بحيث لا يجتمعان أبداً . فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة إلى القبور ، وهؤلاء يصلون عندها وإليها : ونهى عن اتخاذها مساجد ، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ، ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله . ونهى عن إيقاد السرج عليها ، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد السرج عليها . ونهى أن تتخذ عيداً ، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر . وأمر بتسويتها كما روى مسلم فى صحيحه عن أبى الهياج الأسدي ـ فذكر حديث الباب ـ وحديث ثمامة بن شفى وهو عند مسلم أيضاً قال : كنا عند فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس ، فتوفي صاحب لنا ، فأمر فضالة بقبره فسوى ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها ، وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين ، ويرفعونها عن الأرض كالبيت ، ويعقدون عليها القباب . ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه ، كما روى مسلم فى صحيحه عن جابر رضى الله عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تجصيص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه . ونهى عن الكتابة عليها ، كما روى أبو داود في سننه عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن تجصيص القبور وأن يكتب عليها . قال الترمذى : حديث حسن صحيح ، وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ويكتبون عليها القرآن وغيره . ونهى أن يزاد عليها غير ترابها ، كما روى أبو داود عن جابر أيضاً : نهى أن يجصص القبر أو يكتب عليه أو يزاد عليه ، وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والجص والأحجار ، قال إبرهيم النخعى : كانوا يكرهون الآجر على قبورهم . والمقصود أن هؤلاء المعظمين للقبور ، المتخذيها أعياداً ، الموقدين عليها السرج ، الذين يبنون عليها المساجد والقباب ، مناقضون كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، محادون لما جاء به . وأعظم من ذلك اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها ، وهو من الكبائر ، وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيره بتحريمه .

فيه مسائل : الأولى التغليظ الشديد فى المصورين . الثانية التنبيه على العلة ، وهو ترك الأدب مع الله ، لقوله : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى » . الثالثة التنبيه على قدرته وعجزهم ، لقوله : « فليخلقوا ذرة أو شعيرة » . الرابعة التصريح بأنهم أشد الناس عذاباً . الخامسة أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور فى جهنم . السادسة أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح . السابعة الأمر بطمسها إذا وجدت .

قال أبو محمد المقدسى : ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله ، ولأن فيه تضييعاً للمال فى غير فائدة ، وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام . قال : ولايجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما صنعوا . متفق عليه . ولأن تخصيص القبور بالصلاة يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها . وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم والتمسح بها والصلاة عندها » .

﴿ باب ما جاء فى كثرة الحلفِ ﴾

وقول الله تعالى : (واحْفَظُوا أَيْمَانَـكُمْ[١]) .

عن أبى هريرة رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ للسِّلْعَةِ ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ » أخرجاه[٢] . وعن سَلْمَانَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ثَلَاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ ولا يُزَكِّيهِمْ ولهم عَذَابٌ أَلِيمٌ : أُشَيْمِطٌ زَانٍ ، وعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ ، ورجلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ ، لا يشترِى إلَّا بيمينِهِ ، ولا يبيعُ إلَّا

---

(١) الأيمان : جمع يمين . أمرهم الله تبارك وتعالى بحفظ الأيمان وعدم المسارعة إليها أو إلى الحنث بها ، وفيه النهي عن كثرة الحلف والنكث ، ما لم يكن على فعل بر أو إصلاح بين الناس ، لماروواه البخارى ومسلم عن أبي موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذى هو خير » .

(٢) الحلف ، بفتح المهملة وكسر اللام ، أى اليمين الكاذبة . وقوله : « منفقة » بفتح الميم والفاء بينهما نون ساكنة : مفعلة من النفاق ، بفتح النون ، وهوالرواج ضد الكساد . والسلعة ، بكسر السين : المتاع . وقوله ممحقة ، بحاء مهملة وقاف وزن الأول . والمعنى والله أعلم : أن الحلف الكاذب وإن زاد فى المال فإنه يمحق البركة من البيع ، لأن الثمن وإن زاد لكن محق البركة يفضي إلى اضمحلال الزيادة .

بيمينه[١] » . رواه الطبراني بسندٍ صحيح . وفى الصحيح عن عِمْرَان بن حُصَيْنٍ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُ أمَّتِي قَرنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، قال عِمْرَانُ : فلا أَدْرِي أَذكَرَ بعد قَرْنِهِ مرتين أو ثلاثًا ، ثُمَّ إنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ ولا يُسْتَشْهَدُونَ ، ويَخُونُونَ ولا يُؤْتَمَنُون ، ويَنْذِرُون ولا يُوفُونَ ، ويَظهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ »[٢] . وفيه عن ابن مسعود أن

---

(١) الأشيمط : مصغر أشمط ، وهو الذى وخطه الشيب ، وصغر تحقيراً له ، وذلك لأن داعى المعصية ضعف فى حقه ، فدل على أن الحامل له على الزنا محبة المعصية والفجور وعدم خوفه من الله ، وضعف الداعى إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليظ العقوبة عليه ، بخلاف الشاب ، فإن قوة داعى الشهوة منه قد تغلبه مع خوفه من الله ، وقد يرجع على نفسه بالندم ولومها على المعصية ، فينتهى ويرجع . وكذا العائل المستكبر ليس له ما يدعوه إلى الكبر ، لأن الداعى إلى الكبر فى الغالب كثرة المال والنعم والرياسة ، والعائل الفقير لا داعى له إلى أن يستكبر ، فاستكباره مع عدم الداعى إليه يدل على أن الكبر طبيعة له كامن فى قلبه ، فعظمت عقوبته لعدم الداعى إلى هذا الخلق الذميم الذى هو من أكبر المعاصى . قوله : « ورجل جعل الله بضاعته » ، بنصب الاسم الشريف ، أى الحلف به ، جعله بضاعته لملازمته له وغلبته عليه . وهذه أعمال تدل على أن صاحبها إن كان موحداً فتوحيده ضعيف ، وأعماله ضعيفة ، بحسب ماقام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصى العظيمة على قلة الداعى إليها . نسأل الله السلامة والعافية ، ونعوذ بالله من كل عمل لا يحبه ربنا ولا يرضاه . قاله فى الشرح .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ، وأخرجه البخارى بلفظ « خيركم » ورواه أبو داود والترمذى . قوله « خير أمتى قرني ثم الذين يلونهم » إلخ ، يعنى الصحابة ثم

النبي صلى الله عليهِ وسلم قال : « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ

التابعين . قال العلامة ابن الأثير في النهاية: «القرن أهل كل زمان ، وهو مقدار التوسط في أعمار أهل كل زمان ، مأخوذ من الاقتران ، وكأنه المقدار الذى يقترن فيه أهل ذلك الزمان فى أعمارهم وأحوالهم . وقيل القرن أربعون سنة ، وقيل ثمانون سنة ، وقيل مائة ، وقيل هو مطلق من الزمان . وهو مصدر قرن يقرن » . قال فى الشرح : « قوله : خير أمتى قرني . لفضيلة أهل ذلك القرن فى العلم والإيمان والأعمال الصالحة التى يتنافس فيها المتنافسون ، ويتفاضل فيها العاملون ، فغلب الخير فيها وكثر أهله ، وقل الشر فيها وأهله واعتز فيها الإسلام والإيمان ، وكثر فيها العلم والعلماء . ثم الذين يلونهم . فضلوا على من بعدهم لظهور الإسلام فيهم وكثرة الداعي إليه والراغب فيه والقائم به . وما ظهر فيه من البدع أنكر واستعظم وأزيل ، كبدعة الخوارج والقدرية والرافضة . فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت فأهلها فى غاية الذل والمقت والهوان والقتل فيمن عاند منهم ولم يتب . قوله : فلا أدرى أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثا . هذا شك من راوى الحديث عمران بن حصين رضى الله عنه . والمشهور فى الروايات أن القرون المفضلة ثلاثة ، الثالث دون الأولين في الفضل ، لكثرة البدع فيه ، لكن العلماء متوافرون ، والإسلام فيه ظاهر ، والجهاد فيه قائم . ثم ذكر ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء في الدين وكثرة الأهواء ، فقال : ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون . لاستخفافهم بأمر الشهادة وعدم تحريهم الصدق ، وذلك لقلة دينهم وضعف إسلامهم . قوله : ويخونون ولايؤتمنون . يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير منهم أو أكثرهم . وينذرون ولايوفون . أى لايؤدون ما وجب عليهم . فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم . قوله : ويظهر فيهم السمن . لرغبتهم في الدنيا ونيل شهواتهم والتنعم بها ، وغفلتهم عن الدار الآخرة والعمل لها . وفي حديث أنس : لايأتي زمان إلا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم ، قال أنس سمعته من نبيكم صلى الله عليه . فما زال الشر يزيد في الأمة حتى ظهر الشرك والبدع في كثير منهم ، حتى فيمن ينتسب إلى العلم ويتصدر للتعليم والتصنيف . قلت : بل قد دعوا إلى الشرك والضلال والبدع ، وصنفوا فى ذلك نظماً ونثراً ، فنعوذ بالله من موجبات غضبه » .

ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ » . وقال إبرهيمُ : كانوا يَضْرِبُونَنَا على الشَّهَادَةِ ونحن صِغَارٌ[(١)] .

فيه مسائل : الأولى الوصية بحفظ الأيمان . الثانية الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة . الثالثة الوعيد الشديد لمن لا يبيع ولا يشترى إلا بيمينه . الرابعة التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعى[(٢)] . الخامسة ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون . السادسة ثناؤه صلى الله عليه وسلم على القرون الثلاثة أو الأربعة ، وذكر مايحدث . السابعة أن الذين يشهدون ولا يستشهدون . الثامنة كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد .

---

(١) لما كان الناس في ذلك العصر على غاية من التقوى وقوة الإيمان ومعرفتهم بربهم وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كانوا حريصين على كل ما ينفع واجتناب كل ما يضر . ولا يخفى على العاقل أن الطفل إذا نشأ على حب عمل الخير وكراهة فعل الشر ينتظر منه في المستقبل ما ينفع أمته ويرفعها إلى أوج الكمال . وفيه تمرين الصغار على طاعة ربهم ونهيهم عما يضر بصالحهم . والله أعلم .

(٢) أى مع قلة داعى الشهوة في الأشمط وداعى التكبر في الفقير .

﴿ باب ما جاء فى ذِمَّةِ اللهِ وذِمَّةِ نَبِيِّهِ ﴾

وقوله : (وأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إذَا عَاهَدْتُمْ ، ولا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا) الآية[1].

---

(١) قال حافظ الشام علامة عصره ابن كثير في تفسيره : « هذا مما يأمر الله تعالى به ، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة . ولهذا قال : (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) . ولا تعارض بين هذه وبين قوله : (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) الآية ، وبين قوله : (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم) ، أي لا تتركوها بلا كفارة ، وبين قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير منها وتحللتها . وفي رواية : وكفرت عن يميني . لا تعارض بين هذا كله وبين الآية المذكورة ههنا ، وهي قوله : (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) ، لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة فى العهود والمواثيق ، لا الأيمان التى هى واردة على حث أو منع ، ولهذا قال مجاهد في قوله : (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) : يعني الحلف أي حلف الجاهلية ، ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا حلف في الإسلام ، وأيما حلف كان في الجاهلية فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدة . وكذا رواه مسلم . ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه ، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه » . والله أعلم .

وعن بُرَيْدَةَ قال: «كان رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم إذا أَمَّرَ أَمِيراً على جيشٍ أو سَرِيَّةٍ أَوصاهُ بتقوى اللهِ ومن معه من المسلمِين خيْراً، فقال: اغزُوا بِسم اللهِ فِي سَبيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ باللهِ، اغزُوا ولا تَغُلُّوا ولا تَغْدِرُوا ولا تُمَثِّلُوا ولا تقتُلُوا وَلِيداً، وإذا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المُشرِكِينَ فادْعُهُمْ إلى ثَلاثِ خِصالٍ، أو خِلَالٍ، فَأَيَّتُهُنَّ ما أجابُوكَ فاقبَلْ مِنهم وكُفَّ عنهم، ثمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسلامِ، فإن أجابُوكَ فاقبل منهم، ثم ادْعُهُمْ إلى التَّحَوُّلِ مِنْ دارِهِمْ إلى دارِ المُهاجِرِينَ، وأَخبِرْهُمْ أَنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما لِلْمُهاجِرِينَ وعليهم ما على المُهاجِرِينَ، فإن أَبَوْا أنْ يَتَحَوَّلُوا منها فَأَخبِرْهُمْ أنهم يَكُونونَ كَأَعْراب المسلمين، يَجْرِى عليهم حكم اللهِ تعالى ولا يكونُ لهم فِى الغَنِيمَةِ والفَىْءِ شَىْءٌ، إلاَّ أَنْ يُجاهِدُوا مع المسلمين، فإنْ هُمْ أَبَوْا فاسْأَلْهُم الجِزْيَةَ، فإن هُمْ أَجابُوكَ فاقبَلْ منهم وكُفَّ عنهم، فإن هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ باللهِ وقاتِلْهُمْ، وإذا حاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لهم ذِمَّةَ اللهِ وذِمَّةَ نَبِيِّهِ فلا تَجْعَلْ لهم ذِمَّةَ اللهِ وذِمَّةَ نَبِيِّهِ، ولكِن اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وذِمَّةَ أَصْحابِكَ، فإنكم أنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وذِمَّةَ أَصْحابِكُمْ

أهوَنُ مِنْ أنْ تخفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وذِمّةَ نَبيِّهِ ، وإذَا حاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أن تُنزلهم على حُكمِ اللهِ فلا تُنزِلْهُمْ على حُكمِ اللهِ ، ولكن أَنزِلْهُمْ على حكمكَ ، فإنَّكَ لا تَدْرِى أَتُصِيبُ فِيهم حكمَ اللهِ أمْ لاَ » رواه مسلم [١] .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى الجهاد . وهاك بيان كلماته اللغوية : قوله « إذا أمر » أي جعله أميراً . والسرية هي قطعة من الجيش تخرج منه تغير وترجع إليه ، وحصرها بعضهم بأربعمائة فارس أو نحو من ذلك . وقوله « ولا تغلوا » من الغلول ، وهو الأخذ من الغنيمة قبل القسمة . وقوله « ولا تغدروا » بكسر الدال المهملة . « ولا تمثلوا » أي ولا تشوهوا القتلى بقطع شيء من أجسادهم ، كقطع أنفه وأذنه والعبث به . و « الوليد » الصبي . وقوله « ثم ادعهم إلى الإسلام » قال النووي في شرحه : هكذا هو فى جميع نسخ صحيح مسلم « ثم ادعهم » قال القاضى عياض رضي الله تعالى عنه : صواب الرواية ادعهم بإسقاط « ثم » وقد جاء بإسقاطه على الصواب في كتاب أبي عبيد وفي سنن أبي داود وغيرها ، لأنه تفسير للخصال الثلاث وليست غيرها ، وقال المازري : ليست ثم هنا زائدة ، بل دخلت لاستفتاح الكلام والأخذ اهـ . وقوله « إلى دار المهاجرين » وهي المدينة المنورة ، وكان فى أول الأمر وجوب الهجرة إلى المدينة على كل من دخل فى الإسلام . وقوله « فإن أبوا أن يتحولوا » أي فإن امتنعوا بعد أن أسلموا من الهجرة ولم يجاهدوا لم يعطوا من الخمس ولا من الفيء شيئاً . قال النووي رحمه الله تعالى : إنهم إذا أسلموا استحب لهم أن يهاجروا إلى المدينة ، فإن فعلوا ذلك كانوا كالمهاجرين قبلهم فى استحقاق الفىء والغنيمة وغير ذلك ، وإلا فهم أعراب كسائر أعراب المسلمين الساكنين في البادية من غير هجرة ولا غزو ، فتجري عليهم أحكام الإسلام ، ولا حق لهم فى الغنيمة والفىء ، وإنما يكون لهم نصيب من الزكاة إن كانوا بصفة استحقاقها . قال الشافعى : الصدقات للمساكين ونحوهم ممن لاحق له فى الفيء ، والفىء للأجناد ،

فيه مسائل : الأولى الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين . الثانية الإرشاد إلى أقل الأمرين خطرًا . الثالثة قوله « اغزو بسم الله فى سبيل الله » . الرابعة قوله « قاتلوا من كفر بالله » . الخامسة قوله « استعن بالله وقاتلهم » . السادسة الفرق بين حُكم الله وحُكم العلماء . السابعة فى كون الصحابى يحكم عند الحاجة بحكم لايدرى أيوافق حكم الله أم لا .

قال : ولا يعطى أهل الفىء من الصدقات ، ولا أهل الصدقات من الفيء ، واحتج بهذا الحديث . وقال مالك وأبو حنيفة : المالان سواء ، ويجوز صرف كل واحد منهما إلى النوعين . وقال أبو عبيد : هذا الحديث منسوخ ، قال : وإنما كان هذا الحكم فى أول الإسلام لمن لم يهاجر ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) وهذا الذى ادعاه أبو عبيد لا يسلم له اهـ . و « الجزية » هي المال الذى يعقد الكتابى عليه الذمة ، وهي فعلة من الجزاء ، كأنها جزت عن قتله . وفيه دليل لمالك والأوزاعى ومن وافقهما فى جواز أخذ الجزية من كل كافر ، عربياً كان أو عجمياً ، كتابياً أو مجوسياً أو غيرهما . وقال أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه : تؤخذ الجزية من جميع الكفار إلا مشركى العرب ومجوسيهم . وقال الشافعى : لا تقبل إلا من أهل الكتاب والمجوس ، عرباً كانوا أو عجماً ، ويحتج بمفهوم آية الجزية ، وبحديث « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » لأن اسم المشرك يطلق على أهل الكتاب وغيرهم ، وكان تخصيصهم معلوماً عند الصحابة . واختلفوا فى قدر الجزية ، وبيان ذلك يعلم من مواضعه فى كتب الفقه والسنة . وقوله : « ذمة الله » قال العلماء : الذمة هنا العهد . وقوله : تخفروا ، هو بضم التاء ، يقال أخفرت الرجل إذا نقضت عهده ، وخفرته : أمنته وحميته . قالوا : وهذا نهي تنزيه ، أى لا تجعل لهم ذمة الله ، فإنه قد ينقضها من لا يعرف حقها وينتهك حرمتها بعض العرب وسواد الجيش . وقوله : « وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله » إلخ ، قال النووي رحمه الله تعالى : هذا النهي أيضاً على التنزيه والاحتياط . وفيه حجة لمن يقول : ليس كل مجتهد مصيباً ، بل المصيب واحد ، وهو الموافق لحكم الله تعالى فى نفس الأمر . والله أعلم .

﴿باب ما جاء فى الإِقْسامِ على الله﴾

عن جُنْدُب بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال رجلٌ : واللهُ لا يَغْفِرُ اللهِ لِفُلانٍ ، فقال الله عز وجل : مَنْ ذَا الَّذِى يَتَأَلَّى (١) علىَّ أن لاّ أغْفِرَ لفلانٍ ، إنّى قد

---

(١) قوله : « يتألى » يحلف ويحكم على الله ، وهو من الألية ، بتشديد الياء المثناة من تحت ، أى اليمين ، يقال آلى يولى إيلاء ، وتألى يتألى تألياً ، والاسم الألية . قال فى الشرح : « وصح من حديث أبى هريرة ، قال البغوى فى شرح السنة ، وساق بالسند إلى عكرمة بن عمار قال : دخلت مسجد المدينة فنادانى شيخ ، قال : يا يماني تعال ، وما أعرفه ، قال : لاتقولن لرجل والله لايغفر الله لك أبداً ولايدخلك الجنة ، قلت: ومن أنت يرحمك الله؟ قال : أبو هريرة ، فقلت : إن هذه كلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب أو لزوجته أو لخادمه ، قال : فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن رجلين كانا فى بنى إسرائيل متحابين ، أحدهما مجتهد في العبادة ، والآخر ، كأنه يقول مذنب ، فجعل يقول : أقصر عما أنت فيه ، قال : فيقول : خلنى وربى ، قال : فوجده يوماً على ذنب استعظمه ، فقال: أقصر ، فقال : خلنى وربى ، أبعثت عليّ رقيباً ؟ فقال : والله لايغفر الله لك ولايدخلك الجنة أبداً ، قال : فبعث الله إليهما ملكا فقبض أرواحهما ، فاجتمعا عنده ، فقال للمذنب : ادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر : أتستطيع أن تحظر على عبدي رحمتى ؟ قال : لا يارب ، قال : اذهبوا به إلى النار ، قال أبو هريرة : والذى نفسى بيده تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته . ورواه أبو داود في سننه ، وهذا لفظه: عن أبى هريرة رضى الله عنه يقول: كان رجلان في بنى إسرائيل متآخيين، فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد فى العبادة ، فكان لايزال المجتهد يرى الآخر على الذنب ، فيقول : أقصر ، فوجده يوما على ذنب فقال له : أقصر ،

غفرت له وأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ » رواه مسلم . وفى حديث أبى هريرة : أَنَّ القائِلَ رجلٌ عابدٌ[١] . قال أبو هريرة : تَكَلَّمَ بِكَلِمةٍ أَوْبَقَتْ دنياه وآخِرتَه[٢] .

فيه مسائل : الأولى التحذير من التألى على الله . الثانية كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله[٣] . الثالثة أن الجنة مثل ذلك . الرابعة فيه شاهد لقوله « إن الرجل ليتكلم بالكلمة » إلى آخره . الخامسة أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور اليه .

فقال : خلني وربى ، أبعثت عليّ رقيباً ؟ قال : والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة ، فقبضت أرواحهما ، فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال لهذا المجتهد : أكنت بى عالماً ؟ أو كنت على ما فى يدى قادراً ؟ فقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة ، وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار .

(١) قال فى الشرح : « قوله في حديث أبي هريرة : أن القائل رجل عابد ، يشير إلى قوله في هذا الحديث : أحدهما مجتهد في العبادة . وفي هذه الأحاديث بيان خطر اللسان ، وذلك يفيد التحرز من الكلام ، كما في حديث معاذ : قلت : يارسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : ثكلتك أمك يامعاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم ، أو قال على مناخرهم ، إلا حصائد ألسنتهم . والله أعلم » .

(٢) أى أهلكت .

(٣) هو سير النعل ، وهذا كناية عن شدة القرب .

﴿ بابٌ لا يُسْتَشْفَعُ بالله على خَلْقِهِ ﴾

عن جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قال : « جاء أعْرَابيٌّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رَسُولَ اللهِ نُهِكَتِ الأَنْفُس ، وجاعَ العِيَالُ ، وهَلَكَتِ الأمْوالُ ، فاسْتَسْقِ لنَا رَبَّكَ ، فإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بالله عليك وبك على اللهِ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : سُبْحَانَ اللهِ ، سُبْحَانَ اللهِ ، فما زال يُسَبِّحُ حتى عُرِفَ ذلك في وُجُوهِ أصحابه ، ثم قال : وَيْحَكَ ، أَتَدْرِي ما اللهُ ؟ إنَّ شَأْنَ اللهِ أعْظَمُ من ذلكَ ، إنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ على أَحَدٍ »(١) وذكَرَ الحديثَ ، رواه أبو داود .

---

(١) الاستشفاع طلب الشفاعة ، ولا نستشفع بالله على أحد ، لأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه ، والخير كله بيده ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، ولا راد لما قضى ، وما كان الله ليعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، والخلق وما في أيديهم ملكه ، يتصرف فيهم كيف يشاء . وقوله « نهكت الأنفس » بصيغة المبني للمجهول ، أي جهدت وضعفت وقلت . وقوله « حتى عرف ذلك » الإشارة إلى غضب الأصحاب لغضب الرسول صلى الله عليه وسلم لما سمع من الأعرابي ذلك . قال في الشرح : « وأما الاستشفاع بالرسول صلى الله عليه وسلم في حياته فالمراد به استجلاب دعائه ، وليس خاصاً به صلى الله عليه وسلم ، بل كل حي صالح يرجي أن يستجاب له فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة ، كما

فيه مسائل : الأولى إنكاره على من قال « نستشفع بالله عليك » . الثانية تغيره تغيراً عرف فى وجوه أصحابه من هذه الكلمة . الثالثة أنه لم ينكر عليه قوله « نستشفع بك على الله » . الرابعة التنبيه على تفسير « سبحان الله » . الخامسة أن المسلمين يسألونه الاستسقاء .

قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر لما أراد أن يعتمر من المدينه : لا تنسنا يا أخى من صالح دعائك. وأما الميت فإنما يشرع فى حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفى غير ذلك، وهذا هوالذي يشرع فى حق الميت. وأما دعاؤه فلم يشرع ، بل قد دل الكتاب والسنة على النهي عنه والوعيد عليه ، كما قال تعالى : (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم، ولو سمعوا ما استجابوا لكم، ويوم القيامة يكفرون بشرككم) . فبين الله تعالى أن دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شرك يكفر به المدعو يوم القيامة ، أى ينكره ويعادى من فعله ، كما فى آيات الأحقاف (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) . فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر . والصحابة رضى الله عنهم ، لا سيما أهل السوابق منهم ، كالخلفاء الراشدين ، لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم أنهم أنزلوا حاجاتهم بالنبي عليه السلام بعد وفاته ، حتى فى أوقات الجدب ، كما وقع لعمر رضى الله عنه لما خرج ليستسقى بالناس خرج بالعباس عم النبي عليه الصلاةالسلام ، فأمره أن يستسقى، لأنه حي حاضر يدعو ربه ، فلو جاز أن يستسقى بأحد بعد وفاته لاستسقى عمر رضى الله عنه والسابقون الأولون بالنبي صلى الله عليه وسلم . وبهذا يظهر الفرق بين الحى والميت ، لأن المقصود من الحى دعاؤه إذا كان حاضراً ، فإنهم فى الحقيقة إنما توجهوا إلى الله بطلب دعاء من يدعوه ويتضرع إليه ، وهم كذلك يدعون ربهم ، فمن تعدى المشروع إلى ما لا يشرع ضل وأضل ، ولو كان دعاء الميت خيراً لكان الصحابة إليه أسبق ، وعليه أحرص ، وبهم أليق ، وبحقه أعلم وأقوم ، فمن تمسك بكتاب الله نجا ، ومن تركه واعتمد على عقله هلك . وبالله التوفيق » .

﴿ باب ما جاء في حمَايَة النبي صلى الله عليه وسلم حِمى التَّوْحيدِ وسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ[1] ﴾

عن عبد الله بن الشِّخِّيرِ رضى الله عنه قال : « انْطَلَقْتُ فى وفد بنى عامرٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلنا : أَنتَ سَيِّدُنا ، فقال : السَّيِّدُ اللهُ تبارك وتعالى ، قلنا : وأَفضَلُنا فَضْلاً وأَعْظَمُنا طَوْلاً ، فقال : قولوا بِقَوْلِكُمْ أو بعضِ قَوْلِكُمْ ، ولاَ يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ » رواه أبو داود بسند جَيِّدٍ[2] .

---

(١) حماية الشيء : صونه عما يتطرق إليه من مكروه أو خلل أو أذى • وحمايته حمى التوحيد : صونه عما يشوبه من الأقوال والأعمال التى يضمحل معها التوحيد أو ينقص وما جاء فى ذلك كثير من السنة الثابتة الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منها ما رواه الترمذي وغيره . « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » .

(٢) قوله « وأعظمنا طولا » أى فضلا وقدرة . وقوله « ولا يستجرينكم » أى لا يستغلبنكم فيتخذكم جرياً أى رسولا ووكيلا ، قال صاحب النهاية : وذلك أنهم كانوا مدحوه فكره لهم المبالغة فى المدح فنهاهم عنه ، يريد تكلموا بما يحضركم من القول ولاتتكلفوه كأنكم وكلاء الشيطان ورسله تنطقون عن لسانه . وفي الحديث النهي عن تسمية المخلوق بالسيد، واختلف العلماء في ذلك ، قال ابن القيم فى بدائع الفوائد : «اختلف الناس فى جواز إطلاق السيد على البشر : فمنعه قوم ، ونقل عن مالك ، واحتجوا بقول النبى صلى الله عليه

وعن أنس رضى الله عنه : « أَنَّ ناساً قالوا : يا رسول الله ، يا خَيْرَنا وابْنَ خيْرِنا ، وسَيِّدَنا وابنَ سَيِّدِنا ، فقال : يا أَيُّها النَّاسُ قُولوا بقَوْلِكُمْ ، ولاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ ورسولُه ، مَا أُحِبُّ أَن تَرْفَعُونِى فَوْقَ مَنْزِلَتِى الَّتِى أَنْزَلَنِى الله عز وجل » رواه النَّسائىُّ بسند جيِّدٍ .

فيه مسائل : الأولى تحذير الناس من الغلو . الثانية ما ينبغى أن يقول من قيل له « أنت سيدنا » . الثالثة قوله « لا يستجرينكم الشيطان » مع أنهم لم يقولوا إلا الحق . الرابعة قوله « ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى » .

وسلم لما قيل له : ياسيدنا ، قال : السيد الله تبارك وتعالى . وجوزه قوم ، واحتجوا بقول النبي عليه الصلاة والسلام : قوموا إلى سيدكم ، وهذا أصح من الحديث الأول . قال هؤلاء : السيد أحد ما يضاف إليه فلا يقال للتميمى : سيد كندة ، ولا يقال للملك : سيد البشر ، قال : وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم . وفى هذا نظر ، فإن السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو فى منزلة الملك والمولى والرب ، لا بمعنى الذى يطلق على المخلوق » .

﴿ باب ما جاء فى قول الله تعالى ﴾

(وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيامَةِ) الآية[1].

---

(١) قال الحافظ أبو الفداء عماد الدين بن كثير في تفسيره : « يقول تبارك وتعالى : (وما قدروا الله حق قدره) أى ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذى لا أعظم منه ، القادر على كل شىء ، المالك لكل شىء ، وكل شىء تحت قهره وقدرته . قال مجاهد : نزلت في قريش . وقال السدى : ما عظموه حق تعظيمه . وقال محمد بن كعب : لو قدروه حق قدره ما كذبوه . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : (وما قدروا الله حق قدره) هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم ، فمن آمن أن الله على كل شىء قدير فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره . وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة ، الطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف . قال البخارى : قوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره) : حدثنا آدم حدثنا سفيان عن منصور عن إبرهيم عن عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله عليه الصلاة والسلام حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) الآية » . ورواه البخاري أيضاً فى غير هـذا الموضع من صحيحه والإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائي في التفسير من سننيهما ، كلهم من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن إبرهيم عن عبيدة عن ابن مسعود رضى الله عنه بنحوه . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن

علقمة عن عبد الله رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب ، فقال : يا أبا القاسم أبلغك أن الله تعالى يحمل الخلائق على إصبع ، والسموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ؟ قال : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه . قال : وأنزل الله عز وجل (وما قدروا الله حق قدره) إلى آخر الآية . وهكذا رواه البخارى ومسلم والنسائى من طرق عن الأعمش به . وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن حسن الأشقر حدثنا أبو كدينة عن عطاء عن أبى الضحى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : مر يهودي برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس ، فقال : كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله سبحانه وتعالى السماء على ذه ، — وأشار بالسبابة — والأرض على ذه ، والجبال على ذه ، وسائر الخلق على ذه ؟ وكل ذلك يشير بأصابعه . قال : فأنزل الله عز وجل : (وما قدروا الله حق قدره) الآية . وكذا رواه الترمذى فى التفسير عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى عن محمد بن الصلت عن أبى جعفر عن أبى كدينة يحي بن المهلب عن عطاء بن السائب عن أبى الضحى مسلم بن صبيح به ، وقال : حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . ثم قال البخارى : حدثنا سعيد بن عفير حدثنا الليث حدثنا عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يقبض الله تعالى الأرض ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ تفرد به من هذا الوجه ، ورواه مسلم من وجه آخر . وقال البخارى فى موضع آخر : حدثنا مقدم بن محمد حدثنا عمى القاسم بن يحي عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تبارك وتعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع ، وتكون السموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك . تفرد به أيضاً من هذا الوجه ، ورواه مسلم من وجه آخر . وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول ، فقال : حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا إسحق بن عبد الله بن أبى طلحة عن عبيد الله بن مقسم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآيات ذات يوم على المنبر : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون) ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هكذا بيده ، يحركها ، يقبل

بها ويدبر ، يمجد الرب نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر حتى قلنا : ليخزن به . وقد رواه مسلم والنسائي وابن ماجة من حديث عبد العزيز أبي حازم ، زاد مسلم : ويعقوب بن عبد الرحمن ، كلاهما عن أبي حازم عن عبيد الله بن مقسم عن ابن عمر رضى الله عنهما به نحوه . ولفظ مسلم عن عبيد الله بن مقسم فى هذا الحديث : أنه نظر إلى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كيف يحكى النبي صلى الله عليه وسلم قال : يأخذ الله تبارك وتعالى سمواته وأرضيه بيده ، ويقول : أنا الملك ، ويقبض أصابعه ويبسطها : أنا الملك ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى إنى لأقول : أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وقال البزار : حدثنا سليمان بن سيف حدثنا أبو على الحنفى حدثنا عباد المنقرى حدثني محمد بن المنكدر قال حدثنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية على المنبر :(وما قدروا الله حق قدره) حتى بلغ (سبحانه وتعالى عما يشركون) ، فقال المنبر هكذا ، فجاء وذهب ثلاث مرات . والله أعلم . ورواه الإمام الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبيد بن عمير عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، وقال : صحيح . وقال الطبرانى فى المعجم الكبير : حدثنا عبد الرحمن بن معاوية العتبي حدثنا حسان بن نافع عن صخر بن جويرية حدثنا سعيد بن سالم القداح عن معمر بن الحسن عن بكر بن خنيس عن أبي شيبة عن عبد الملك بن عمير عن جرير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفر من أصحابه رضى الله عنهم : إني قارىء عليكم آيات من آخر سورة الزمر ، فمن بكى منكم وجبت له الجنة ، فقرأها صلى الله عليه وسلم من عند (وما قدروا الله حق قدره) إلى آخر السورة، فمنا من بكى ومنا من لم يبك ، فقال الذين لم يبكوا : يارسول الله لقد جهدنا أن نبكي فلم نبك ، فقال صلى الله عليه وسلم : إني سأقرؤها عليكم فمن لم يبك فليتباك . هذا حديث غريب جداً . وأغرب منه مارواه في المعجم الكبير أيضاً : حدثنا هاشم بن زيد حدثنا محمد بن إسمعيل بن عياش حدثنى أبى حدثنى ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يقول : ثلاث خلال غيبتهن عن عبادى ، لو رآهن رجل ما عمل بسوء أبداً ، لو كشفت غطائى فرآني حتى استيقن، ويعلم كيف أفعل بخلق إذا أتيتهم وقبضت السموات بيدى ، ثم قبضت الأرضين، ثم قلت : أنا الملك ، من ذا الذى له الملك دونى ؟ فأريهم الجنة وما أعددت لهم فيها من كل

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « جاءَ حَبْرٌ[١] مِن الأَحْبارِ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا مُحَمَّد ، إنّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّموات على إصْبَعٍ ، والأَرَضِينَ على إصْبَعٍ ، والشَّجَرَ على إصْبَعٍ ، والماءَ على إصْبَعٍ ؛ والثَّرَى على إصْبَعٍ ، وسائرَ الخلقِ على إصْبَعٍ ، فيَقُولُ : أنا المَلِكُ ، فَضَحِكَ النبي صلى الله عليه وسلم حتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، تَصْدِيقاً لقولِ الحَبْرِ ، ثُمَّ قَرَأَ (وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأَرضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيامَةِ) الآية » .

وفى رواية لمسلمٍ : « والجِبالَ والشَّجَرَ على إِصْبعٍ ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فيقولُ : أنا المَلِكُ ، أنا اللهُ » .

وفى رواية للبخارى : « يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ على إصبعٍ ، والماءَ والثَّرَى[٢] على إصبعٍ ، وسائِرَ الخلقِ على إصبعٍ » . أخرجاه .

خير فيستيقنوها ، وأريهم النار وما أعددت لهم فيها من كل شر فيستيقنوها ، ولكن عمداً غيبت ذلك عنهم لأعلم كيف يعملون . وهذا إسناد متقارب ، وهى نسخة تروى بها أحاديث جمة . والله أعلم » .

(١) أى عالم من علماء اليهود .

(٢) هو التراب ، والمراد الأرض . ومذهب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن تبعهم بإحسان الإيمان بهذا الحديث ونحوه بلا تحريف ولا إنكار على العليم والحكيم . وكذب به الجهمية فحرفوه إلى ما يشتهون .

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً : « يَطْوِى اللهُ السَّموات يوم القِيامَةِ ثم يأخذهن بيده اليُمْنَى ، ثم يقولُ : أَنَا المَلِكُ ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ ، أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ ، ثم يَطْوِى الأَرَضِينَ السَّبْعَ ثم يأخذهن بِشِمالِهِ ، ثم يقول : أَنَا الملكُ ، أَيْنَ الجبَّارُونَ ، أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ ؟ » .

ورُوِىَ عن ابن عباس قال : ما السّمواتُ السّبْعُ والأَرَضُونَ السَّبْعُ فى كَفِّ الرَّحْمَنِ إلاَّ كَخَرْدَلَةٍ فى يَدِ أَحَدِكُمْ .

وقال ابن جريرٍ : حدثنِي يونُسُ أخبرنا ابنُ وَهْبٍ قال : قال ابْنُ زَيْدٍ : حدثنى أَبى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما السَّمواتُ السَّبْعُ فِى الكُرْسِيِّ إلا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِى تُرْسٍ »[١] قال : وقال أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما الكُرْسِيُّ فِى العَرْشِ إلاَّ كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَىْ فَلاَةٍ مِنَ الأَرض »[٢] .

---

(١) بضم المثناة ، صفحة من فولاذ تحمل لاتقاء الضرب بالسيف .

(٢) أى وسط فلاة . وهذا يدل على عظم العرش والكرسي ، والله هو العالم بشكلهما .

وعن ابن مسعودٍ قال : بين السماءِ الدُّنْيا والتى تَلِيها خَمْسُمائةِ عامٍ، وبين كل سماءٍ خَمْسُ مائَةِ عَامٍ ، وبين السماءِ السَّابعَةِ والـكُرْسِيِّ خَمْسُمائَةِ عامٍ ، وبين الـكُرْسِيِّ والماءِ خَمْسُمائَةِ عَامٍ ، والعَرْشُ فوق الماءِ ، واللهُ فوق العَرْشِ ، لا يَخْـفَى عليه شىءٌ من أَعْمالِـكُمْ . أخرجه ابن مَهْدِيّ عن حَمّاد بن سَلَمَـةَ عن عاصم عن زِرٍّ عن عبد الله. ورواه بنحوِهِ المَسْعُودِيُّ عن عاصمٍ عن أبى وائِلٍ عن عبد الله . قاله الحافِظُ الذَّهَبِيُّ رحمه الله تعالى ، قال : وله طُرُقٌ(١) .

وعن العَبَّاسِ بن عبد المُطَّلِبِ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السماءِ والأرضِ؟ قلنا : اللهُ ورَسُولُهُ أعلم ، قال : بينهما مسيرةُ خَمسِمائَةِ سنةٍ ، ومِنْ كلِّ سَماءٍ إلى سماءٍ مسيرةُ خَمْسِمائَةِ سَنَةٍ ، وكِثَفُ كُلِّ سَماءٍ مسيرَةُ خَمْسِمائَةِ سنةٍ ، وبين السماء السابعة والعرشِ بَحْرٌ بين أسفله وأعلاهُ كما بين السماء والأرض ، والله تعالى فوقَ ذلك ، وليس يَخْـفَى عليهِ شىءٌ من أعمال بنى آدَمَ » . أخرجه أبو داود وغيره .

---

(١) قال الذهبي : رواه أبو داود بإسناد حسن ، ورواه الترمذى وقال : حسن غريب اهـ من الشارح .

فيه مسائل : الأولى تفسير قوله (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) . الثانية أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين فى زمنه صلى الله عليه وسلم لم ينكروها ولم يتأولوها . الثالثة أن الحبر لما ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم صدقه ونزل القرآن بتقرير ذلك . الرابعة وقوع الضحك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم . الخامسة التصريح بذكر اليدين وأن السموات فى اليد اليمنى والأرضين فى الأخرى . السادسة التصريح بتسميتها الشمال . السابعة ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك . الثامنة قوله « كخردلة[1] فى كف أحدكم » . التاسعة عظم الكرسى بالنسبة إلى السماء . العاشرة عظم العرش بالنسبة إلى الكرسى . الحادية عشرة أن العرش غير الكرسى والماء . الثانية عشرة كم بين كل سماء إلى سماء . الثالثة عشرة كم بين السماء السابعة والكرسى . الرابعة عشرة كم بين الكرسى والماء . الخامسة عشرة أن العرش فوق الماء . السادسة عشرة أن الله فوق العرش . السابعة عشرة كم بين السماء والأرض . الثامنة عشرة كثف كل سماء خمسمائة سنة . التاسعة عشرة أن البحر الذى فوق السموات بين أسفله وأعلاه خمسمائة سنة . والله أعلم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

تم كتاب التوحيد
الذي هو حق الله على العبيد والحمد لله

---

(١) واحدة الخردل ، وهو حب صغير جداً .

فهرس

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

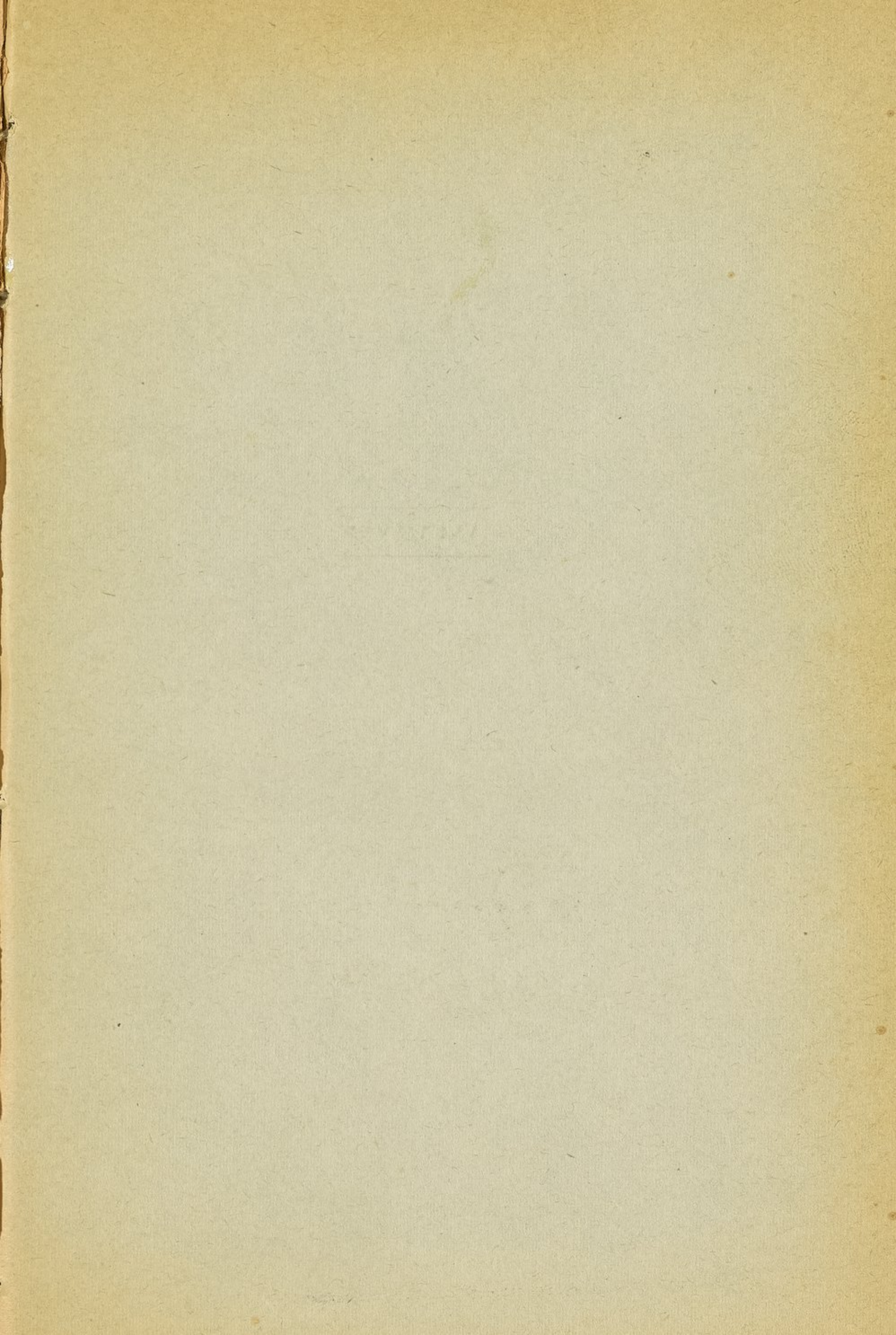
صحيفة

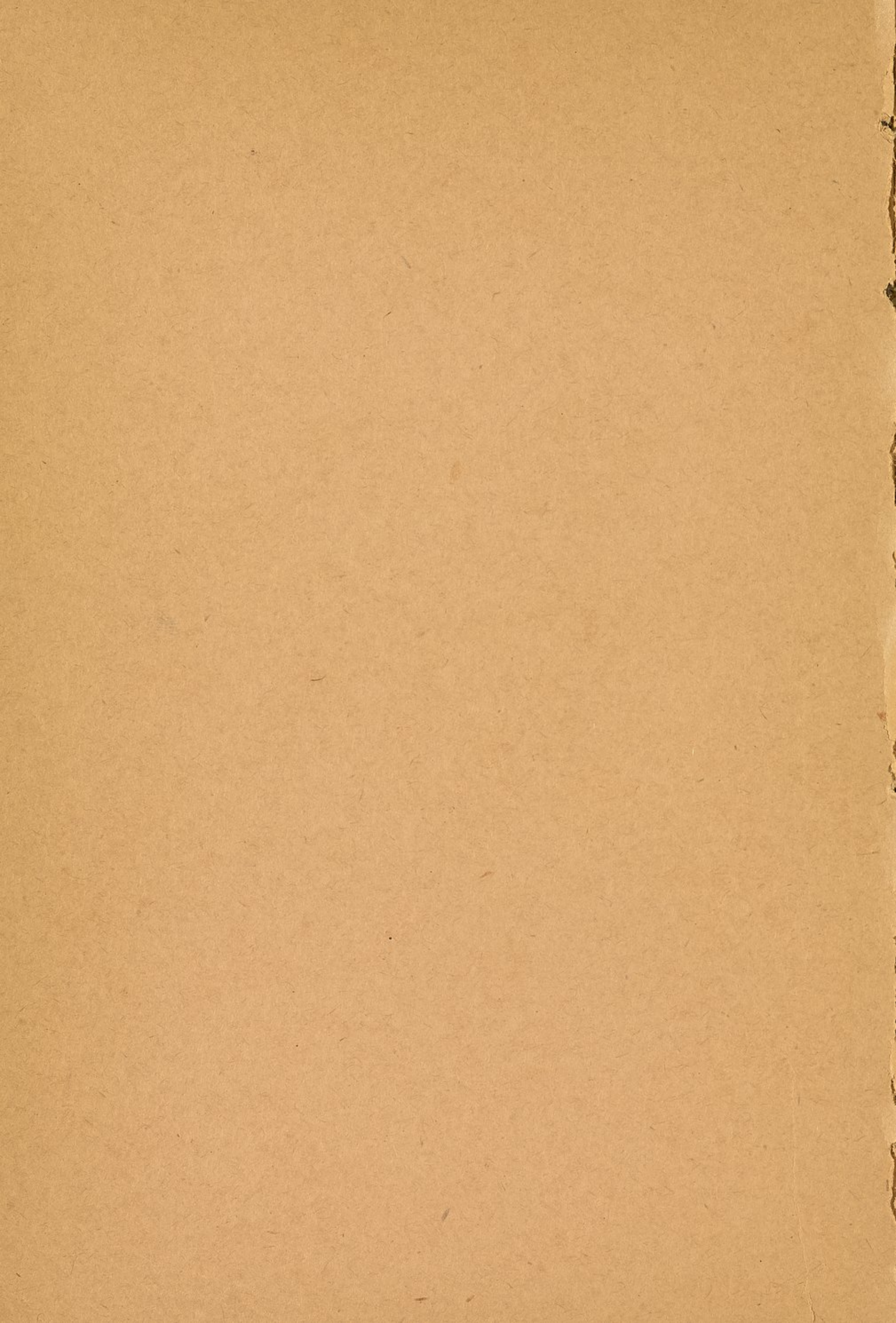
تصويب

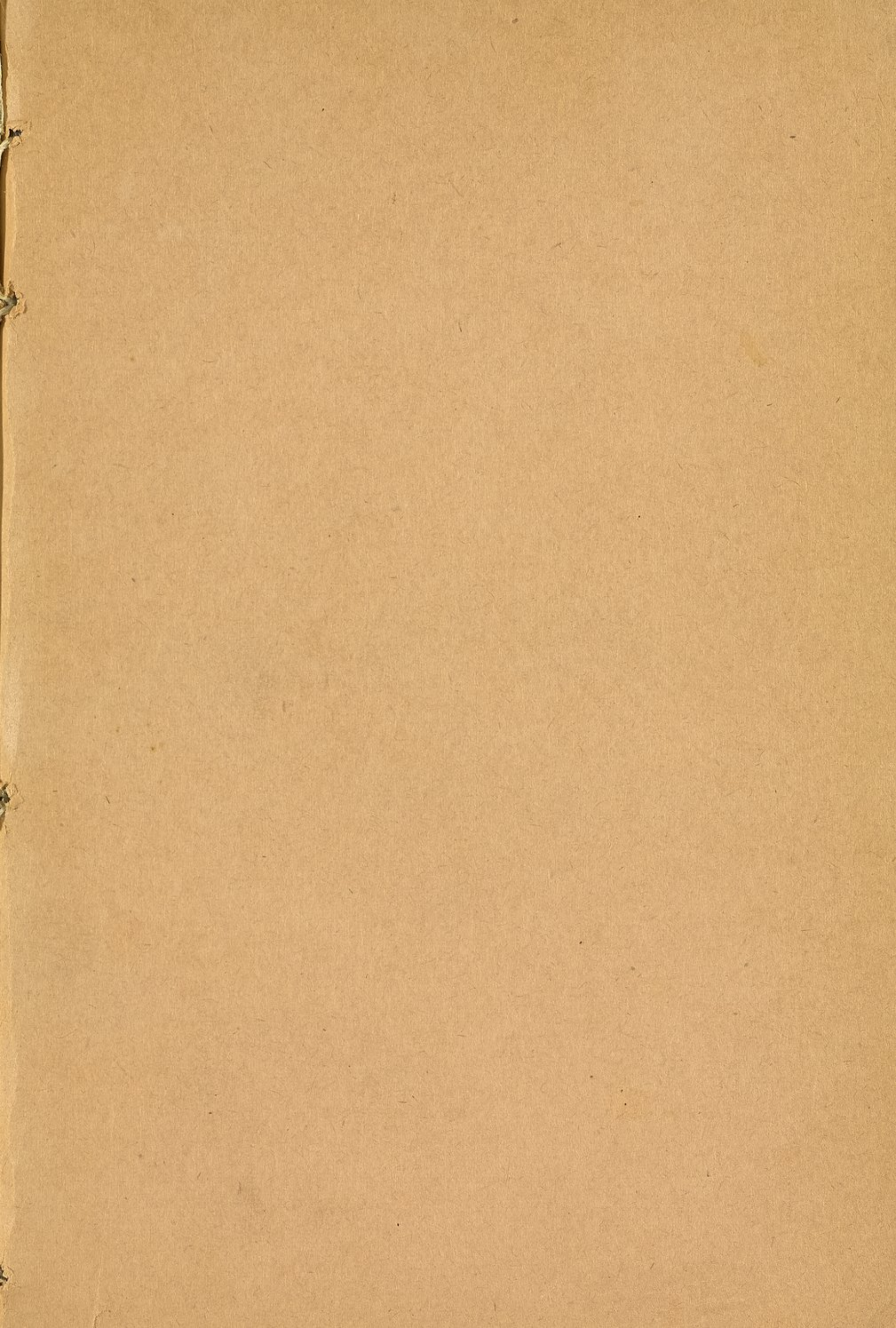
كلمات وقعت خطأ فى الطبع نرجو أن يصححها القارئ

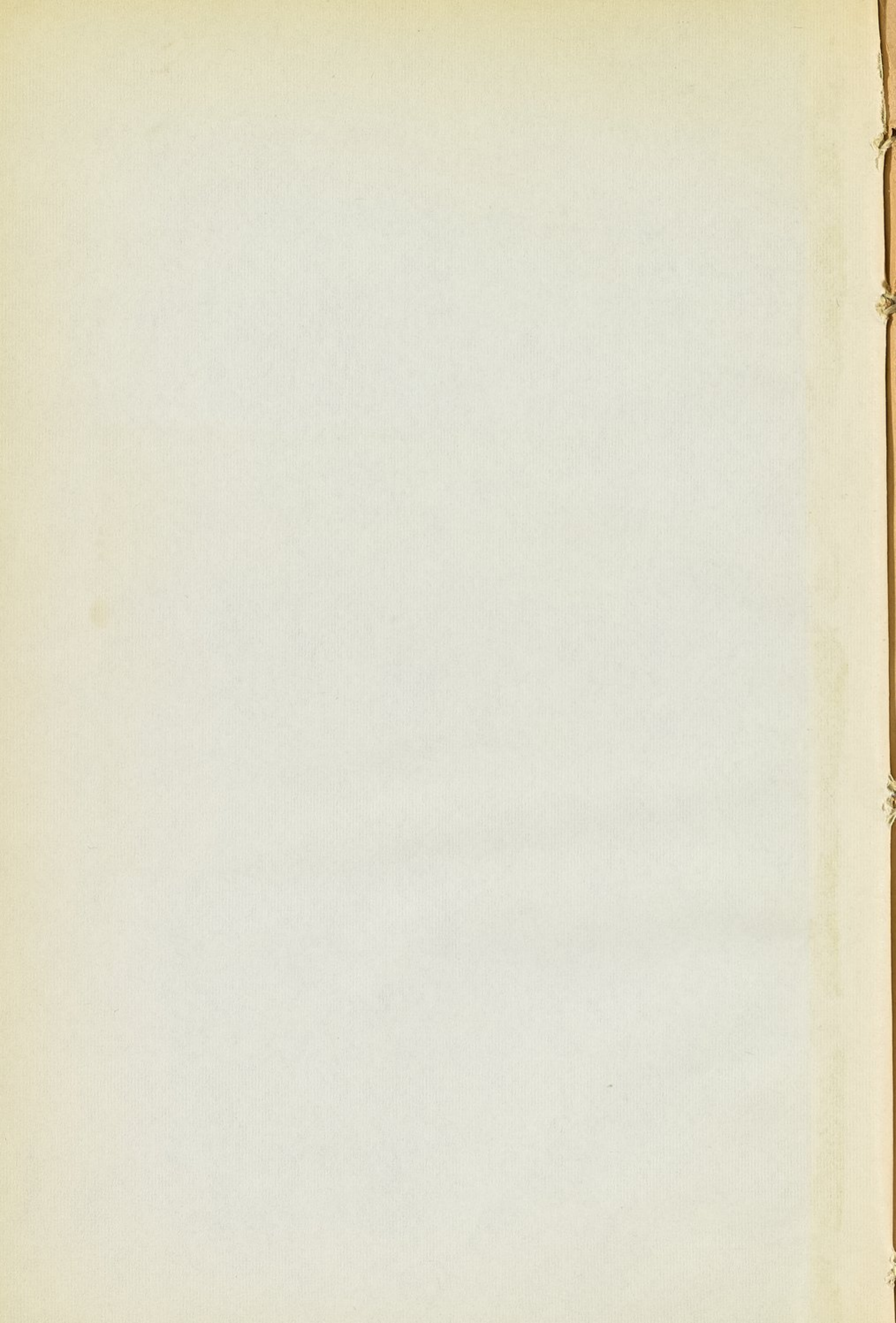
ص ٦٤ س ٩ هامش	والطاغوت
ص ٦٤ س ١٣ هامش	حُيَيّ بن أخطب
ص ١٤٥ السطر الأخير من الهامش	وهو يدعو
ص ١٤٩ السطر الذى قبل الأخير من الهامش	ومفتيها

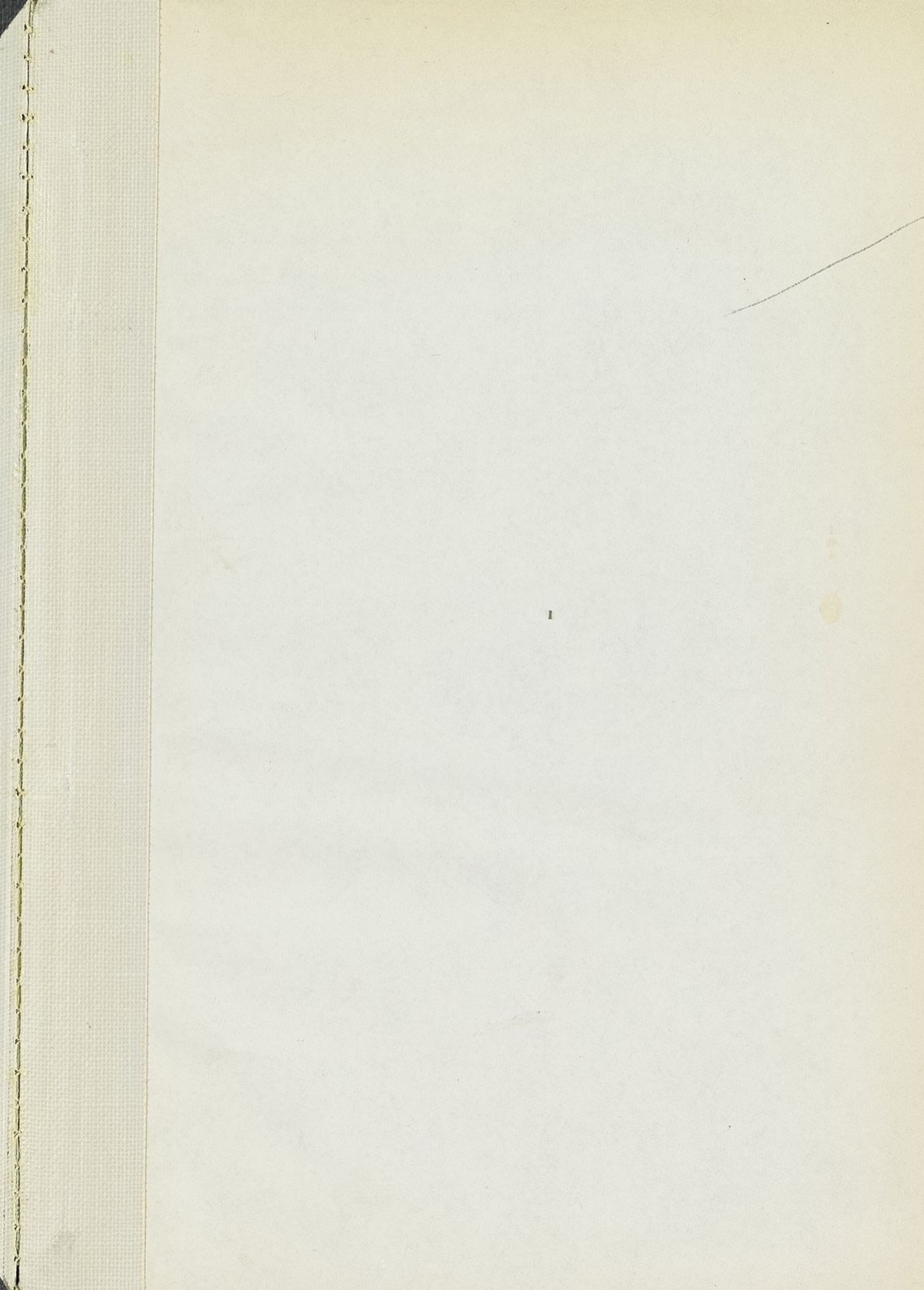
١٩٤٦/١٧٠٢

















Princeton University Library
32101 099435255